خيرونيمو مونزر

رحلة إلى إسبانيا والبرتغال

١٤٩٤ - ١٤٩٥



د/ أحمد محمد الطوخي

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الكويت



رحلـــــــة إلي

إسبانيـــــــا والبرتـــغال

١٤٩٤ ـ ١٤٩٥

خيـرونيمو مونــزر

رحلـــــة إلي إسبانيـــا والبرتـــغال ١٤٩٤ ــ ١٤٩٥

تعـــريب
د. أحمد محمد الطوخي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب ــ جامعة الكويت

٢٠١٠

مركز الإسكندرية للكتاب
٤٦ ش د. مصطفى مشرفة ــ الأزاريطة
ت.ف: ٠٠٢٠٣٤٨٤٦٥٠٨
alexbookcenter@yahoo.com

اسم المؤلــف : د. أحمد محمد الطوخي
رقم الإيـــداع : ٢٠٠٩/٢٠٠٧٩
الترقيم الدولي : 978-977-388-250-6
تاريخ النشر : ٢٠١٠
النـــاشـــر : مركز الإسكندرية للكتاب

٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة – الأزاريطة- الإسكندرية
تليفون وفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨

تقديم الترجمة العربية

لرحلة خيرونيمو مونزر إلى إسبانيا والبرتغال

(١٤٩٤-١٤٩٥)

بقلم الأستاذ د. أحمد محمد الطوخي

د. ناصر الدين سعيدوني

تشكل الرحلة مصدرا تاريخيا أوليا وصنفا أدبيا متميزا ورصدا جغرافيا حيا، وذلك لما تحتوي عليه من معلومات تاريخية دقيقة وأوصاف بشرية معبرة و صور أدبية طريفة للفترات التي تعود إليها والمجتمعات التي تتناولها بالوصف، فهي تتحسس نبضات المجتمع وترصد مظاهر الطبيعة وتسجل سلوك الإنسان وتعلق علي اهتمامات الفرد. وهذا ما أكسبها مكانة متميزة في عالم التراث المكتوب ومجال الثقافة الموثقة.

إن الرحلة بحكم كونها ذاكرة متجددة وسجلا حيا لوقائع الحياة، تجمع بين ما تحتويه التقارير الخاصة وما تهتم به المذكرات الشخصية وما تسجله التراجم وكتب الجغرافية، فهي نتاج خيال الأديب في تعبيره عن نظرته للحياة، ولسان المثقف في انطباعه عن العالم، وسجل المؤرخ في محاولته

التعرف علي حقيقة الأحداث وطبيعة الأشياء، مما يجعلها بحق مرآة عاكسة لاهتمامات المجتمع وتطلعات الأفراد.

إن إشكالية التعامل مع الرحلة كتعبير أدبي ومضمون معرفي يتأتى من كونها تمزج في تسجيلها للوقائع وعرضها للأحداث بين ذاتية الفرد المعبرة عن ميوله والمتحكمة في سلوكه، وبين موضوعية الملاحظ لحقائق الأشياء، فهذه الازدواجية في الرؤية والتناول تفرض علي المتعامل معها أن يجمع بين مقاربة الأديب في تحليله للنصوص وبين نقد الباحث في تمحيصه ونقده لمضمون تلك النصوص.

إن الرحلة من خلال دوافعها ومواضيعها وطريقة عرضها تعبر عن روح المغامرة لاستكشاف المجهول ومعرفة حقيقة الآخر، وهذا ما يجعلها ترتبط عادة بفترات تيقظ الأمم ومراحل رقي الشعوب. فقد كان العالم الإسلامي مبدعا في الرحلات عندما كانت ثقافته عالمية ذات نزعة إنسانية تهتم بكل ما يتصل بالفرد في سلوكه وتطلعاته كما يلمس ذلك في مضمون العديد من الرحلات الاستطلاعية في البلاد البعيدة والأقاليم النائية، من قبيل رحلات ابن فضلان و بنيامين التطيلي وابن بطوطة وغيرهم.

وما كادت تخبو رغبة الاطلاع والاستكشاف لدى المسلمين بعد أن فضلوا الانكماش على أنفسهم والتقوقع على ذاتهم ليجتروا تراثهم ويتغنوا بماضيهم منذ القرن التاسع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حتى بدأ الأوربيون يتطلعون إلى فرض وجودهم الحضاري، فاندفعوا لريادة الفضاءات الإنسانية خارج قارتهم، فكان السبق في ذلك للإيطاليين ومن تأثر بهم بدءا بماركو بولو ووصولا إلى

إينياس سيلفيوس و ليوناردو ألبيرتي و أندريا نافا جيرو (١٥٢٦)، فقد أصبحت الرحلة إحدى مظاهر حياتهم بفعل روح النهضة التي عمت المدن الإيطالية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، والتي كان دافعها البحث عن المجهول ومنطلقها التواصل مع الآخر وهدفها تكوين صورة عن المجتمعات التي تسعى للتواصل معها.

وفي هذا الإطار تحتل رحلة خيرونيمو مونزر مكانة خاصة بين العديد من الرحلات الأوربية، فهي رغم المدة القصيرة التي استغرقتها والتي لم تتجاوز خمسة أشهر (أغسطس ١٤٩٤-فبراير ١٤٩٥) فإنها تقدم نموذجا متكاملا لرحلات عصر النهضة من حيث دقة الوصف وعمق الملاحظة والاهتمام بكل ما يتصل بالفرد أو يتعلق بالأشياء التي يستعملها أو يتصل بالسلوك الذي يصدر عنه.

ومما زاد في أهمية هذه الرحلة مستوى ثقافة صاحبها وقوة ملاحظته، فهو طبيب ألماني درس الطب ببافيا وأقام مدة بروما وتأثر بالقيم الإنسانية لحركة النهضة التي كانت تعيشها المدن الإيطالية، فجاءت الرحلة في شكل عرض سياحي ممتع، تتعدد مناظرها وتختلف صورها من مكان إلى مكان عبر ربوع إسبانيا والبرتغال في وصفها لمراحل الطريق وتوقفها عند المحطات والمزارات ورسمها لمشاهد تعبر عن واقع الحياة واهتمامات الناس ومظاهر العمران وحالة الاقتصاد بإسبانيا التي نجد صورها في لوحات الفنان الغريكو المعبرة، وتنقلنا هذه الرحلة من جنوب فرنسا (بربينيان) إلى مراكز السواحل الشرقية الإسبانية المعروفة بالثغر الأعلى وإقليم الشرق مثل خيرونة وبرشلونة وطرطوشة وبلنسية والقنت ومرسية ولورقة وألبيرة، وتصلنا إلى حواضر

الأندلس مثل وادي آش وغرناطة ومالقة وإشبيلية وسان لوكار، ومرورا بحواضر غرب الأندلس (الغرب أو الثغر الأدنى) مثل لشبونة وشنترين وقلمرية وأوبورتو، وانتهاء بمراكز الشمال والوسط (جليقية وليون والثغر الأوسط) مثل سانتياغو دي كومبوستيلا وسمورة وشلمنقة وطليطلة ومدريد ووادي الحجارة ومدينة سالم وسرقسطة وتطيلة وبمبلونة.

لقد تضمنت الرحلة معلومات في غاية الأهمية عن واقع الحياة في شبه الجزيرة الإيبيرية في فترة تحولها من ممالك مسيحية تسودها تقاليد العصر الوسيط وتستبد بها عقلية حرب الاسترداد (الريكونكيستا) إلى دولتين حديثتين وهما إسبانيا والبرتغال، معتزتين بمنجزاتهما، ومتحفزتين للتوسع عبر البحر المتوسط على سواحل بلاد المغرب العربي وعبر سواحل إفريقيا وآسيا، ومصممتين على مواصلة التوغل في أعماق العالم الجديد، بعد أن تمكنتا من القضاء على حكم المسلمين بالأندلس بالاستيلاء على غرناطة (١٤٩٢).

إن ما يعطي لهذه الرحلة نكهة خاصة ويؤكد مكانتها في عالم الرحلات هو كونها صدرت من طرف لم يتأثر بحرب الاسترداد المسيحية بإسبانيا، لكون خيرونيمو مونزر ورفاقه لم يكن دافعهم إلى الرحلة من منطقة التيرول الجرمانية غرضا دينيا أو سياسيا وإنما السياحة والابتعاد عن المناطق التي تأثرت بالوباء الذي اجتاح شمال إيطاليا وجنوب جرمانيا والمعروف بطاعون نورنبرغ. وهذا ما أكسب الرحلة شيئا من الموضوعية و جعلها لا تتماشى مع الموقف المعادي السائد في الكتابات الغربية من مآثر الحضارة الإسلامية بالأندلس و حد من النظرة غير المتفهمة لأوضاع التي كان يعيشها الموريسكيون وهم المسلمون الذين ظلوا بمواطنهم،

وخاصة علاقتهم بالسكان وموقف موظفي الدولة الإسبانية والكنيسة الرسمية منهم.

إن الترجمة العربية لرحلة خيرونيمو مونزر تعكس عمق ثقافة مترجمها الأستاذ د. أحمد محمد الطوخي في دراسته للتاريخ الأندلسي واطلاعه علي مصادره، وهذا ما أهله لأن يصبح أحد أعلام المدرسة الأندلسية بالإسكندرية، بما أسهم به من مؤلفات كثيرة وبحوث ومقالات عديدة تتوزع في مجملها على ثلاثة محاور: الأول يعرض الأحداث التاريخية مثل كتاباته عن أبناء غيطشة ويوليان في الأندلس، وأبناء كماشة في مملكة غرناطة، ومآثر بني عاصم، وبني عبد البر؛ والثاني يعالج العلاقات الإنسانية والصلات الحضارية بين الأندلس وظهيرها الحضاري، مثل دراساته عن العلاقة الأندلسية - الحفصية، والعلاقات العلمية بين الأندلس والشام على عهد بني الأحمر، وصلات الأندلس بالجزيرة العربية في الفترة الإسلامية المبكرة، وكتابات الرحالة الأندلسيين عن مصر والشام والجزيرة العربية؛ أما المحور الثالث من هذا الإسهام فيسلط الضوء على بعض المظاهر الحضارية بالأندلس من قبيل دراسته للقيسريات الإسلامية بالأندلس، وعرضه لكتاب النصيحة في الطب للشقندي الأندلسي، وتعريفه بالمآثر العمرانية والأثرية لمدن شلوبانيا ولوشة وغرناطة.

لقد حرص الأستاذ الدكتور أحمد الطوخي بحكم تخصصه في الدراسات الأندلسية على إخراج ترجمته لرحلة خيرونيمو مونزر بأسلوب سلس وعبارات دقيقة تجمع بين سلامة المبنى وصحة المعنى وتكامل العرض، بحيث تشد القارئ إليها

وتملك، عليه أنفاسه وتجعله يتابع مراحل الرحلة ومشاهدها خطوة خطوة.

هذا ولم يكتف المترجم بعرض نص الرحلة اعتمادا على ترجماتها الإسبانية، وإنما حرص على التعليق عليها، فوضع لها مقدمة عرف فيها بمحتوى الرحلة وبحياة صاحبها وبتاريخ طبعاتها الإسبانية، وحتى تتم الفائدة المرجوة فقد أثبت في نص الرحلة الكلمات اللاتينية للأماكن والمؤسسات والأشخاص ليسهل التعرف عليها والرجوع إلى مضانها، وأولى اهتمامه البالغ بشرح الكلمات التي تتطلب الإيضاح والتصحيح، كما زين ترجمته بمجموعة صور نادرة لمظاهر الحياة الاجتماعية بإسبانيا أنجزها الرسام كريستوف فييدز من الألزاس خلال رحلته إلى إسبانيا في الربع الأول من القرن السادس عشر، هذا بالإضافة إلى قائمة تحدد يوميات السفر عبر إسبانيا ومراحله وخريطة بالأماكن التي ورد ذكرها في الرحلة، وهذا ما أعطى للرحلة قيمة علمية وأكسبها إخراجا فنيا جميلا، فاحتلت مكانها اللائق ضمن الجهد العلمي الرامي لإثراء المكتبة الأندلسية، فعسى أن تلبي ترجمة هذه الرحلة حاجة الباحثين إلى المزيد من مصادر تاريخ الأندلس، وأن تستجيب لتطلع المهتمين بدراسة العلاقات الحضارية بين العالمين الإسلامي والأوربي، فهنيئا للمترجم على إنجازه العلمي، وطوبى للقارئ العربي بهذه اللبنة في رصيد المكتبة العربية الأندلسية.

د. ناصر الدين سعيدوني

الكويت، ١ فبراير ٢٠٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

***

شغفت بقراءة كتب الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون والأوربيون في بلدان المشرق الإسلامي والغرب الأوربي في العصور الوسطي، لما لها من أهمية كبرى في تعرف الأوضاع الحياتية لدي الشعوب التي سجل هؤلاء الرحالة أخبارها في كتاباتهم. فالمعروف أن الرحالة يري بعينيه مالا يراه من يعيش في وطنه بين أهله وعشيرته، قد تعود على نمط الحياة وأصبحت لا تثير اهتمامه، بعكس الغريب الذي تقع عيناه على كل غريب وجديد بالنسبة له وخاصة في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها.

وعندما قرأت هذه الرحلة التي قام بها الطبيب الألماني خيرونيمو مونزر Jerónimo Münzer مع مجموعة من أصدقائه الشباب من أبناء بعض الأثرياء الذين كانوا يتحدثون الإيطالية والفرنسية وهم: أنطونيو هيرفارت Antonio Herwart من أوجسبورجو Augsburgo وجاسبار فيشر Gaspar Fischer ونيكولاس فولكنشتاين Nicolás Wolkenstein من نورمبرج، أعجبت بها وبما ورد بها أيما إعجاب.

بدأ هؤلاء الشباب رحلتهم في الثامن من أغسطس سنة ١٤٩٤م، وبعد عبور سويسرا وجنوب فرنسا وصلوا إلى بربنيان Perpiñan في السابع عشر من سبتمبر، ثم قاموا خلال

خمسة شهور تقريبا، حتى الثامن من فبراير سنة ١٤٩٥م بجولة في أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية قبل أن يعودوا إلى وطنهم.

تأتى أهمية هذه الرحلة أن مونزر ورفاقه قد زاروا شبه الجزيرة الأيبيرية، بعد سقوط غرناطة ـ آخر معاقل المسلمين في إسبانيا ـ في أيدي الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيل بأقل من ثلاث سنوات، فكان المسلمون مازالوا يعيشون في بعض الأقاليم من تلك البلاد فقام بوصفهم ووصف ملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم وممارستهم لشعائرهم الدينية ... الخ.

كذلك زودنا مونزر بكثير من المعلومات الثمينة عن الحياة اليومية في إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى؛ وعن أخبار التجار الألمان الذين استوطنوا الأماكن التي زارها والمباني والمنشآت والمساجد والكنائس والأديرة والآثار في المدن المختلفة، والمنتجات الزراعية المتنوعة ووفرتها، والأساليب الصناعية وغيرها.

ويقدم لنا مونزر أخبار رحلته يوما بيوم، ويتحدث عن المدن التي زارها والمسافات بينها، موضحاً المشاق التي تكبدها في تلك الرحلة، ممتطياً صهوة جواد في برد الشتاء القارص صباحاً ومساء، عبر طرق ودروب جبلية جرداء مليئة بالصخور والأحجار. ولم يكن وصوله إلى أي مدينة يعنى الخلود إلي الراحة، بل على العكس، كان يتجول في أنحائها لمشاهدة معالمها، ولقاء أهلها، ورجال الدين بها، مصحوباً بمواطنين مهذبين أو مضيفين كرماء عاملوا مونزر بتقدير كبير.

كذلك حرص مونزر على عقد مقارنات بين المدن والأماكن التي زارها في شبه الجزيرة الأيبيرية ومثيلاتها في ألمانيا.

وكان مونزر يبدى دهشته ويكيل المديح لكل ما كانت تقع عليه عيناه، ويظهر هذا واضحاً عند حديثه عن الموريسكيين.

ولقد اعتمدت في تعريب هذه الرحلة على ترجمتين لها إلى اللغة الإسبانية. ظهرت الأولى منهما في سنة ١٩٢٤م في مجلة الأكاديمية الملكية للتاريخ Boletín de la Real Academia de la Historia tomo LXXXIV بمدريد، والتي نشرها الأكاديمي خوليو بويول Julio Puyol، أما الترجمة الأخرى التي اعتمدت عليها فقد نشرت في مدريد سنة ١٩٩١م تحت عنوان "خيرونيمو مونزر: رحلة إلى اسبانيا والبرتغال ١٤٩٤-١٤٩٥م" "Jerónimo Münzer : Viaje Por España Y Portugal (1494 - 1495)" التي ترجمها وقدم لها رامون ألبا Ramon Alba، وقد أفدت كثيراً من هذه المقدمة ومن التعليقات والشروح القيمة التي وردت في الترجمتين، وزدت عليها الكثير من التعليقات والملاحظات. وجعلتها في نهاية الرحلة، ووضعت في نهاية كل تعليق كلمة (المعرب).

وقد حاولت جاهداً أن أنقل للقارئ العربي صورة جلية واضحة لما ورد في أخبار هذه الرحلة.

وقد زودت طبعة مدريد التي صدرت سنة ١٩٩١م بعناية رامون ألبا بمجموعة من الرسوم واللوحات للرسام كريستوف فييدز Christoph Weiditz، وقد حرصت من جانبي أن أضمنها هذه النسخة المعربة نظراً لأهميتها الكبرى في توضيح الكثير

مما ورد في هذه الرحلة مثل ملابس الرجال والنساء والفتيات لدى مختلف الطبقات الاجتماعية، ومناظر الحياة العامة والخاصة لدى سكان شبه الجزيرة الأيبيرية بكل طبقاتهم الاجتماعية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، والتي تعد وثيقة لا تقدر قيمتها.

ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر والعرفان إلي أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى الأستاذ بجامعة الإسكندرية، والزميل الكريم الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني الأستاذ بجامعة الكويت علي تفضله بكتابة تقديم لهذه الترجمة العربية وعلي ملاحظاته القيمة.

والشكر موصول إلي الزميل الكريم الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحموز الأستاذ بجامعة الكويت علي ملاحظاته القيمة، وإلي الآنسة مروة أحمد الطوخى علي ما بذلته في كتابه الترجمة العربية.

والله أسأل السداد والتوفيق في الفكر والقول والعمل، أنه نعم الموفق ونعم النصير.

الكويت في أغسطس ٢٠٠٩

المقدمة



المقدمـــة(١)

أحد التقارير الأولية عن المخطوط المذكور يطالعنا في عمل نشر في سنة ١٨٤٧م بواسطة A. Schemeller، أمين مكتبة ميونيخ في رواية عن هارتمان شيدل Hartmann Schedel، الأديب النورمبرجي الشهير، حيث يذكر أعمالاً مختلفة لخيرونيمو مونزر، فضلاً عما يحتوى عليه المخطوط. وأحد هذه الأعمال، يظهر كملحق لدليل المسافر Itinerario وعنوانه كاملاً هو:

" De Inventione Africae maritimae et occidentalis videlicet Geneae per infantem Heinricum Portugalliae . "

الذي نشر في سنة ١٨٥٤م بواسطة فريدريك كونستمانFriedrich Kunstman، مع بعض أجزاء من أخبار الرحلة.

بعد ذلك بسنوات اطلع الباحث في الحضارة الإسبانية أرتورو فارينيللى Arturo Farinelli على المخطوط في مكتبة ميونيخ وأوصى بنشره سريعاً مؤكداً أنها - بحسب رأيه - "أهم رحلة إلى إسبانيا في العصور الوسطى.. رحلته الطويلة إلى إسبانيا والبرتغال تمتاز بالدقة في وصف الرحلة في لاتينية جيدة، وهى في هذا تتشابه مع رحلة نافاجيرو الشهيرة Navagero(٢)".

وسريعاً ما امتدت حماسة Farinelli الى فولشه ديلوسك Foulché Dellosc الذي أبدى في عام ١٩٢٠م إهتماماً في مجلة Revue Hispanique التي وجهها إلى طبعة لودفنج بفاندل

Ludwing Pfandl للجزء المتعلق بشبه الجزيرة الأيبيرية في رواية مونزر.

ويرجع الفضل إلى السنيور بفاندل Pfandl في نشر هذه الرحلة باللغة الإسبانية، وكان النص مصحوباً بدراسة كاملة حول المؤلف وأعماله.

مونزر مؤلف الـ Intinerario كان من عادته اتخاذ اسم لاتيني ، كما كانت عادة العصر لدى علماء الإنسانيات، فقد وقع كتاباته باسم Hieronymus Monetarius.

ولد مونزر في مدينة فيلدكيرتش Feldkirch (Vozelberg) التي تقع في الجانب الغربى لإقليم تـيرول Tirol، في تاريـخ غير مضبوط يدور حول سنة ١٤٦٠م، من أسـرة ثرية. (وتوفي في نورمبرج في ٢٧ أغسطس ١٥٠٨م عن عمر يناهز الخمسين). وفي سنة ١٤٧٩م نال درجة دكتور في الطب من جامعة بافيا Pavía، المدينة التي تلقى فيها دروسه. وفي سنة ١٤٨٠م نقل إقامته إلى نورمبرج ، حيث مارس لبعض الوقت مهنة الطب حتى سنة ١٤٨٤م، عندما نشب وباء الطاعون، فبادر بالرحلة إلى إيطاليا، حيث عاش عدة أشهر في روما، تلك المدينة التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً نتيجة لمعيشته هناك، ومرافقته لأهلها وللبيئة الثقافية التي كانت تتميز بها، فضلاً عن آثارها وخصوبتها، كما يتضح لقارئ الرحلة.

ثم عاد مرة أخرى إلى نورمبرج، لكن ظهور الوباء من جديد أجبره على مغادرة المدينة مرة ثانية في سنة ١٤٩٤م، مصطحباً في هذه المرة ثلاثة من أصدقائه الشباب من أبناء

بعض أثرياء التجار الذين كانوا يتحدثون الإيطالية والفرنسية وهم انطونيو هرفارت Antonio Herwart من أوجسبورجو Augsburgo وجاسبار فيشر Gaspar Fischer ونيكولاس فولكنشتاين Nicolás Wolkenstein من نورمبرج. حيث بدأوا الرحلة معاً في الثامن من أغسطس، وبعد عبور سويسرا وجنوب فرنسا وصلوا إلى بربنيان Perpiñan في السابع عشر من سبتمبر، وفي خلال خمسة شهور تقريباً حتى الثامن من فبراير ١٤٩٥م قاموا بجولة في أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية قبل أن يعودوا إلى وطنهم.

ولا يعتقد السنيور بفاندل Pfandl أن مونزر قد خرج من نورمبرج في المرة الثانية فراراً من الطاعون كما يرى بعض الباحثين، ويذكر أن الحقيقة هى أن الإمبراطور مكسميليانو Maximiliano الذي تأثر ككل ملوك أوربا باكتشاف أمريكا، كتب إلى مونزر رسالة بواسطة دون خوان ملك البرتغال وابن عم الإمبراطور، الذي لابد أنه قد اقترح فيها مشروعاً بحرياً مشابهاً لمشروع كولمبس يتضمن الاكتشافات عبر الأطلنطي.

بمعنى أنه ربما كان سفيراً سرياً مرسلاً من قبل مكسميليانو محمل بمهمتين: الاستعلام عن نتائج الرحلات الكولومبية الأولى والتعرف على الأعمال التي توقفت في البلاط الاسباني، وفي نفس الوقت دراسة الإمكانيات حول عقد اتفاقية تعاون مع البرتغال في مشروع ما وراء البحار.

الملاح مارتين بيهايم Martín Behaim الذي تصادف استقراره في البرتغال في خدمة هذا الملك. عاد إلى بلده بين

عامي ١٤٩١م و ١٤٩٣م حيث دخل في علاقات مع مكسميليانو ومونزر وشيدل.

ومن المعتقد أنه عند عودته إلى الأراضي البرتغالية كلف بحمل الرسالة المذكورة آنفاً إلى الملك بتاريخ ١٤ يوليو ١٤٩٣م.

ولما كان مونزر كما يروى في أخبار رحلته قد زار خوان الثانى في مدينة يابرة Evora عدة مرات، الذي إلى جانب أنه رحب به ترحيباً ودياً كبيراً، كانت له معه أحاديث طويلة وصلوات، وحسب قوله أنه شارك في المجلس الذي منحه الملكان الكاثوليكيان لملك البرتغال.

ومن المحتمل جداً كما يرى بفاندل Pfandl أن مكسميليانو الذي كان يبدى اهتماماً كبيراً بالكشوف الجغرافية، وكان على ثقة من كفاءة مونزر في هذا الأمر، فإنه قد كلفه بزيارة الملك وأن يحصل منه على الرد.

لا يعد خيرونيمو مونزر أديباً كبيراً بالرغم من أعماله الجغرافية، وتعاونه مع مارتين بيهايم في العمل الشهير "الكرة الأرضية Globo Terráque"، ومع هارتمان التي جعلت شيدل في مؤلفه "كتاب التاريخ Liber Chronicarum" يؤكد أنه كانت له مكانه بين أعضاء "مدرسة نورمبرج الجغرافية".

تأتى أهمية رحلة مونزر في تلك التفصيلات الثمينة التي يزودنا بها حول الحياة اليومية في إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر، وتلك الأوصاف القيمة لعادات وأماكن

الموريسكيين في مملكة غرناطة، عندما لم يكن قد مرت ثلاث سنوات على سقوطها.

ويزخر العمل إلى جانب ذلك، بالكثير من المعلومات حول أمور متنوعة: التجار الألمان الذين استوطنوا الأماكن التي زارها مونزر،الأبنية والآثار في المدن المختلفة،تنوع المنتجات الزراعيـــة ووفرتها ، وصف الأساليب الصنـاعية .... الخ .

ويقدم لنا مونزر تفاصيل الرحلة يوماً بيوم ويتحدث عن المدن التي زارها والمسافات بينها، واصفاً تلك القسوة البالغة التي عايشها في تلك الرحلة، ممتطياً صهوة جواد صباحاً ومساء في شهور الشتاء القارص، ولم يكن وصوله إلى أى مدينة يعنى الخلود إلي الراحة، ولكنه على العكس، كان يتجول في أنحائها، مصحوباً بمواطنين مهذبين أو مضيفين كرماء عاملوا الرحالة بتقدير خاص.

كذلك حرص مونزر على عقد مقارنات متكررة بين المدن والأماكن والأنهار التي زارها في شبه الجزيرة الأيبيرية ومثيلاتها الألمانية.

ولم يفت مونزر أن يبدى دهشته في كل لحظة، وأن يمتدح كل ما يبــدو أمام عينيه، غير مكترث بأي وضع للتفوق أمام بلد أو بعض العادات التي كانت بالضرورة غريبة عنه، ويظهر هذا الشعور في تقديره البالغ عند حديثه عن الموريسكين.

توجد ترجمتان إلى اللغة الاسبانية للجزء الخاص بإسبانيا والبرتغال من هذه الرحلة. ظهرت الأولى في سنة ١٩٢٤م

في مجلة الأكاديمية الملكية للتاريخ، والتي نشرها الأكاديمي خوليو بويول Julio Puyol، ويؤكد المترجم أن "لغة مونزر اللاتينية مبتذلة، ركيكة في فقرات متعددة .... تتضمن بدون جهد كبير الصعوبات غير البسيطة التي تقدمها الترجمة، ولم يوفق في معانى كثير من المفردات، وكثير من الجمل، وكذلك ظل النص من ناحية الشكل الأدبى مظهراً لرواية مبتذلة وعارية ".

وفي سنة ١٩٥١م ظهرت ترجمة جديدة للرحلة بعناية خوسيه لوبيث تورو José López Toro، وقدم لها مانويل جومث مورينو Manuel Gómez Moreno .

وفي سنة ١٩٩١م ظهرت في مدريد طبعة جديدة متضمنة ترجمة لتلك الرحلة تحت عنوان " Jerónimo Münzer: Viaje Por España y Portugal (1494-1495) " متضمنه مقدمة للسيد رامون ألبا Ramón Alba .

بقى في النهاية أن نذكر بعض الحقائق التي تتعلق بالصور التي صاحبت النص في طبعة مدريد ١٩٩١م. حتى أوائل القرن العشرين فإنه لم يكن ينسب إلى كريستوف فييدز Christoph Weiditz المخطوط رقم ٢٢٤١٤ منذ أواخر القرن التاسع عشر الموجود في مكتبة متحف نورمبرج، والذي يتكون من ١٥٤ صفحة من ورق سميك، كانت مجموعة بطريقة غير مناسبة حتى نهايات القرن السابع عشر، جزء بسيط منها مجلد بالورق المقوى بكعب من جلد الخنزير، عرض صفحاته ١٥٠ مليميتر أما طولها فكان ما بين مائة وثمان وثمانين إلى مائتين. وهى تحتفظ لنا بمناظر رسمت بالقلم، مزودة بزخارف بارزة في بعض الحالات بالذهب

والفضة والألوان الأخرى التي توضح ملابس الناس لدى مختلف الطبقات الاجتماعية، والمظاهر الشعبية، ومناظر الحياة العامة والخاصة، التي يتعلق معظمها بإسبانيا، وبعضها بهولندا وايطاليا وفرنسا وقليل منها ألمانيا وانجلترا وأيرلندا والبرتغال.

ولد كريستوف فييدز الذي تنسب إليه هذه الرسوم: على وجه الاحتمال في استراسبورج حوالى سنة ١٥٠٠م في كنف عائلة من صانعي التماثيل الخشبية، والنقاشين. وفي سنة ١٥٢٦م أصبح رساماً وصانع ميداليات معروفاً في أوجسبورجو Augsburgo ، المدينة التي طور فيها نشاطه الفني.

وفي سنة ١٥٢٩م شرع في الرحلة إلى إسبانيا في معية جوهانس دانتيسكوس Johannes Dantiscus ، الذي صحبه كذلك في رحلته إلى الأراضي الوطيئة في أواخر سنة ١٥٣٠م أو أوائل سنة ١٥٣١م. ومن المحتمل أنه واصل سفره إلى قشتالة وأراجون حتى برشلونة في ربيع سنة ١٥٢٩م.

كان فييدز راصداً بارعاً. تعد رسومه وثيقة لا تقدر قيمتها للتعرف على إسبانيا في أوائل القرن السادس عشر، كما أنها تشير إلى الأعراف والتقاليد والعادات في الريف والمدن، إلى جانب الملابس المستخدمة لدى مختلف الطبقات الاجتماعية، وكذلك تلك المستعملة لدى الموريسكيين.

١٤٩٤

الوصول إلى إسبانيا

في اليوم السابع عشر من سبتمبر، وبعد مسيرة تسعة فراسخ[٣] من ناربونة[٤] Narbona وصلنا إلى بربنيان Perpiñan، وهى مدينة شهيرة تقع على سفح جبال البرتات Pirineos حيث يوجد سهل جميل جداً، طوله سبعة فراسخ، وعرضه سبعة. تحيط به من الشمال والغرب جبال البرتات، ومن الجنوب البحر. هذا السهل يسمى كونتية روسيليون Rosellón بها مدن وحصون وقلاع تبلغ نحو المائة، ومدينتها الرئيسية بربنيان. وهى أراضٍ تشتهر بكل أنواع الفاكهة، وأهمها عنب النبيذ الشديد الحلاوة. وهذه المدينة في اعتقادي، تشتهر مثل أولم (ulm) Ulma بتجارها ونسيجها وصوفها الدقيق. والكنيسة الأكثر شهرة بين الكنائس الأخرى فيها، تلك التي كرست للسيدة مريم العذراء، وهى حديثة البناء، وحتى الآن لم ينجز بناؤها بالكامل. لم أر في حياتى عقوداً أكبر من عقودها، وأعتقد أن عرضها يعادل عرض كنيسة سان سيبالدو San Sebaldo في نورمبرج Nüremberg (Nuremberga)، التي تغلق بعقد واحد.

استضافنا فارس معروف يسمى السيد سيجبيرتو Don Sigiberto الذي كان بيته يقع في ضواحي المدينة بالقرب من السور، كان البيت فاخراً جداً يتخذه قصراً أو قلعة.

يوجد خلف البيت باتجاه الشمال بستانان زاهيان واسعان، أقيما بشكل يشبه أروقة وأسوار الأديرة في ألمانيا. كل الجوانب مغطاة بأنواع مختلفة من عناقيد الكرم اليانعة، وأشجار من أصناف متنوعة. تربيعة أحد جوانب البستان الأول كانت مئتين واثنتين وثلاثين خطوة(٥)، ومن الجانب الآخر مائتان وثلاث وعشرون.

أنظركم الاتساع الذي يشغله هذان البستانان!

هذه البساتين مزروعة بكل أنواع الفاكهة المعروفة في هذه البلاد.

وفي شهر سبتمبر عندما كنا هناك، كان يوجد: الرمان، والبرتقال، والكرم، والتين، واللوز، والزعرور، والخوخ وفاكهة أخرى لا تحصى.

حقيقة فإن من يدقق الملاحظة يتخيل أنها جنة.

كلا البستانين يرويان بالراحة بواسطة قناة موجهة بخبرة لذلك الغرض، تستمد مياهها العذبة من نهر يمر أمام المزرعة.

لا تكفي ساعة لكي تلمُّ بكل هذه البهجة. لم أر أنا ولا أحد من رفاقي بساتين بمثل هذا الجمال. وأكد لنا خدم النبيل أن كل الأجانب الذين يأتون إلى هناك لم يروا أيضاً شيئاً مماثلاً.

هذه الكونتية كانت منذ حوالي ثلاثين عاماً من ممتلكات ملك فرنسا، الذي تسلمها كرهينة من ملك أراجون Aragón.

ولكن في العام الذي قام فيه الملك فرناندو Fernando بغزو غرناطة، والتي نصب فيها ملكاً على اسبانيا، أعيدت طوعاً من ملك فرنسا، وتخضع حالياً للتاج الأسباني[٦].

في التاسع عشر من سبتمبر غادرنا بربنيان، وبعد مسيرة ثلاثة فراسخ بجوار سفوح جبال البرتات، وصلنا إلى قلعة تسمى La Boulou (Volon)[٧] وعبر مضايق الجبال التي كانت تسمى El Puerto أو باب الجبال، اجتزنا طريقاً شديد الوعورة، غير صالح للعبور، وتوجد على الجانب الأيمن منه قلعة عالية جميلة. اخترقنا الجبال، وتوغلنا في قطالونيا Cataluña، حتى وصلنا إلى قلعة خونكيرا (Junkera) Junquera و فيجيراس (Viguera) Figueras.

في العشرين من سبتمبر غادرنا فيجيراس Figueras، وبعد مسيرة خمسة فراسخ، وصلنا إلى مدينة عظيمة قديمة تسمى خيرونا Gerona، بها مقر أسقفي وكاتدرائية شهيرة، كان أول اساقفتها سان نارثيسو[٨] San Narciso، الذي تألق بمعجزاته، وكانت المدينة تنقسم إلى قسمين، يفصل بينهما نهر شديد الصفاء.

برشلونة Barcelona

المدينة

في اليوم الحادي والعشرين من الشهر نفسه، وبعد مسيرة اربعة عشر فرسخاً من خيرونا، وصلنا إلى مدينة برشلونة(٩) الجميلة، التي تقع على شاطئ بحر البليار، وهى عاصمة قطالونيا، أسوارها من الحجارة البديعة التأسيس، ذات شرفات وأبراج ترتفع حولها في تتابع حتى شاطئ البحر.

المدينة عبارة عن سهل جميل جداً، تطل من الجنوب على البحر، وتحيط بها من الشرق والغرب والشمال المدرجات الجبلية الخصبة، على شكل نصف دائرة.

على شاطئ البحر شيدت مدينة برشلونة الجميلة، لها كما ذكرت سور قوى التحصين، يحيط بها من كل جانب. وفي وسطها وفوق ربوة، تقع الكاتدرائية الفخمة، والمقر الأسقفي، المكرس علي شرف سانتا كروث Santa Cruz. هذا البناء في غاية الرقة. وفي أروقتها يوجد أكثر من عشرين مذبحاً بصور جميلة ومذهبة، ومكتبة فاخرة وبستان غُرس بأشجار البرتقال، والليمون والسرو. شاهدنا المصوغات الكبيرة في تلك الكنيسة، من بينها وعاء مدهش للقربان يزن حوالي أربعة وتسعين ماركا(١٠) من الذهب الخالص، ومزدان بالكثير من الدر والأحجار الثمينة، التي تثير الإعجاب.

الكنيسة مشيدة بطريقة تثير الدهشة. تحت مقصورة الكهنة يوجد سرداب حيث يسجى جثمان سانتا إيولاليا العذراء Santa Eulalia Virgen التي استشهدت في عهد دقلديانوس[11] Diocleciano.

في هذا السرداب يوجد عشرون مصباحاً تضاء بصفة دائمة.

صعدت إلى أعلى مكان في البرج، حيث شاهدت المدينة وموقعها. يا له من منظر في غاية الروعة !



أحد مواطني برشلونة

لوحة رقم LXIX (ورقة ٦٧)

للمدينة سور، يوجد في خارجه على مسافة فرسخين أكثر من ثلاثين ديراً للرهبان والراهبات، وأعتقد أن هذه المدينة أكبر مرتين من نورمبرج. في القسم الأكبر منها، كانت البيوت مبنية من الحجارة. وكانت المسافة الممتدة من باب سان أنطونيو San Antonio حتى البحر، باتجاه الغرب، زاخرة بالبساتين، والحقول، ومزارع روعة في الجمال، بها أشجار الرمان، والليمون، والزعرور، والبرتقال، والنخيل، والخرشوف، والصنوبر، والكرم، والخوخ وأشجار أخري. الأرض خصبة. وعند باب سان أنخل San Ángel، باتجاه الشمال، كان هناك دير يحمل اسم سانتا ماريا خيسوس Santa María Jesús.

آه يا له من بناء فخم، به مكتبة مختارة، وصوامع للرهبان، وبساتين، وعيون للري، وفاكهة متنوعة!

يوجد في الكنيسة الأسقفية أكثر من أربعة وأربعين كاهناً، ومثل هذا العدد من الكنسيين حيث إن قساوسة الإكليروس في هذه الكنيسة يزيدون على مائتين، غير الأبرشيات الأخرى لسان خوستو San Justo وسانتا ماريا دل مار Santa María Del Mar والبينو El Pino .... الخ.

اعتقد انهم أكثر من ألفين من الإكليروس من الرجال والنساء.

حكومة المدينة

منذ أربعين عاماً، كانت برشلونة في قمة ازدهارها، وحققت نمواً مطرداً بفضل تجارتها. لكن ملوك أراجون بسبب الحروب المستمرة رهنوا الحكر الملكي لكل كونتية قطالونيا،

وبمرور الوقت أخذت برشلونة تتحرر من الاتفاقيات والحقوق التي كان الملوك معها يثقلون بالضرائب كاهل كونتية رؤسيلون Rosellon وخيرونا Gerona وطرطوشة Tortosa[١٢].

اليوم تعيش المدينة تحت نظام يتمثل في أقصى درجات الحرية. يحافظون علي هذا النظام، يختارون من كل الكونتية، كل ثلاثة أعوام ، ثلاثة من الرجال المحترمين: أحدهم من الإكليروس والثاني من النبلاء والثالث من المجتمع، يجتمع الثلاثة كل يوم في بيت فخم يسمي المجلس الإقليمي، الذي خصص لهذا الغرض. وهناك يتسلمون الضرائب التي كانت من قبل تؤدي للملك، ويوجهونها للأهداف المتفق عليها. كان لهم كتابهم الذين كانوا يمضون في ترتيب كل شيء. إلى جانب ذلك توجد ضرائب أخري، ليست ملكية، ولكن كانت كل مدينة تنظمها على حسب ما يناسبها. منذ أربعة وأربعين عاماً ثار الشعب من الظلم وأسباب أخرى ضد سادة المدينة. أمام هذه الثورات، فر أكثر الأغنياء. ومنذ ذلك الوقت مالت التجارة نحو بلنسية Valencia[١٣] التي أصبحت مركز إسبانيا التجاري، وصارت برشلونة في حالة من الموت بمقارنتها بحالتها الأولى[١٤].

بيت التجار

على شاطئ البحر أقيم بيت جميل شامخ تتوجه قبة[١٥]، يبدو كأنه كنيسة أو قصر. بالقرب من هذا البيت يوجد بستان جميل به عشرة صفوف من أشجار البرتقال والليمون وفي الوسط نافورة، وعلى الجوانب مقاعد من الحجارة. في هذا البيت يجتمع التجار مرتين يومياً لبحث شؤونهم، وأطلقوا عليه اسم لالونخا[١٦] La Lonja، كان هذا بيت التعاقد، حيث تتم

عملية تبادل العملات، يوجد هناك أيضاً مصرف نظم تنظيماً جيداً لحفظ الأموال.

بيت الأمير دون إنريكي Don Enrique

الأمير دون إنريكي الذي توفي من قذيفة منجنيق في نابلي Nápoles في عام ١٤٥٣م ترك ابنا بالاسم نفسه[١٧]. الملك فرناندو، ملك إسبانيا الحالي وهذا الابن يكونان أبناء عمومة. الأمير عزم على أن يعيش حياة أكثر من قضاء وقت الفراغ والاستمتاع أكثر بالحرب. أقام بجوار سان فرانسيسكو داراً كبيرة عالية، لا يمكن تخيل كم هي جميلة، أرضية غرفها مغطاة بالزليج المتنوع والمختلف الألوان، والأسقف مزدانة بالذهب الخالص، وزهور متنوعة من المادة نفسها.

أوه، يا له من بيت فخم، رأينا فيه نوعاً من الظباء، وهى حيوانات المسك، حجمها أكبر من ذكر الثعلب، الرأس والفم والآذان تشبه حيوان القاقم[١٨]، لونها ضارب إلى السواد تتخلله نقاط بيضاء ورمادية، له ذيل وأرجل الكلب، وهو حيوان سريع الغضب والثورة. كان موضوعاً في قفص من الخشب، مقيداً بسلسلة من الحديد. وحراسه يمسكون القفص بسلسلة من أعلي. مقيداً من أرجله الخلفية، رافعاً الذيل، فلاحظنا عضوه الذكرى، أمسكوا الخصيتين اللتين كانتا كبيرتين جداً، وقلبوهما كما لو كانوا يقلبون كيساً، ولهذا تمكنا من رؤية تجويفين في كل واحدة. أدخلوا في هذه التجاويف ملعقة صغيرة مسطحة من الزجاج الأملس، وفي ثلاث مرات استخرجوا، كما يخيل لي ، مقدار درهمين من مادة ذكية

الرائحة، دهنت منها يدي، وظلت رائحة المسك باقية عدة أيام، بعد ذلك شاهدنا ببغاء بحجم الغراب أو العقعق، له ريش أبيض رمادي ملون بألوان مختلفة، خاصة الرقبة التي كانت تشبه رقاب البزاة والبواشق في ألمانيا. له ذيل طويل مثل الغراب، لونه أحمر قاني مثل أكسيد الرصاص الأحمر، والمنقار والأرجل مثل الببغاء، يتكلم مثل الببغاوات، ولكنه في الحقيقة كان نوعاً أخر لا يختلف عن الببغاوات الخضراء. شاهدنا أيضاً زرازير لها لون أزرق سماوي ، التي على حسب ما قيل لنا كانت تنطق ببعض الكلمات، مع أنني لم أسمع منها شيئاً إطلاقاً عندما كنا هناك.

ديرة الإخوة الصغار

El Monasterio del Hermanos Menores

قريباً من هذا البيت يقع دير كبير على نظام رهبنة سان فرانسيسكو على شاطئ البحر. في وسطه يوجد دير آخر، صغير له رواق بسيط، وقاعة للطعام، وغرف للرهبان وكنيسة صغيرة، على هيئة قبو، كان قد أقامها سان فرانسيسكو، الذي عاش حياة قاسية جداً عدة سنوات عندما كانت المدينة صغيرة. للكنيسة نافذة واحدة مربعة من الحديد، يستمع البحارة من خلالها إلى الصلوات ومواعظ القديسيين. وتوجد أيضاً أيقونة للسيدة مريم العذراء. كانت الزخارف تملأ الكنيسة ولكنها بدأت في الاندثار. وكان من بين الإخوة علماء محترمون مثل خوان دى برخا Juan de Berja الذي كان رجلاً مسناً في السابعة والسبعين، وكان على حسب ما أخبروني يحضر مجمع بازيليا Bazilea.

كان رجلاً عالماً، له ذاكرة جيدة، بالنسبة لسنه. توجد أيضاً مقصورة للكهنة[١٩]. في كنيسة سان فرانسيكسو مقابر ملوك أراجون الفخمة، رأينا في إحداها جثمان إحدى الملكات محنطاً كانت قد ماتت منذ ثمانين عاماً، ومع ذلك مازال الجثمان سليماً. توجد أيضاً في مقصورة الكهنة أيقونة جميلة جداً. لها حديقة واسعة تروى بواسطة حمار يستخرج الماء من بئر بصفة دائمة بواسطة قادوسين، ثم تتوزع المياه على كل الحديقة بواسطة قنوات.

رأيت كذلك دير سانتو دومينجو Santo Domingo، كان مدهشاً وفخماً، وفي بعض الأمور لا يقل عن الدير السابق. في كلتا الكنيستين تعلق أعلام لا حصر لها للنبلاء المدفونين هناك، مما يعطي منظراً جميلاً وعظيماً.

الإدارة القضائية

منذ سنوات كانت أوضاع العدل سيئة في قطالونيا، لأن الوكلاء والمحامين، كانوا مفسدين يسيئون بحيلهم إلى القضاء وإلى مفهوم العدل والإنصاف، مثلما كان يحدث في ألمانيا. لكن في العام الذي كان فيه الملك الهادي في برشلونة[٢٠]، وُحدت كل كونتية قطالونيا، وبموافقة الملك عُين ثمانية حكماء في القانون، كان يدفع لهم من المجلس الإقليمي خمسمائة ليرة سنوياً لكل واحد. وهو مبلغ يعادل ستمائة فلورين[٢١] Florines. وكان لنائب الملك اختصاصاته القضائية في كل الكونتية . كان هؤلاء يستمعون مباشرة إلى شهود الأطراف المتنازعة، ويحددون يوماً لإصدار الحكم الذي كان غير قابل للاستئناف. كانوا يُمنعون تحت العقوبة البدنية والمالية من تلقي أي عطف، وإن كانوا في كثير من الأحيان يتم وضعهم

تحت التجربة ليروا إذا كان في الإمكان قبولهم. في هذا العام حُلت أكثر القضايا التي كانت من قبل تحتاج إلى عشرين عاماً لحلها. وفي هذا النظام، كان الملك هو أول من خسر قضية. فإن صيدلياً أقام دعوى مطالباً بألف دوقة Ducados ثمناً لعقاقير وأدوية كان الملك المتوفى ووالد الملك الحالي مديناً له بها. صدر حكم ضد الملك بصفته وريثاً لوالده، وكان عليه أن يسدد للصيدلي كل ما كان والده مديناً به. هؤلاء الحكماء ونائب الملك أصلحوا الاعوجاج الذي كان يسببه الغش والكراهية والاغتصاب، وإذا صدر حكمٌ سيئٌ يستأنف مرة أخرى لدى الملك، وإذا ثبت أن الحكم كان ظالماً يصدر حكمٌ ببراءة المتهم الذي سبق أن أدين. يا إلهي ما أعظم العدالة بينـــهم!.

في هذه الأيام حكموا على رجل وامرأة لأنهما شهدا زوراً على رجل مستقيم واتهموه بالردة وحرقوه بالنار، ولما اكتشفوا أن شهادتهما كانت زوراً رُبطا على ظهر حمار، وجلدا بالسياط حتى الموت[٢٢].

مجلس شورى المدينة

لمدينة برشلونة مجلس شورى عظيم. له بستان جميل، وغرف كبيرة حيث يجتمع النواب والنبلاء المشهورون. ويقومون بحل القضـــايا المتعلقة بشؤون المجتمع. رأينا بهواً كبيراً مليئاً بالكتب، له مظهر المكتبة، حيث يحتفظون بالمجلدات والمدونات الكبيرة، وفي كل واحد منها تسجل الأخبار المتعلقة بالسنوات المختلفة، ولا يخصصونه للضرائب الحكومية فقط ولكن للكثير من الأمور الأخرى ، وهكذا فإنه إذا انتاب الشك شخصاً ما حول أي موضوع حدث منذ سنوات، يمكنه أن يستخلص الحقيقة من خلال البحث في هذه المدونات بالسنة واليوم.

الكرم الذي اختصنا به التجار الألمان

كان هناك بين تجار ألمان آخرين جريجوريو راسب Gregorio Rasp من أوجسبورج Augsburgo و ايراردو فيجنات Erardo Wignat المسمى فرانك Frank من ميرجنتايم Mergentheim وهى إحدى مدن فرانكونيا Franconia و وولفجانج فيربر Wolfgang Ferber من أولم Ulm . كان هناك أيضاً فراى خوان Fray Juan المنتمى لنظام رهبنة سان فرانسيسكو الذي يعرف الكثير عن الحكيم شتاهال Stahal وصديقه نيكولاس Nicolás وليوناردو Leonardo الذي كان له أخ في بيت تيوتون في نورمبرج Teutones en Nüremberg. اختصونا جميعاً بكرم لا يمكن وصفه. دعونا لتناول الطعام في بيوتهم، وقدموا لنا الطعام والشراب على الطريقة القطلانية، وفي أدوات مائدة من الذهب والفضة، وأثناء الطعام كان يأتون باستمرار موسيقيين بآلاتهم يغنون غناء جماعياً وذلك للترفيه عنا. وكانوا كذلك يؤدون رقصات على الطريقة الموريسكية.

وأعتقد أن أى بارون أو قمط في ألمانيا لا يستطيع أن يقوم بعمل مثل هذا التكريم. يا له من طعام لذيذ، يا لها من فاكهة، كم من أصناف مختلفة من النبيذ!.

ليتنا نستطيع أن نبادلهم إياها ، إلى أشخاصهم أو أبنائهم أو أصدقائهم.!

مجاري الصرف

في معظم أرجاء برشلونة وميادينها الكثيرة، توجد أنابيب وقنوات للمياه تحت الأرض، تنقل عن طريقها المخلفات وفضلات المطابخ لتصب في البحر. وإذا لم يؤخذ في الحسبان الكميات الزائدة من هذه الفضلات، فإن أرض الميادين والشوارع تنهار وتشبه ما كان يحدث في نابلي وبافيا Pavía ومدينة لونجو بارادا Longobarada وبلنسية المدينة الرئيسية في إسبانيا[٢٣].



فتاة من برشلونة بحذاء مكشوف
لوحة رقم LXX (ورقة ٦٩)



Lamina VII. Danza morisca, según Weiditz (Foto Manuel CASAMAR)

رقصة موريسكية عن فيدتز

دير مونتسرات Montserrat

في اليوم السادس والعشرين، خرجنا من برشلونة، سرنا سبعة فراسخ، حتى وصلنا إلي Montserrat (Mono Serratus)، عند ساعة متقدمة. بين تلال متعددة ومتنوعة، يوجد جبل كبير شاهق، يبدو وكأنه يصل إلى عنان السحاب، ينقسم إلى قسمين بواسطة سلسلة من الجبال، كلها تقريباً مكونة من صخور جرداء. وبين شقوقها تنمو أنواع مختلفة من الشجيرات. ومن سفوحها ارتقينا عبر طريق ضيق متعرج يبلغ ميلاً في الطول، وتوغلنا حتى وصلنا إلى دير Nuestra Señora de Montserrat الشهير الذي لا نظير له، التابع لنظام رهبنة سان بنيتو San Benito، يعيش رهبانه حياة صارمة. هذا العام منح الملك، رئيس الدير أبرشية صغيرة في منطقة قريبة من كونتية روسيليون Rosellón في موقع شديد الورع. وطوال النهار والليل كانوا يضيئون في المذبح أكثر من ثلاثة وعشرين مصباحاً، معظمها من الذهب والفضة. وفضلاً عن ذلك توجد هناك سبع عشرة شمعة هائلة، بعضها كان يزن من عشر إلى إحدى عشر[٢٤] Centenarios. وكانت إعدادها تزداد بمرور الأعوام من هدايا الناس من المدن المجاورة، وفي أيام الأعياد الكبرى يضاء كثير منها للقربان المقدس.

في صباح اليوم التالي الذي كان يوم سبت، وبعد أن استمعنا بورع للصلاة التي كانت تنشد مع أرغن، شرعنا في الصعود عبر طريق ضيق جداً وشديد الوعورة، مكون من درج محفور في الصخر ووهاد مختلفة كما لو كانت درجاً.

اجتزنا هذا الطريق الوعر بصعوبة بالغة، حتى وصلنا أولاً إلى صومعة للصلاة، تحمل اسم Nuestra Señora de Montserrat ثم واصلنا الصعود بعد ذلك إلى أماكن أكثر ارتفاعاً نحو الشمال، حتى وصلنا إلى الصومعة الثانية التي كانت تسمى صومعة سانتا كروث Santa Cruz. في الثالثة صعدنا أيضاً عبر طريق شديد الوعورة حتى وصلنا إلى صومعة القديس ترينيداد Trinidad، التي أجرى فيها الراهب برناردو بويل Bernardo Boil توسعة وزخارف عديدة[٢٥].

ثم واصلنا الصعود عبر مناطق أكثر وعورة وخطورة، حتى وصلنا إلى الصومعة الرابعة التي تحمل اسم سان سلفادور San Salvador. لكن نظراً لمشاق الطريق غير الممهد والعقبات التي تعتريه، لم نواصل الصعود لنرى الصوامع الأخرى.

كانت صوامع الصلاة أثنتي عشرة، تتوزع على قمة الجبل وسفحه. كانت جميلة ومشيدة بذوق رفيع. بكل واحدة مصلى جميل، جيد الزخرفة، وحدائق بهيجة جداً، وصوامع الصلاة كانت اثنتين، وفي بعضها الآخر ثلاثة، على حسب الرفاهية وسعة المكان، حجرات نوم، مطابخ وغرف أخري، وجباب للماء الشديد البرودة، التي نادراً ما تنقص مياهها أو لا تنقص أبداً، والماء يجرى في أنابيب من النحاس، مثل التي تحمل النبيذ من المعاصر إلى البراميل، إنها أماكن تناسب جداً حياة أهل النسك.

الرهبان الذين يعيشون هناك، ينزلون كل ثمانية أيام، وفي أيام الأعياد الكبرى إلى الدير حيث يتزودون بالزاد والخبز الوفير والنبيذ والمواد الغذائية الأخرى. الإنسان

المتأمل والمحب للوحدة، لا يمكن أن يجد مكاناً أكثر ملائمة من هذا الموقع. مثل كل صوامع الصلاة كانت تتجه نحو الجنوب. تبدو خضراء باستمرار، وأعجبتني جداً لدرجة أنستني كل ما لقيته من جهد وتعب. بعض هذه الصوامع كرس لسان خيرونيمو San Jeronimo وسان اونوفرى San Onofre وسانتا كاتالينا Santa Catalina وسان أنطونيو San Antonio ...الخ . لأنها كما ذكرت كانت اثنتى عشرة موزعة بين قمة الجبل والسفح.

بعد التجول في صوامع الرهبان، وعبر الطريق المذكور ومع الجهد والمخاطر، وصلنا بعد الظهر بساعتين إلى الدير. تناولنا الطعام، ثم دخلنا إلى خزانة الأشياء المقدسة في الكنيسة مع رئيس الدير، وهو رجل حكيم، شاهدنا الأواني المقدسة، والحلي الذهبية والفضية المنقوشة ببراعة، والتي كما قال لنا رئيس الدير تزن ثمانمائة مارك. بعد ذلك شاهدنا ملابس القسس التي كانت كثيرة جداً، وكلها من الحرير الثمين المزين بخيوط الذهب والفضة. شاهدنا كذلك سلسلة من الذهب يصل وزنها أربعة ماركات، التي كان الملك دون فرناندو يحملها في عنقه، عندما اعتدى عليه مجنون في برشلونة، وأهداها للدير في هذا العام نفسه[٢٦]. كانت سلسلة ثمينة. وأنا وضعتها في عنقي .

أوه! يا له من كل شيء جميل ورائع ووفير!

لم تكن أقل فخامة من تلك الهدايا التي قامت بعملها ابنة الملك التي تسمى دونيا خوانا، زوجة أمير البرتغال[٢٧]، الذي بعد سبعة أشهر من الاحتفال بزفافه في يابرة، مات على إثر

سقطة من على ظهر جواده، عندما خرج للصيد بجوار نهر التاجو Tajo.

دونيا خوانا منذ ذلك الوقت عاشت حياة العفة في ترملها، فلم تنم في ثياب من الكتان، بل من الصوف. تعيش في الواقع حياة عفيفة وأهدت لمريم العذراء دى مونتسريت La Virgen María de Montserret أشياء كثيرة من صنع يديها.

بعد ذلك غادرنا الدير، شاهدنا المكان، وصعدنا إلى الكهف الذي قام فيه المواطن البرشلوني خوان جارين Juan Garín (Garus) بالاعتراف في عام ٨٥٣[٢٨]. فيروى أنه عندما وصلت إلى مسامع كونت برشلونة شهرة قداسة خوان، بعث إليه بابنته التي كانت ممسوسة من الشيطان بهدف تخليصها منه، لكنه خضع لرغبته الشيطانية واعتدى على عفافها. وعندما وصلت تلك الأخبار إلى مسامع الكونت، قام خوان بقتلها ودفنها في الكهف، ثم توجه إلى روما. وخلال سبع سنوات هام على وجهه في الصحراء عقاباً له على فعلته. كان دائماً يمضي عارياً، ويسير على أربع كالدواب. أخيراً، عاد إلى حالته الطبيعية، حيث وقع في قبضة بعض الصيادين، ولما وجدوا أنه لا يتكلم، قادوه إلى برشلونة مقيداً بسلسلة من الحديد. وعند دخوله رأته امرأة كانت تحمل بين يديها طفلاً في الشهر السادس من عمره، الذي صاح في نفس اللحظة بصوت عالٍ "خوان جارين، غفرت خطاياك". فرجع إلى المكان الذي دفن فيه ابنة الكونت ، ونبش قبرها، فوجدها قد دبت فيها الحياة. فقام في الحال بإقامة دير هناك للرجال وآخر للنساء. ثم مات أخيراً بعد حياة في غاية النسك والتقشف.

بمرور الوقت، نُقلت الراهبات إلى برشلونة، وهناك أقاموا دير سان بدرو[٢٩] San Pedro حيث يقمن بخدمة الله حالياً. وكانت العذراء تصنع في كل يوم معجزات كبرى كثيرة وعديدة[٣٠].

سأكتب بإسهاب حول بحيرة المعجزة، أسفل الدير توجد قلعة بها بحيرة. في أحد أيام العذراء، منذ سنوات بعيدة، حضر عدد كبير من الناس، كانت المياه تنقصهم لأن النبيل رفض أن يعطيهم إياها، صعدوا إلى الدير وهناك تفجرت البحيرة، بينما فقد النبيل المياه. هذه البحيرة تسمى اليوم بحيرة المعجزة، وقد شربنا منها.

وفي يوم الجمعة التالي، الذي كان يوافق اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر أخذنا طريقنا نحو الشمال، وبعد مشقة وجهد وصلنا بعد مسيرة ثلاثة فراسخ إلى قلعة إيجوالادا Igualada (Galada). وبعد فرسخين آخرين وصلنا إلى قلعة سانتا كولومبا Santa Colomba (Sancta Columna)، حيث شاهدنا رأس القديسة كولومبا.

الفراسخ في قطالونيا كانت أكثر طولاً، والطريق أكثر ارتفاعاً ووعورة. كنا نمضى على الحصان أربعاً أو خمساً كل يوم. على بعد فرسخين من سانتا كولومبا، باتجاه الشمال، في طريق سرقسطة، توجد قلعة ثيربيرا Cervera (Serfera) ذات التاريخ العجيب.

EL Monasterio de Poblet دير بوبلت

في اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر الذي كان يوافق يوم عيد القديس ميجيل San Miguel وبعد ان سرنا ثلاثة فراسخ كاملة، وصلنا عند الظهيرة إلى دير بوبلت Poblet (Popletum) العظيم. الذي يقع في سهل جميل، على سفح أحد الجبال العالية. دير بوبلت عبارة عن بناء عظيم به أبهاء كبيرة عديدة، وأفنية، وسراديب، وأروقة، ويحيط به سور عريض، مما يحمل على الاعتقاد أنه يقع داخل حصن. المباني مكسوة بالأحجار المقطعة والمربعة، الثابتة، حتى ليظن أنها قد أقيمت لتتحدى الزمن. كل شئ به قد رتب من أجل البهجة والحياة المريحة. لم أر أبداً ديراً من هذا النظام أفخر ولا أكثر جمالاً منه. هم رهبان بندكتيون (تابعون لرهبانية سان برناردو).

كان يوجد عندئذ ثمانون من الكهنة في الكنيسة وأربعون من الرهبان الخدم[٣١]. يحاطون برعاية صارمة. هذا الدير من تأسيس ملوك أراجون، الذين لهم هناك مقابر فخمة. يرقد هناك سبعة ملوك مع زوجاتهم. أولهم الملك دون خايمىJaime، الذي تولى الملك في سنة ١٢٢٣م وحكم ثلاثة وخمسين عاماً. وكان متحمساً لطرد المسلمين من كل اسبانيا. انتزع منهم جزيرة مايوركا Mallorca، ومملكة بلنسية، ومقاطعة مرسية[٣٢]، وبلاداً أخرى كثيرة. وأخيراً ارتدى ثوب الرهبنة، وعاش حياة عفيفة حتى أسلم الروح في حب المسيح، فدفن هناك في مقبرة فخمة من الرخام الناصــع البياض[٣٣].

يرقد هناك أيضاً الملك دون مارتين Don Martín وجد والد الملك فرناندو عاهل إسبانيا اليوم[٣٤]. لم أر أبداً آنية أكبر من التي في السرداب والتي يبلغ عددها سبعة عشر، وأعتقد أن بعضها يتسع لثلاثين عربة[٣٥].

إلى جانب ذلك توجد بها صيدلية فخمة، مزودة بكل أنواع العقاقير والأدوية، وطبيب حاذق في مهنته، والذي يفهم من الحديث معه أنه رجل في غاية الحكمة. كل الموظفين والفنيين لهم غرفهم أيضاً ومكاتب مخصصة لهم.

أوه يا لعظمة هذه الكنيسة المشيدة على النمط القديم! وكذلك المصليات ومقاعد مقصورة الكهنة، والأرغن الجميل المزين بالذهب والفضة. اختصونا بالشرف الكبير، وعرفونا بكل أدب بكل ما هو جدير بالمشاهدة.

الطريق إلى بلنسية Valencia

في يوم ٣٠ سبتمبر مشينا يوماً كاملاً عبر جبال شاهقة ووديان وأراضٍ وعرة، حتى وصلنا في النهاية إلى رهبنة كورتوزية تقع في سهل تحيط به الجبال من كل جانب، والتي تسمى Scala Dei [٣٦]، مكان ورع جداً وبه آباء دينيون. كانوا ثمانية وعشرين راهباً، وثلاثة عشر من غير الرهبان. استقبلونا ببشاشة، وأشركونا فيما يمتلكون. كان هناك قسيس شاب حكيم محترم، كان ابنا لطبيب مشهور جداً في برشلونة. كان مريضاً بالحمى الثلاثية. استمعت إلى نصائحه بشكر عظيم.! ليت الله يمنحه الصحة! هذا الدير جميل وعظيم جداً.

مشينا في اليوم نفسه أحد عشر فرسخاً طويلة عبر طريق وعر ملئ بالحجارة الرديئة يسمى الصخرة الرديئة Malarrcoha (Mabrotsha). والاسم في الحقيقة يتطابق مع المسمى.

في اليوم الأول من اكتوبر، أخذنا طريقاً سيئاً، وبعد مسيرة فرسخين وصلنا إلى حصن Ginestar (Genser) على شاطئ نهر إبرو Ebro الذي يجرى عبر الجبال حتى سرقسطة Zaragaza. الصالح للملاحة مثل نهر الدانوب بجوار راتيسبونا Ratisbona، يفصل مملكة بلنسية عن قطالونيا. على شاطئيه توجد قرى كثيرة للمسلمين، الذين كان الأمراء يعاملونهم معاملة طيبة، لأنهم كانوا عمالاً نشطين في الزراعة ولا يشربون الخمر، ويحصلون منهم على ضرائب كثيرة.

توجد كذلك على شاطئ نهر الإبرو أراض خصبة غنية بالزيتون والخروب وهو عبارة عن أشجار كبيرة مثل أشجار البلوط، تنتج ثماراً حلوة، تقدم طعاما للخيل والبغال، تشبه التي تسمى لدينا في ألمانيا(خبز سان خوان)" Pan de San Juan". في هذا اليوم نفسه وصلنا إلى بلدة جميلة تسمى Cherta (Scherta) ، بعد أن سرنا أربعة فراسخ حتى حان وقت الطعام.

في اليوم الثاني من أكتوبر ، وعلى بعد فرسخين من الشاطئ، وصلنا في الصباح إلى مدينة طرطوشة Tortosa العريقة، لكننا لم ندخلها بسبب تفشي الطاعون بها، وعبر سهول قفراء وقاحلة، وبعد ستة أميال وصلنا إلى قلعة الكانار Alcanar (Laganan).

وفي اليوم الثالث من اكتوبر مررنا بقرية سان ماتيو(٣٧) San Mateo الجميلة، وبعض البقاع Vegas على بعد سبعة أميال حتى وصلنا أخيراً إلى كوريال(٣٨) Kureal.

وفي اليوم الرابع من الشهر نفسه مررنا بمنطقة جدباء إلى بياريال Villarreal وبعد ستة أميال وصلنا إلى مدينة فريدس Fredes (Malfreda) التي تقع في سهل جميل وغني بالثمار، يروى في كل جهاته بالمياه. إنها أراض جميلة جداً تقع على شاطئ البحر، حيث توجد أبراج المراقبة Atalaya على جبل شاهق جداً.

في الخامس من أكتوبر، خرجنا في الصباح، وبعد أن سرنا فرسخا باتجاه الغرب وصلنا إلى دير يسوع الوادي، الذي يقع على السفح الغربي لجبل شاهق. تحيط به مناطق قاحلة. يوجد هناك رهبان تابعون لنظام رهبنة سان فرانسيسكو، لهم بستان جميل يروى بمياه تستخرج من بئر بواسطة حمار. وعلى الرغم من أن الدير صغير إلا أنه جميل جداً، ورشيق. عندما كنا هناك لم يكن يوجد أكثر من عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصاً. منهم أربعة قساوسة، واثنان من الشمامسة، واثنان من الشدياق (شماس رسائلي) واثنان من الرهبان الخدم. أحدهما كان ألمانياً من Ravensburg (Rafensburgo) ، ابن احدى أخوات Teoblaldo Buckhi، شاب ورع . أسس هذا الدير على أيدي بعض الألمان، باقتراح من Jodoco Koler الذي كان عندئذ رئيساً لإحدى شركات Ravensburg وهي إحدى مدن سوابيا Suabia. توجد في الكنيسة مقصورة عالية للكهنة، بها ستة عشر مقعداً، أمر Jodoco المذكور بجلبها من الأراضي الوطنية. إنها مكان مناسب جداً للتأمل، مشيد من الحجارة الجميلة، له عقود، وبه أفران ومنشآت أخرى. خرجنا من هناك بانطباع جميل. وكان الأب، كما أكد لي التجار الألمان المحترمون Enrique Sporer و Conrado Humpsis عندما يحل الصوم الكبير، لا يتناول الطعام إلا في يوم الجمعة من كل أسبوع. لأنه شخص يحيا حياة عادلة جداً. لم أره، لهذا فإنني أجهل الأمر، ولكنهم أكدوا لي في بلنسية أنه رجل شديد التدين.

بلنسية Valencia

المدينة

في نفس اليوم الخامس من أكتوبر، سرنا ثلاثة فراسخ من يسوع الوادى Jésus del Valle حتى وصلنا إلى مدينة بلنسية العظيمة، عاصمة مملكة باسمها، تقع في سهل واسع وجميل، يشبه السهول التي ترى على مقربة من ميلان Milán وكولونيا Colonia، تحيط به الجبال من كل الجهات، ماعدا الجنوب، الذي يطل على البحر. يروى هذا السهل بمياه الأنهار التي تنساب من الجبال، وتتصل بها قنوات عديدة. هذا السهل غنى بالزيتون، والرمان، والليمون، والبرتقال وفاكهة أخرى لا تحصى. وأعتقد أنه في كل أوربا لا يوجد إقليم بحري ينتج فاكهة في مثل هذه الجودة. في هذا السهل وعلى مسافة قليلة من البحر تقع مدينة بلنسية الشهيرة الآهلة بالسكان، وهى أكبر كثيراً من برشلونة Barcelona، بها أقماط كثيرون، وبارونات، ونبلاء بلا عدد.

الكنيسة العظمى

كنيسة بلنسية العظمى مكرسة للسيدة مريم العذراء، بها أسقف، وأربعة وعشرون كاهناً، ونائب رسولي ، ومنشدون، وخدم الكنيسة، ومائتا قسيس، يحيون حياة كهنوتية ودينية. مبنى الكنيسة رائع جداً، مقاعد مقصورة الكهنة منحوتة بجمال، بها مائة وأربعة وأربعون مقعداً. برج الكنيسة متوسط الارتفاع، صعدنا إليه عبر مائتين وست درجات عالية، له

عقد. عندما صعدنا شاهدنا موقع الإقليم والمدينة. كان بالنسبة لنا منظراً مدهشاً.

البرج مثمن الشكل وعالٍ. عرضه من أعلى عشرون خطوة، مبنى هذه الكنيسة جميل التشييد، طوله مائة وست وخمسون خطوة، وعرضه ثلاثة وخمسون، بنيت على شكل صليب. بها أكثر من عشرين مصلى تفصل بينها الأعمدة. وعدد المذابح ستة وخمسون، وهي عالية ولها قباب جميلة. كثير من الموضوعات من الممكن الكتابة عنها.

يوجد هناك أيضاً الكثير من الأديرة الشهيرة للرجال والنساء. في دير سان أوغسطين San Agustín يوجد مصلى لمريم العذراء التي أخذت شهرتها بسبب معجزاتها الكبرى. أحصينا هناك أكثر من مائة وعشرين مصباحاً من الفضة، لكنها لا تضاء كلها. من عادات الأسبان أن يوفوا نذرهم لله بإهداء مصباح من الفضة، كل واحد على حسب أحواله المالية. لم نر أبداً مدينة في أي مكان بها من الكنائس الرائعة والمذابح المزينة بالصور المذهبة، مثلما كان هناك. أقيم في الكاتدرائية مذبح كبير من الفضة بتكلفة عالية جداً، حيث نقشت الأناشيد السبع للسيدة مريم.

لم يكن هناك شيء مذهب أكثر من اللحى، والشعر والأشياء الأخرى التي من المناسب أن تطلى بالذهب. يصل وزنها إلى أكثر من ثلاثة آلاف مارك. أعطاني هذه التفاصيل المعلم الصائغ، الذي يعود أصله إلى (Lawingen) Lawingen وهي مدينة في سوابيا Suabia بجوار الدانوب. الأيقونات القديمة كان بها كثير من الفضة. الكهنة وإيرادات الكنيسة تضاف إلى الباقي. رأيت أيضاً أيقونات كثيرة أطلعني عليها المعلم الصائغ.



امرأة من مملكة بلنسية

لالونخـــا La Lonja

منذ خمسين عاماً كان المركز الرئيس للمعاملات التجارية في كل اسبانيا في برشلونة. كما هو الوضع حالياً في نورمبرج في أعالي ألمانيا. لكن بعد الفتن والحروب المصيرية، لجأ التجار إلى بلنسية، العاصمة التجارية اليوم. أقيم حالياً هناك بيت فخم يسمى لونخا Lonja، حيث يجتمع التجار لبحث شؤونهم. مبنى عالٍ، أسس من الحجارة والأعمدة الرقيقة. عرضه اثنتان وثلاثون خطوة، وطوله اثنتان وستون. هذا المبنى أنجز تقريباً حتى السقف، الذي ينجز كذلك على وجه السرعة. يمتد هناك بستان غني بالفاكهة المتنوعة، وعين جارية. به أيضاً برج عالٍ، ومصلى، حيث يقام قداسان يومياً. يؤكد المهندسون أنه يحتاج إلى عامين لاستكماله. بالقرب منه يقع ميدان السوق الكبير. وهذا المبنى أكثر رشاقة وجمالاً من La Lonja التي توجد في برشلونة.

التجار الألمان كونراد هومبس Conrado Humpiss و انريكي سبورار Enrique Sporer وكلاهما من رابنسبورج Ravensburg وخدمهم، اختصونا بكثير من الكرم و صحبونا إلى كل الأماكن، دعونا إلى الطعام وأهدونا بعض الملابس. ليتنا نستطيع أن نوفي أفضالهم وأفضال أصدقائهم!

عبيد جزر الكناري

بيع العبيد

رأيت في أحد البيوت رجالاً ونساء وأطفالاً معروضين للبيع، كانوا من Tenerife، إحدى جزر الكنارى Islas Canarias في المحيط الأطلنطي، الذين ثاروا ضد ملك إسبانيا، وأسروا لهذا السبب، وعرضوا كل رجالهم للبيع [٣٩]. كان هناك تاجر من بلنسية حمل في سفينته سبعة وثمانين مات منهم أربعة عشر، لأنهم لم يتحملوا مشاق البحر والمناخ. الآخرون عرضوا للبيع. كانوا رجالاً سمراً، لكنهم ليسوا زنوجاً، يشبهون البربر [٤٠]، كان مظهر نسائهم طيباً، لهم أطراف قوية، وقامتهم طويلة إلى حد ما. لكنهم كانوا متبربرين في عاداتهم، لأنهم إلى الآن لم يحيوا تحت أي شريعة، غارقون في الوثنية.

جزر الكناري تنتج السكر بوفرة. أخبرني صاحب العبيد، أن قصب السكر هناك يبلغ طوله ستة أو سبعة أقدام، وسمكه من الجزء الأمامي في سمك الذراع. لديهم كذلك كثير من الحيوانات وفاكهة عديدة وشعير.

لا يأكلون الخبز، وإنما الشعير، الذي يطحنونه في أرحاء يدوية من الحجر، ثم يضيفون إليه الماء أو اللبن ويتناولونه كطعام وشراب. يأكلون أيضاً اللحم بكثرة مطبوخاً أو مشوياً. الملك المنتصر أعطاهم أبرشية وأسس لهم كنيسة، وذلك لإعدادهم للدخول في ديننا. على حسب أوضاعهم السابقة، كانوا جميعاً يسيرون عراة، لكنهم الآن يستعملون الملابس مثلنا. أوه كم كان تأثير العقيدة والحمية عليهم، من

حيوانات محبوسة في الجسم البشري إلى أناس هادئين! وإن كنت لم أر كثيراً من الرجال منهم.

جزر الكناري سبعة، منها كناريا Canaria أكبر من كل مايوركا. الثانية تينيريفه Tenerife ، الثالثة فويرتبنتورا Fuertevenrura ، الرابعة جوميرا Gomera، الخامسة جزيرة الحديد La isla de Hierro... الخ. وأهل كل جزيرة يفهمون سكان الجزر الأخـرى، كما هو الحال في أعلى وأسفل ألمانيا. قبل انتصار ملك إسبانيا كانوا كالحيوانات، اليوم تحضروا بفضل تأثير الدين . الجزيرة السادسة هي لانثاروته Lanzarote. رأيت كثيراً من الأسرى مصفدين في سلاسل من الحديد والزبر، يجبرون على العمل الشاق، مثل نشر دعامات الأسقف والأعمال الأخرى.

جمال البساتين البلنسية

مضوا بنا لنشاهد بساتين المدينة، التي كانت تزخر بأشجار الليمون والبرتقال، والأترنج والنخيل. وكل أسوارها مغطاه بغصون وأوراق أشجار البرتقال. توجد أيضاً موائد، ومذابح، ومنابر، وأروقة، ومقاعد، كلها يزينها الريحان، الذي يجمع بين الأشجار المثمرة والشجيرات، بأوراق دائمة الخضرة، مثل شجر البقس Boj، بها زهور بيضاء جميلة الرائحة، مثل زنبق الوادي الدائمة الخضرة تتمايل في يسر وتتواصل وتمتد وتلتف بكل الأجزاء مكونة أشكالاً مختلفة. رأينا كذلك بستان الملك في القصبة، الذي كان واسعاً، وغنياً بأشجار الفاكهة المتنوعة، به قنوات وأغادير. وكانت هناك أيضاً بساتين أخرى للنبلاء كلها مزدانة بجمال، فتجعلك تتخيل أنك في الجنة.



هكذا يصلحون السفن في إسبانيا

لوحة رقم LXI (ورقة ٨٢)

من محاصيل إسبانيا المنوعة

الفحص البلنسي خصب جداً، ينتج أنواعاً كثيرة جداً من الفاكهة التي تصدر إلى البلاد الأخرى، ومنها يحصلون على أرباح عالية. حكي لنا التجار الألمان كثيراً عن هذه الفاكهة ، وسيكون من الإسهاب أن أحصيها كلها، من بينها قصب السكر بكميات هائلة، وقد رأيته يطبخ بكميات لا تحصى.! آه كم من قوالب رأيتها، منها يصنعون السكر، وتكون في مجموعات هرمية! إنه عمل شاق، يعمل به الكثير من العمال. رأيتهم يصفونه، ويطبخونه، وينتقون منه الأكثر حلاوة لاستخراج السكر الأبيض. كان بالنسبة لنا منظراً مبهراً. رأينا كذلك السكر عندما يصنع، وتذوقنا عصيره المستخرج من القصب. قال لي رئيس المصنع - وهو رجل نزيه ووقور ومشهور – إنهم في إقليم بلنسية حيث ولد، ينتجون سنوياً ستة آلاف شحنة، أي ما يعادل عشرة آلاف Centenarios نورمبرجي.

كذلك ينتج ويصنع هناك الحرير الجيد بكثرة. يوجد نوعان من الشجيرات التي يتغذى دود القز على أوراقها. الأولى شجرة التوت التي تعطي ثمرة التوت، وعلى أوراقها يتغذى دود القز في المدن الإيطالية مثل فلورنسا Florencia وفنيسيا Venecia وبولونيا Bolonia. والأخرى تشبه شجرة التوت، لكنها لا تثمر فاكهة، لها أوراق خضراء وحلوة، تشبه أوراق شجر الحور، يتغذى عليها دود القز. رأينا في بلنسية معامل لا تحصى مخصصة لصناعة الحرير.

ينبت القرمز هنا أيضاً بوفرة، ومنه يصبغون المنسوجات الثمينة. وهو عبارة عن شجيرة لها أوراق صغيرة، كثة وشائكة جداً، تبدو حبوبها خضراء في نوفمبر، وفي مايو، عندما تكون كاملة النضج تبدو حمراء قانية. لها شكل حبوب العرعر. يباع الرطل منها بدوقة، وأكثر، لأنها تصلح للتخزين زمناً طويلاً، كما يحدث في بولونيا مع مستحضرات القرمز ، وهو السنديان القرمزي[٤١].

ينتجون أيضاً كميات كبيرة من الزبيب الحلو ، وزيتونا لم أر أبداً ما يماثله حجماً ولذة في أي مكان آخر .

يوجد الصوف في كميات تثير الدهشة، ويقومون بتصديره إلى جنوة وفينسيا، وينسجون منه أقمشة فاخرة في بلنسية وفي كل المملكة.

بها أيضاً نبيذ مربيطر[٤٢] Murviedro (Morfedra) الأصلي ، وهي قرية كانت تسمى قديماً Sagunto، وفي عصر الرومان ازدهرت وامتدت تقريباً حتى البحر، لكنها الآن كغيرها، تقهقرت وتوارت.



فارس بلنسى مع إمرأته في طريقهما إلى الحدائق للتنزه
لوحة رقم LXXVIII (ورقة ٦٤)

من مدينة لقنت[٤٣] Alicante تصدر كميات كبيرة من النبيذ الرائع المذاق، إلى انجلترا وألمانيا، اللتان تخلوان منه. وكانت السفن المحملة بالزبيب المجفف والمعد إعداداً طيباً بواسطة المسلمين تبحر إلى كل أوربا حتى انجلترا، وفرنسا، وألمانيا وايطاليا ودول آخرى.

يوجد أيضاً التين، والأرز، والعسل اللذيذ الذي ينتجه نحل زهور إكليل الجبال، والشمع، والفرو وجلد الكباش... الخ. كذلك الصبغة المتقنة من ألوان متعددة، والتي تعد من عصير البرتقال ومواد أخرى، ولا توجد صبغة تفضلها.

بها حلفاء، وهى نوع من الصفصاف أو الأسل، يصنعون منها حبالاً سميكة، كما نشاهد في ميناء لقنت البحرى، الذي تبحر منه سفن عديدة محملة بها إلى البلاد الأخرى.

وفضلاً عن كل هذا، لديهم نوع من الصلصال الذي لا يوجد له نظير في أى مكان، يصنعون منه قدوراً كبيرة، تشبه دنان النبيذ، وبعضها يسع ثلاثة أو أربعة مكاييل من التي تسمى بيننا Eimer[٤٤].

يصنعون أيضاً صحافاً، وأطباقاً، وأباريق، وآنية كثيرة من هذا النوع، تتميز بألوانها الزاهية، ومزدانة بالذهب والفضة، توسق في السفن إلى فنيسيا، وفلورنسا، وإشبيلية، والبرتغال، وأفينيون، وليون... الخ. يوجد كثير من الفخارين الذين تخصصوا في هذا العمل.

نسيت أن أذكر الزعفران الذي ينتج بكميات كثيرة، والأنيسون، والشمار، والأترج، والكمون... الخ. يصعب على

ان أحصى ما كان يصدر من العنب إلى الأراضي الوطينة، والقرطم الذي يسمى لدى العامة صفار Saffar، وهو الزعفران البرى، الذي يستخدم لصباغة المنسوجات، والملابس.

بعض الأديرة والمصليات

يوجد دير للراهبات تابع للنظام التبشيرى، يسمى دير سانتا كاتالينا دى سينا Santa Catalina de Sena. توجد به سبعون راهبة ، يقال إنه شيد منذ عامين، بناؤه شامخ ومحاط بأسوار واسعة. قبل أربع سنوات كان كنيسة لسان كريستوبال. المرتدون، وهم المسيحيون الكاذبون، واليهود في الداخل، كانت لهم قبورهم هناك. عندما يموت أحدهم، يتظاهرون بأنهم يعملون كل ما يتطابق مع الشريعة المسيحية، فيعملون للمتوفي جنازة مهيبة، ويحملون التابوت المغطى بنسيج مطرز بالذهب، ويحملون أمام التابوت أيقونة من الذهب لسان كريستوبال، لكنهم في الخفاء يقومون بغسل جثامين الموتى ويدفنونهم طبقا لشعائرهم(٤٥).

اكتشفت حالة، وأحرقوا الكثير من المرتدين في النار، هذه الكنيسة تحولت إلى دير أعد إعداداً طيباً على أيدى الملكة ورجال أتقياء آخرين.

غير بعيد عن هذا المصلى، يقع دير الراهبات التابع للنظام التبشيرى. بناء ضخم، تحيط به حدائق واسعة، وأروقة. وملحق به مصلى فخم، الذي تقوم حالياً الملكة ايسابيل بتشييده بكل فخامة. إنه واسع جداً، وكل جدرانه، من الأرض وحتى السقف، مغطاة بملابس المرتدين الذين تابوا، وملابس

هؤلاء الذين أحرقوا بالنار، وكان عددهم كبير جداً(٤٦)، وعلى ملابس الذين صدر الحكم بإعدامهم كان يكتب اسم من كان يرتديها. أعتقد أنهم كانوا أكثر من ألف. وقد عملوا على الاختفاء في هذه الأيام. وعندما كنا في بلنسية كان يوجد في السجن أكثر من خمسين شخصاً، من الذين صدرت ضدهم أوامر عليا بإحراقهم في النار في أربعة عشر يوماً.

المرتــدون

المرتدون يهود منصرون، من آباء معمدين، يمارسون علانية الشريعة المسيحية، بينما يمارسون سراً الشعائر اليهودية. لديهم في برشلونة وبلنسية وبلاد أخرى ، بيع يهودية سرية تحمل اسماء لقديسين .

كان اليهود والمرتدون في السابق السادة الحقيقيين لإسبانيا، يسيطرون تقريباً على الوظائف العليا، ويضايقون المسيحيين، إلى أن أوحى الله الرحيم إلى القلب المسيحى للملك والملكة روح الحقيقة، فقاموا في وقت قصير بطرد أكثر من مائة ألف أسرة من اليهود من بلادهما، كما أمروا بإحراق الكثير من المرتدين، ولكن سيكون من الإسهاب والإطالة أن نتحدث عن كل ما يتعلق بهذا الموضوع.

دير القديس ترينيداد Trinidad

خارج الأسوار وقريباً من قصر الملك، يوجد دير جميل يسمى دير القديس ترينيداد. أسس في عام ١٤٦٢م على يد الملكة خوانا، التي ترجع إلى أصول فرنسية. وعندما توفي زوجها الملك دون ألفرنسو Don Alfonso أسست هذا الدير

وانخرطت في الدين. وبعد موتها رقدت هناك باعتبارها قديسة[٤٧]. لم أر أبداً كنيسة مثلها، بحسب الثروة والأيقونات الضخمة والزخارف التي تزينها. يدعو هذا المنظر إلى الإعجاب الشديد. في هذا الوقت يوجد في الدير ما يقرب من ثمانين راهبة، وكانت رئيسة الدير أختاً للملك دون فرناندو، وهي الآن وصية على العرش[٤٨].

دير سانتا ماريا خيسوس

Santa María Jesús

يوجد أيضاً على بعد حوالى عشر رميات حصى من باب السور دير سانتا ماريا خيســـوس، المشيد حديثاً. يحيط به بستان جميل به أشجار الليمون، الاترنج، وأشكال مختلفة مكونة من الريحان، لا يوجد أجمل منها. الدير الثانى كله مغطى بالرمال. وبه جب في الوسط، تتجمع فيه مياه الأمطار. أوه ما أجمل قاعة الطعام! الكنيسة! غرف الرهبان! في داخلها يوجد سور مربع، واسع. دلفت من الباب الثانى الذي يؤدى إلى مكتب جميل جداً. يوجد أيضاً مستشفي فخم للمرضى. كل شئ هناك قد أعد بطريقة ملائمة جداً للهدف المقصود منه. في حدائقهم الوارفة، رأيت شجرة جميز تثمر فاكهة على شكل عناقيد بحجم العنب الصغير، يصنعون منها المسابح. يوجد هناك أكثر من ستين راهباً تقياً كريماً، يوجهون راهبات دير القديس ترينيداد.

بيت الســـذج والمجانيـــن

يوجد بيت رائع ومؤسسة لاستقبال المجانين، والبلهاء، والمكتئبين والهائجين من الرجال والنساء. رايت كثيرين منهم، بينهم شاب كان في حالة هياج شديد، مقيد بسلسلة من

الحديد في قفص. زملاؤنا دعوه إلى الصلاة مقابل بعض الدنانير. فبدأ في الصلاة بالعبرية وأخذ يصب على المسيحيين اللعنات التي اعتادها اليهود، لأنه كان ابنا لمرتد ثرى جدا فنشأ على اليهودية منذ نعومة أظفاره، ولما اكتشف الأب هذه الطريقة، أحرق بالنار. هذه المؤسسة مخصصة فقط لصناع المدينة. ولها دخل يبلغ ألفا دوقة سنويا. لايدخلها إلا أبناء الصناع وليس النبلاء. إنها جميلة التأسيس، كل ما فيها مرتب ترتيبا جيدا.

إلى جانب ذلك توجد في بلنسية بيوت أخرى فخمة جدا، مثل بيت القضاة، وبيت ابن حبر الكنيسة الحالى الاسكندر السادس Alejandro VI الذي لم ينجز حتى الآن، وبيت كونت ولبة Oliva، وبيوت أخرى لا تحصى للنبلاء جميلة البناء، بها غرف، ومقاصير، وحدائق مما يدفع إلى الاعتقاد أنها بيوت ملكية أو في الجنة.

لطف البلنسيين

الشعب البلنسى بشوش جدا. يعيش هناك اثنان من الدوقات، أحدهما ابن البابا الاسكندر السادس[٤٩] ، وكثير من الأقماط (كونت) مثل قمط ولبة Oliva وقمط Aversa [٥٠] وغيرهم. وأكثر من خمسمائة فارس للمهام العسكرية، وأخرون كثيرون، التجار، والصناع، والقساوسة أكثر من ألفين، يرتدى الرجال ملابس طويلة وجميلة. بينما ترتدى النساء ملابس فيها مغالاة أكثر من اللازم. من الامام، كلهن يمضين عاريات حتى الصدر، بطريقة يمكن معها رؤية حلمات الثدى كبراعم الأشجار. إلى جانب ذلك يضعن أصباغا

في الوجه ويدهنه بالأدهان والروائح الطيبة، مما كان يثير الغضب.

هناك أيضاً عادة الخروج للتنزه في الشوارع لدى كل أبناء الشعب من الرجال والنساء، من المساء وحتى وقت متأخر من الليل، في ازدحام كبير، مما يدفع على الإعتقاد أنهم في مهرجانات، ومع ذلك لا يزعج بعضهم بعضاً.

ذهبت إلى الاسواق الجميلة بصحبة تجار من رابنسبورج Ravensburg، شئ يصعب تصديقه. محلات الطعام تظل مفتوحة حتى منتصف الليل، بحيث يمكنك أن تشترى منها في اى وقت تشاء. أشياء كثيرة يمكن أن يُكتب عنها، لكنى أغفلها حرصاً على الإيجاز.

للمسلمين في بلنسية حى خاص منفصل مغلق بسور، مثل حى اليهود في راتيسبونا Ratisbona. سكان القرى والضواحى القريبة من المدينة كلهم تقريباً مسلمون، يعملون بمهارة في فلاحة الأرض.

الطريق إلى ألمرية

في التاسع من أكتوبر رحلنا من بلنسية، سرنا ستة فراسخ عبر سهل جميل مأهول بالسكان، وصلنا إلى مدينة وقلعة شقر Alcira (Alsira) الخصبة والغنية بالفاكهة المتنوعة. في الصباح، سرنا على عجل مسافة ستة عشر فرسخا في يومين كاملين، عبر جبال وعرة وخطرة، وكذلك عبر قرى جميلة، حتى وصلنا إلى وادٍ يروى بواسطة نهر، حيث تقع مدينة شاطبة Jatiba[٥١] التي توجد بها قلعة حصينة، وقناة طويلة بها مياه عظيمة، وقد مررنا بمنبعها بالقرب من المناطق الجبلية.

وصلنا إلى مدينة لقنت Alicante البحرية الجميلة. وأثناء مرورنا بين الجبال، رأينا كثيراً من حقول القرمز، والكمون، والحلفاء، والأنيسون ومنتجات أخرى. تقع لقنت على البحر، نحو الجنوب. وفي شمالها يوجد جبل شاهق، على قمته قلعة حصينة تثير الإعجاب، وعند سفحه تقع قرية بها خمسمائة بيت، وكنيسة جميلة مكرسة للسيدة مريم العذراء، بها لوحة في الجزء الأعلى من المذبح، اشتراها ملاك الكنيسة الجدد بمبلغ خمسمائة دوقة.

منتجات لقنت

في جبل على ساحل البحر باتجاه الغرب يوجد منجم للملح المعدنى الفاخر، الذي يستخرج منه حجر الشب Alumbre الذي يصدر إلى موانىء مختلفة مثل جنوة وبلاد أخرى. تنتج أيضاً زبيب العنب في واد على الساحل مأهول بالمسلمين، بكميات كبيرة، ينتج منه في كل عام من عشرة إلى خمسة عشر ألف ثنتناريو Centenarios، ويصدر إلى كل دول أوربا.

يعدون الزبيب بالطريقة الآتية، في أغسطس، عندما تكون عناقيد العنب قد نضجت، يعد المسلمون ماء ساخناً لعناقيد الكرم والشجيرات الأخرى، حيث يتركونه فيها لمدة ثمانية أيام. وفي النهاية، يقومون بغليه في غلاية كبيرة، وبواسطة مصفاة كبيرة من الحديد المثقوب يضعون العناقيد في الماء المغلى. كل العنب الفاسد يسحب بواسطة هذا الماء، ولا يبقى في العنقود. ثم يخرجونها، ويضعونها لتجف في الشمس لمدة ثمانية أوعشرة أيام، على حصيرة من الأسل.

وأخيراً يضعون العنب في آنية أو سلال من الحلفاء ، وبذلك يكون قد أعد للبيع.

ينتّج زبيب العنب في أماكن أخرى بين بلنسية ولقنت، لكن زبيب لقنت كان الأكثر شهرة. كونت كونثنتيانا Concentaina هو سيد هؤلاء المسلمين الذين يمارسون هذا العمل. هناك أيضاً مدن أخرى، إحداها تسمى أسبى Aspe. في طليطلة(٥٢) يضيفون الزيت إلى الماء المغلي ويضعون فيه العناقيد ثم يعلقونها لتجف. بعد ذلك يرشونه بالماء المضاف إليه العسل الممزوج بقليل من الدقيق ثم يحفظونه في سلال.

في الأقاليم البحرية من هذه البلاد من ناحية الشرق، توجد كميات كبيرة من النبيذ الأبيض، لكن مازال الأكثر جودة هو الذي ينسب إلى لقنت، الذي يصدر إلى انجلترا، واسكتلندا والأراضي الوطينة، وبلاد أخرى في أوربا. إنه نبيذ غليظ جداً ويعطي لوناً أكثر. حتى إنهم في الأراضي الوطينة يصبغون به نبيذ الراين، حيث ينتج هناك بكميات مماثلة تثير الإعجاب. في هذا اليوم كانت هناك ست وعشرون سفينة من بثكايا Vizcaya ومن الأراضي الوطينة وبلاد أخرى لشحن النبيذ وأشياء أخرى(٥٣).

في هذا الإقليم ينتج أيضاً اللوز والأرز بكميات غير عادية. أكد لى تاجر ألمانى شهير يدعى Jodoco Schedler من Kempten، الذي يمثل شركة من Ravensburg منذ سنوات عديدة، واختصنا بكرم عظيم، أكد لى، أنهم في كثير من السنوات في الإقليم المذكور ينتجون حتى سبعمائة Somas (٥٤) من اللوز الحلو الذي يصدر إلى الأراضي الوطينة وانجلترا وأماكن أخرى.وكذلك كانوا ينتجون الأرز بكميات كبيرة جداً.

إلش –أوريولة– مرسية –الحامة، صناعة الزجاج– لورقة

في الثانى عشر من أكتوبر، خرجنا من لقنت عبر سهل قاحل تكتنفه المخاطر بسبب قطاع الطرق المسلمين، امتطينا ظهور الجياد وقطعنا فرسخين إلي أن وصلنا إلى سهل آخر خصب جداً، ترويه عدة أنهار، ثم وصلنا إلى مدينة إلش Elche التي تعنى باللاتينية مختلطاً، لأنها تقع بين حدود غرناطة وبلنسية، يسكن جزءاً منها المسيحيون، والجزء الآخر يسكنه المسلمون(٥٥). هذا المكان خصب جداً، يوجد به الزيت بوفرة. لا يوجد أحد حتى اليوم مر في أى طريق، أو خرج في رحلة، رأى مثل هذا النخيل ، لكن البلح الذي تنتجه ليس حلواً، وعندما ينضج لا يصل إلى حلاوة بلح المغرب، لأن هذا الإقليم أقل حرارة. يا لخصوبة هذه المدينة!

المسيحيون اليوم هم أصحاب هذه المدينة الغنية بالفاكهة، إلا أن أعداداً كبيرة من المسلمين لا تزال تعيش هناك.

في الثالث عشر من أكتوبر، عبرت سهلاً قاحلاً ومدناً خاصة بالمسلمين، وبعد خمسة فراسخ وصلنا إلى أوريولة Orihuela (Oriola) ، في إقليم خصب جداً غنى بالمياه. إنها مدينة كبيرة، بها أكثر من خمسة آلاف بيت. تقع على سفح جبل باتجاه الجنوب، في أكثر جهات الجبل ارتفاعاً توجد قلعة عظيمة. إنها مدينة من مخصصات الملك، وتبعد أحد عشر فرسخاً عن مدينة قرطاجنة(٥٦) Cartagena البحرية، التي تأسست على يد هانبيال الإفريقي، والتي أطلق عليها Cartago Nova وهذه المدينة تهدمت الآن وأصبحت مثل أى مدينة أخرى.



السجـــان

[illegible] ist ain spanischer Edelman der
spacieren reytt



نبيل اسبانى على ظهر جواد
لوحة رقم LI (ورقة ٤٧)

أوريولة مدينة كبيرة، يرويها نهر يسمى نهر شقورة Segura، الذي يأتي من مرسية إلى قشتالة، يقع على حدود مملكة بلنسية. الذين يخرجون من المدينة يدخلون مباشرة إلى مملكة قشتالة. يمتاز إقليم أوريولة بالخصوبة، وهو غني بالبلح والتين وفواكه أخرى عظيمة... الخ، كل سكانه من المسيحيين.

في الرابع عشر من أكتوبر، وبعد أن إمتطينا ظهور الخيل لمسافة أربعة فراسخ عبر أراضٍ سهلة وخصبة، وصلنا إلى مدينة مرسية العتيقة، الكبيرة مثل نورمبرج Nuremberga، كما أمكننا مشاهدتها من برجها العالي. بها كنيسة واسعة وهائلة، ذات قباب، عرضها اثنتان وثمانون خطوة، ومائة وثلاثون طولاً، بها مصليات جميلة، ومقصورة كبيرة للكهنة، يزينها بناء فخم من الحجر، ورواق جميل. وهذه الكنيسة مكرسة للسيدة مريم العذراء في عيد ميلادها، وبها مقر أسقفي.

تقع المدينة في سهل واسع وجميل، محاط تماماً بالجبال، مثل مدينة ميلان Milan. ويمر بها نهر يسمى شقر Segura، الذي تروى مياهه كل الأراضي بواسطة عدد من القنوات الموزعة على كل المناطق. قديماً كانت هناك مملكة تسمى مرسية Murcia، ولكنها الآن أصبحت جزءاً من مملكة قشتالة. إنها أول مدينة في مملكة بلنسية من ناحية الجنوب الغربي. قديماً كانت تابعة لأسقف قرطاجنة، لكنها أصبحت الآن قرية، واكتسبت مرسية مرتبة الأسقفية. تنتج كميات كبيرة من الزبيب، والأرز، واللوز، والقمح، وكل الأطعمة لها سوق غاية في الكمال.

رحلنا في اليوم نفسه من مرسية، ومشينا ستة فراسخ في أراضٍ سهلة مليئة بالحلفاء وأعشاب Kali، التي تسمى شعبياً Sosa، وصلنا إلى قرية صغيرة بها حوالى ثلاثين بيتاً تسمى الحامة. لها في الجبل قلعة عجيبة. رأينا هناك حمامات للماء الساخن والصافي – التي استحممنا فيها – لأن لها فوائد جمة لمرضى الاستسقاء والقولون وأمراض أخرى. رأينا هناك كذلك مصنعاً فخماً للزجاج، الذي يصنع بهذه الطريقة: يأخذون جزأين من رماد عشب Kali الذي يسمونه Sosa، وجزءاً من الرمل الأبيض الناعم المسحوق من الصخر. يطحنون هذا الخليط بحجر ضخم مثل الرحى، ويصنعون منه عجينة كبيرة على شكل الخبز الهائل. ثم يضعونه في الفرن. تخرج عندئذ عجينة مملحة مثل رماد البوتاس الذي نسميه Waidasch. يضعون هذه العجينة في الفرن ويصنعون منها أنواعاً مختلفة من الزجاج من ألوان مختلفة، شفاف، ومن ألوان متدرجة، ويصدرونه إلى البلاد الأخرى. أطلعني صاحب المصنع على كل شئ. هذا العشب ينمو هنا بكميات كبيرة مثل النجيل في آلمانيا، له ساق طويلة، مثل الرتم Retama، وفاكهة تشبه ثمرة الجوز، أخضر وناعم، يصدر إلى مختلف البلاد.

إذا أرادوا الحصول على زجاج نقى مثل البلور، يضيفون إليه رملاً أكثر نعومة، وهو أكثر دقة من الرمل الذي يستخدم في نورمبرج لعمل الساعات.

المياه على قمة الجبل والقلعة، عذبة وباردة جداً، وبكميات تفي بحاجة كل القرية والماشية، لكنها في السفوح على العكس، إذ تخرج المياه ساخنة وتتدفق إلى الحمامات الجميلة، التي تحدثت عنها من قبل. استحممت فيها لمدة

ساعة، مما جعلني أعرق بغرازة، وخلال ثمانية أيام أحسست براحة الجسم.

في الخامس عشر من أكتوبر، غادرنا قرية الحامة الصغيرة، عبر سهل من الأرض الجرداء الواسعة ، وبعد ستة فراسخ وصلنا إلى مدينة لورقة Lorca[٥٧] ، التي تقع على سفح الجبل حيث توجد قلعة حصينة على قمته، ببرج مربع عالٍ، يقولون أنه ليس له مثال في الحصانة في كل قشتالة. تقع لورقة على الحدود الجنوبية لقشتالة، أمام غرناطة. وخلال سنوات عديدة، كانت في حرب مستمرة مع مسلمي غرناطة، وكانوا دائماً يظهرون قوة وشجاعة، وفي كل يوم كانوا يكبدون المسلمين خسائر فادحة. ولهذا السبب، دخل ملك غرناطة في سنة ١٤٧٨م[٥٨] هذا الاقليم بجيش قوامه ثلاثون ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان، وخرب قرطاجنة ووقع في يده عدد كبير من الأسرى، لكن نظراً لقلة الطعام والمياه، أحسوا بالخطر بعد ثلاثة أيام. وعلى غير المتوقع، فإنه بمساعدة الله قام مسيحيو لورقة ومرسية وبلاد أخرى مع سبعمائة فارس وألف وسبعمائة من الرجالة، ورماة الأقواس، بمهاجمة المسلمين على غرة، الذين أنهكهم الجوع والعطش، مما دفعهم إلى الفرار تاركين أكثر من خمسة آلاف من القتلى في ميدان واسع على بعد ميل من لورقة. وقد مررنا بهذا الموقع على ظهور الجياد، حيث قصوا علينا أخبار هذه الحادثة.

يا لخصوبة ريف لورقة، يمكن ري كل نواحيه عن طريق نهر صغير، وبالمدينة قلعة حصينة. أعتقد أن بها حوالى ثمانمائة بيت، مسكونة دائماً بالجند! أوه كم تتوفر هناك الفاكهة الممتازة الطيبة الرائحة! وإلى الآن ما تزال في

الأشجار بعض الكمثرى التي يزيد حجمها على الكمثرى العادية.

دخول مملكة غرناطة من قشتالة

في السادس عشر من أكتوبر، عبرنا حدود قشتالة ودخلنا مملكة غرناطة، بعد أن رحلنا على ظهور الجياد لمسافة تسعة فراسخ عبر مزارع خصبة، لكن ليس بها أنهار، كما كانت غير ماهولة، حتى وصلنا إلى أول مدينة في مملكة غرناطة، التي تسمى بيرة Vera(Ferra) حيث يوجد جبل يقع في سهل جميل غنى بالزراعة، وعلى قمته قلعة شهيرة. وعلى سفح الجبل، وفي كل جوانبه توجد المدينة، يوجد بها ستمائة بيت، وكما كان يحدث على الحدود، طرد المسلمون منها، لذلك يسكنها المسيحيون فقط. عند سفح الجبل والمدينة تتفجر عيون جارية.

تتمتع بيرة بموقع جميل. تبعد عن البحر مسافة نصف فرسخ، ويمر بها نهر صغير، تكفي مياهه لرى المنطقة. لكن القسم الأكبر من المدينة تهدم، لأنه عند طرد المسلمين، قام جنود ملك إسبانيا بالكثير من أعمال التدمير والتخريب.

في السابع عشر من أكتوبر، غادرنا بيرة عبر جبال قاحلة مرعبة ثم وديان، ودخلنا مملكة غرناطة، ووصلنا إلى مدينة صغيرة تسمى سورباس Sorbas (Sorbus)، التي تقع على جبل شاهق، على مسافة ستة فراسخ من بيرة، كان كل سكانها من المسلمين، الذين يتناولون طعامنا. على سفح الجبل، وقريباً من عين جارية، سمعتهم عند الظهر يؤذنون فوق مآذنهم، على حسب عادتهم. وأخيراً في هذا اليوم وعبر طريق طويل

يبلغ خمسة فراسخ وصلنا في وقت متأخر من الليل إلى مدينة طبرنش Tabernas (Tabernus)، التي كان كل سكانها من المسلمين، باستثناء مسيحي واحد، الذي حللنا بمنزله.

المرية Almería

المدينة

في الثامن عشر من أكتوبر، وقبل شروق الشمس بساعتين، امتطينا الخيل من طبرنش ومشينا مسافة فرسخين، وعند شروق الشمس، أتينا إلى واد طويل جميل على شاطئ نهر صغير حيث تمتد حدائق ملتفة الأوراق ومزارع الزيتون، والنخيل، والتين، واللوز، مما جعلنا نتخيل أننا في الجنة. رأينا هناك أيضاً مجرى مائياً، يزود المدينة بكميات وفيرة من المياه، ويستمد مياهه من عين جارية على بعد ميل من المدينة. وعندما اقتربنا من المدينة مضينا نتأمل بساتينها الجميلة، وأسوارها، وحماماتها، وأبراجها، وقنواتها المنشأة على النمط الإسلامي، والتي لا يوجد أجمل منها[٥٩].

تقع المدينة على سفح جبل، وتتجه جنوباً نحو البحر المفترح، وعلى الجبل قلعة كبيرة جداً واسعة، مزودة بنوافذ حديدية كثيرة. وحديثاً أمر الملك بتأسيس القلعة فوق الأساس القديم للقلعة، إنها عمل عجيب، توجد داخلها حديقة مربعة في وسطها نافورة تضخ الماء بواسطة أنابيب.

رأينا هناك كثيراً من الأسرى الموثقين في الأصفاد. أوه ياله من شرف اختصنا به القشتالي، الرجل النبيل والحكيم! الذي يعود أصله إلى نابلي Nápoles! أتاح لنا الفرصة لنشاهد كل الأسلحة التي غنموها من المسلمين: الأقواس، المنجنيقات، السيوف، السهام التي كان عددها لا يحصى. رأينا كذلك نعامة

ضخمة، يكسوها الريش الحالك السواد. ثم قدمنا بعد ذلك إلى زوجته الرائعة الجمال، التي تحدثت معي بلطف ورقة، وسلمني رسائل توصية إلى حاكم غرناطة، الذي يسميه القشتاليون في لغتهم "Alcaide".

مدينة ألمرية على شكل مثلث، ولها سور ملئ بالأبراج، لكن تهدم جزء كبير منه من الداخل وأصبح مهملاً وغير مأهول نتيجة لهزة أرضية وقعت بعد الغزو. كانت منازلها فيما مضى تبلغ خمسة آلاف بيت معمور. الآن ليس بها إلا ثمانمائة، ولهذا فإن أى أجنبي يصل إلى هناك بغرض الاستقرار، يمنح مجاناً، بيتاً، وبساتين، ومزارع زيتون، حتى يستطيع أن يحيا حياة طيبة، ولهذا ستعمر سريعاً.

مسجد ألمرية

المسجد تحول إلى كاتدرائية ألمرية، كان واحداً من أكثر المساجد جمالاً في كل مملكة غرناطة. قبل الحرب ووقوع الهزة الأرضية، كان بها تجار كثيرون، الذين كانوا طوال العام، في المدينة ونواحيها، يصنعون أكثر من مائتى Centenarios من الحرير. لهذا السبب ولثروات أخرى، كان هذا المسجد عجيباً وعظيماً. إنه رائع جداً، يستند على أكثر من ثمانين عموداً. على عهد المسلمين، كان يوقد فيه أكثر من ألف مصباح طوال اليوم. زرنا غرف الزيت المهداة إلى المسجد ، والغرفة السرية التي كانت مخصصة للإمام.

في وسط المسجد توجد حديقة واسعة مربعة الشكل، مغروسة بأشجار الليمون وبالأشجار الأخرى، أرضها مغطاة بالرخام، وفي وسطها توجد نافورة، التي على حسب

طقوسهم، كانوا يغتسلون فيها ثم يدخلون إلى المسجد للصلاة. المسجد جميل جداً، طوله مائة وثلاث عشرة خطوة، وعرضه ثنتان وسبعون. أخبرونى أنه على عهد المسلمين كان به خمسمائة من الفقهاء، الذين كانوا يكلفون بالأمور المتعلقة بالشعائر، وفي كل ليلة كان اثنا عشر أو أربعة عشر منهم، يرتدون ملابس بيضاء، على حسب طقوسهم. ويصعدون إلى برج المسجد، حيث يؤذنون بصوت عالٍ[٦٠]، ثم يعزفون الأبواق. ولا يسير مسلم في الشوارع دون أن يحمل معه مصباحاً مضاءً. الآن هذا المسجد تحول إلى كنيسة مكرسة للسيدة مريم العذراء، ومقر أسقفي لحوالي عشرين راهباً.



أحد رجال القضاء على ظهر جواده

لوحة رقم XL (ورقة ٣٢)

على عهد المسلمين كان له ايراد سنوى من ممتلكاته من الحقول والبساتين، يبلغ ستاً وستين الف دوقة، الآن أصبحت بالكامل للكنيسة. بألمرية ايضاً مساجد أخرى كثيرة صغيرة، التي ايرادتها بالكامل، يحصلها الآن الأسقف والإكليروس، كما تجمع ايرادات الكاتدرائية. تحصل أيضاً ضريبة من اربعة وعشرين ألف Arrobas من الزيت للمصابيح، تبلغ قيمتها خمسمائة Centenaries من عملتنا[٦١]. أكد لى ألمانيان محترمان لهما شهرة واسعة وتربطهم علاقة طيبة بحاكم القلعة Alcaide الأول يدعى أندرس دى فولدا Andrés de Fulda من فولدا وهى مدينة في هيس Hesse، والثانى خوان من الأرجنتين[٦٢]، اللذان أخبرانى أنه في مساجد عديدة، قاموا بوضع نواقيس كان المسلمون قد غنموها في حروبهم مع المسيحيين، فكانوا يثقبون هذه النواقيس في مواضع كثيرة، ويعملون في تجويفها دوائر كثيرة بشمعدانات صغيرة، يضعون فيها مصابيح صغيرة، حتى إنه كان في ناقوس واحد فقط ثلثمائة مصباح صغير. وفي المساء يوقد ألفان أو أكثر من المصابيح الصغيرة. رأينا كذلك مصباحين كبيرين مضاءين أمام المذبح، مصنوعين من زجاج ملون، أتوا بهما من مكة، في شبه الجزيرة العربية.

لم أدهش لهذا، فإن المدن البحرية، التي تعيش على التجارة، سرعان ماتنمو وتضمحل.

المسافات بين ألمرية والمغرب

تبعد ألمرية خمسة وعشرين ميلاً عن مدينة وهران، في بلاد المغرب الأوسط، ومن ربوة عالية تقع على بعد ثمانية فراسخ إلى الشرق من الميناء، تسمى Cabo de Gata، ترى

منها جبال إفريقيا عندما يكون الجو صحواً. هذا التل يبعد عشرين ميلاً عن بلاد المغرب، وعندما تكون الرياح مناسبة؛ يمكن الوصول إلى وهران في اثنتى عشرة او ست عشرة أو عشرين ساعة من الإبحار على حسب إتجاه الريح.

تقع تلمسان في القارة الإفريقية على بعد ثلاثين فرسخا من وهران، وهى أكبر من بلنسية.

رأينا في ميناء ألمرية سفينة محملة بالتين، والفول، والأرز وأطعمة أخرى، كانت مبحرة باتجاه وهران، لأن ندرة مياه الأمطار في ثلاث سنوات، أدى إلى قحط شديد في المغرب الأوسط. في هذه الأيام شحن أحد الجنويين سراً سفينة محملة بالقمح من أقليم أندالوثيا Andalucía إلى تونس، واشترى بثمنه حريراً، محققاً أرباحاً عالية. وحمل معه من تونس إلى غرناطة ثلثمائة مسلم، أجبروا على العودة إلى المغرب في العام نفسه، مقابل دفع كل واحد منهم دوبلة[٦٣] Dobla مقـابل العبور.

أديـرة حديثـة الإنشـاء

بدأوا في وضع أساس ثلاثة أديرة هناك. أعطاهم الملك موقعاً مناسباً في المدينة، به بيوت جميلة وحدائق رائعة ومجارٍ مائية وقنوات، كلها على النمط الإسلامى. القسم الأكبر من هذه البيوت كانت له آبار وقنوات للماء العذب، وأحواض من الحجر والجص والمواد الأخرى للسباحة، فإن المسلمين ماهرون جداً في إنشاء المجارى المائية.

بإصرار كبير عاش الوعاظ والرهبان التابعون لنظام رهبنة سان فرانسيسكو، حياة عفيفة، مما جعلنا نعجب جداً بتدينهم.

نبـات الصبــار

في التاسع عشر من أكتوبر، الذي كان يوم عيد سان لوكاس San Lucas، ذهبنا لزيارة دير الوعاظ. كان به ستة رهبان منحهم الملك، مبنى فخماً، ملحقاً به حدائق جميلة وواسعة، بها نخيل وبلح كثير، الذي كان فيما قبل ملكاً لبعض الأثرياء من المسلمين ، كانوا يعيشون هناك ، وكانت لديهم عيون كثيرة للماء.

زرنا بعد ذلك دير سان فرانسيسكو، واثار انتباهنا أنه كان جميلاً من الداخل، لكنه لم يكن واسعاً، وكان يزود بالماء من عين تجرى مياهها في أنابيب. في إحدى هذه الحدائق رأينا شجرة التين الشوكى المصرية الشهيرة، كان فيها خمسة أو ستة اشجار. واحدة منها كان طولها خمسة أو ستة أذرع، سمكها مثل ساقى أسفل الركبة. لها أوراق كبيرة جداً، عرضها قدمان أو أكثر، وطولها عشراً واثنتا عشرة. تثمر حبوباً مثل الخروع والعنب. الفاكهة كبيرة ومستطيلة على شكل القثاء، في كل عنقود يوجد ثلاثون، أو أربعون أو خمسون، وعندما تقطع بالسكين، يظهر فيها شكل الصليب[٦٤]. عندما تنضج الفاكهة تكون في حلاوة التين، لكنها لا تنضج هناك بشكل جيد مثل مصر والمغرب. رأينا أيضاً في البيتين الآخرين، كثيراً من الأشجار من النوع نفسه، وفاكهتها في العناقيد. وأعتقد أنه يزرع بغرض الزينة، أكثر من الاستفادة منه، لأن الفاكهة لا تنضج بشكل طيب. وهى

تتشابه بذلك مع البلح. ولا أعتقد أنني رأيت مثل هذه الشجرة تثمر في أوربا. ولكن لأن هنا الإقليم شديد الحرارة وقريب من إفريقيا فقد أثمرت هناك، وتكون في وضع سيئ إذا لم ترو وتصل المياه إلى الأراضي المختلفة من العيون والأنهار عن طريق الأنابيب. ولذلك فإنها تعاني من الجفاف منذ عامين، ولكن منذ السابع إلى العاشر من اكتوبر سقط المطر بغزارة في بلنسية، وساحل غرناطة، وقطالونيا وقشتالة. ولهذا شكروا الله شكراً لا حدود له. أوه يا لجمال هذه الحدائق عندما كانت تحت أيدي المسلمين، الذين كانوا ماهرين في تنسيق البساتين والفاكهة، وفن شق القنوات، التي لم أر مثيلاً لها!

الخروج من ألمرية

طريق غرناطة، فنيانة، وادي آش

في اليوم نفسه، يوم العذراء، عند الخروج من ألمرية، رأينا في الضواحي عموداً عالياً كانوا يعلقون فيه ستة مسيحيين من إيطاليا من أرجلهم، كانوا متهمين بممارسة اللواط والمتهمون بهذه التهمة، يعلقون أولاً من رقابهم مثلما يحدث في ألمانيا، ثم من أرجلهم. قبل المحاكمة بتروا أعضاءهم التناسلية، وعلقوها في رقابهم، لأن الإسبان يمقتون بشدة مثل هذا الفجور، ولذا عاقبوهم بمنتهى القسوة، لأن اللواط عملية حيوانية وضد الطبيعة الإنسانية[٦٥].

واصلنا السير عبر واد خصب جداً، وعلى بعد خمسة فراسخ استرحنا هذه الليلة.

في العشرين من اكتوبر قبل شروق الشمس بثلاث ساعات، واصلنا الصعود عبر جبال وعرة، لمسافة سبعة أميال بصحبة القمر الأبيض، حتى وصلنا إلى قلعة جميلة تسمى فنيانة[٦٦] (Fiñana (Finiana ، كان بها حاكم أصله من بسكايا Vizcaya في بلاد البشكنس Vascos رجل مهذب، قادنا إلى المدينة، وأرانا نعامة جميلة، لها ريش غزير، لونه ضارب إلى الرمادى، وجرو ذئب، ضارباً إلى البياض، وُضعت معه بعض الكلاب الضخمة من سلالة إسبانية للعب معه. طلبوا منا أن نبقى يومين ورتبوا لنا رحلة لصيد الخنازير البرية Jabalies، التي يوجد منها الكثير على بعض الجبال العالية إلى الغرب من القلعة.

أرونا كذلك قرونا كبيرة لعنز برى يسمى بالعامية Steinbock، التي صيدت من هذا الجبل. وشاهدنا نوافذ السور التي كانت كلها مزدانة بجلود لخنازير برية ضخمة. وبعد أن تناولنا الغذاء والشراب البارد، رحلنا عبر ريف واسع قاحل، لمسافة أربعة فراسخ حتى وصلنا إلى مدينة وادى آش[٦٧] (Guadix (Gwadüs الشهيرة، في آخر المساء، وعندما رأيناها في الصباح، اكتشفت أنها مدينة جميلة جداً.

مدينة وادى آش في مملكة غرناطة

تقع مدينة وادى آش في سهل جميل، ويوجد هناك القصر الملكى، الذي يقع في مكان متميز، على جبل متصل بالسهل. أعتقد أنها في محيطها تشبه مدينة نورد لنجن Nordlingen في سوابيا Suabia.

بعد طرد المسلمين منها، يسكنها اليوم المسيحيون فقط، فيها ديران جميلان تابعان لنظام رهبنة سان فرانسيسكو، وأديرة أخرى.

مسجدها جميل جداً، سداسي الأضلاع، به سبعون عموداً كاملة، وفي وسطه حديقة جميلة تتوسطها نافورة للوضوء حسب التقاليد الإسلامية. هذا المسجد تحول اليوم إلى كنيسة مكرسة للسيدة مريم العذراء. بها أسقف واثنا عشر كاهناً، يعيشون على الإيرادات التي كانت مخصصة للمسجد من قبل على عهد المسلمين. صعدنا البرج، وشاهدنا من أعلاه موقع المدينة، التي لاحظنا أنها تقع في سهل واسع وجميل، وخصب بفضل النهيرات التي تروى هذه الأراضى الخصبة. ولأن مدينة وادى آش تقع في أراضٍ شديدة الارتفاع، لا توجد بها فواكه المناطق الساحلية، مثل أشجار الليمون، والبرتقال والزيتون. لكن تنمو بها أشجار ضخمة مثل شجر الجوز، واللوز، والتين، والتفاح، والكمثرى... الخ، كما هو الحال في إيطاليا في ضواحى بادوا Padua. لاحظنا أنها محاطة بالجبال من كل مكان، وتحدق بها من ناحية الجنوب الغربى جبال شاهقة، تتكون عليها الثلوج في هذه الأيام. ومع ذلك ، فإن الوادى كان لطيف الحرارة. أعجبنا جداً بالمكان، الذي كان مزدحماً بالسكان. القرى التي نسميها الآن Villas، بصفة عامة كان يسكنها المسلمون الذين كانوا يعيشون على القليل من الطعام، ولا يشربون إلا الماء، ينكبون بصفة عامة على زراعة الأراضى والحقول(٦٨). وكل المسلمين يدفعون الضريبة إلى سادتهم الذين كانوا ثلاثة من المسيحين العادلين الصادقين المهذبين، كما سبق أن ذكرت ذلك عند الحديث عن عاداتهم.

في الحادى والعشرين من أكتوبر، غادرنا وادى آش عبر طرق وعرة وجبلية، وبعد حوالى ميل مررنا ببعض الحمامات التي تتوفر بها المياه الصحية الصافية. دخلت سرداباً فرأيت كثيراً من الناس يستحمون فيها، تذوقت المياه فوجدتها حلوة، أعجبنى المكان، الذي أقيم بدقة فائقة، لأن المسلمين كان يهتمون بالحمامات اهتماماً غير عادى[٦٩]. بدأنا السير من جديد، وبعد ثلاثة فراسخ وصلنا إلى قلعة Lapesa (La Pessa) التي تقع على جبل شاهق، حيث استرحنا هناك تلك الليلة. كل من كان في القلعة مسلمون، ماعدا مضيفنا حاكم القلعة الذي استضافنا على سفح الجبل. في الصباح التالى قطعنا ستة فراسخ أخرى، تارة عبر الوديان وتارة عبر الجبال، حتى وصلنا في النهاية إلى مدينة غرناطة، أكبر مدن المملكة.

غرنـــاطة

المدينـة والمسجد الأعظـم

في الثانى والعشرين من اكتوبر، بعد الظهر، دخلنا مدينة غرناطة الرائعة، المزدحمة بالسكان، مررنا بشارع طويل جداً، بين أعداد لا تحصى من المسلمين، واستقبلنا أخيراً في مبنى جميل، ولكن بعد ذلك خرجنا، راغبين في زيارة مسجد غرناطة الأعظم[٧٠]، وللدخول كان علينا أن نخلع أحذيتنا، إذ في هذا الوقت سقطت الأمطار، وكانت الشوارع مغطاة بالوحل.

كانت كل أرضيات المسجد مغطاة بحصائر لطيفة من الأسل الأبيض، عرض المسجد ست وسبعون خطوة وطوله مائة وثلاث عشرة، في وسطه فناء به نافورة للوضوء،

وتسعة أروقة، في كل رواق يوجد ثلاثة عشر عموداً ضخماً، وأربعة عشر عقداً، بالاضافة إلى الأعمدة الجانبية، توجد حدائق وقصور. رأينا أيضاً مصابيح كثيرة مضاءة، ورجال الدين يرتلون صلواتهم، التي كانت تبدو وكأنها نعيباً حزيناً. تكلف هذا المسجد نفقات غير عادية. توجد في المدينة مساجد أخرى أصغر، تزيد على مائتين. في أحدها، رأيتهم يؤدون شعائر الصلاة، يركعون ويكررون الركوع حسبما كان يفعل الإمام، يسجدون في الأرض، ويضمون أيديهم إلي صدورهم، ويضرعون إلى الله، حسب طقوسهم، يطلبون المغفرة من خطاياهم، رأينا أيضاً شمعداناً هائلاً، يوقدون فيه في أعيادهم أكثر من مائة شمعة، فإنهم يعبدون الله بصفة أساسية في الضوء، ويعتقدون – كما هى الحقيقة – أن النور من النور، وأن الكل من خلق الله. في هذه الليلة قبل الصباح كان هناك مثل هذا الآذان في أبراج المسجد الذي لا يمكن تخيله، لا توجد في مساجدهم آية صور أو تماثيل، التي تحرمها شريعة محمد، كما حرمتها الشريعة الموسوية. نحن نبيح الصور والرسوم، لأنها تكون مثل الكتابات الدينية.

خارج هذا المسجد يوجد بناء، في وسطه حوض طويل جداً من الرخام، طوله عشرون خطوة، يغتسل فيه المسلمون قبل دخول المسجد. حول البناء توجد مبان صغيرة مزودة بأنابيب لصرف المياه، كانت لها فتحة على سطح الأرض في طول ذراع وعرض شبر. يمضى الماء الجارى تحتها. يوجد كذلك حوض صغير للتبول. كل هذا شيد بعناية ودقة، مما يثير الإعجاب، يوجد أيضاً بئر جميل لماء الشرب.

قصــر الحمــراء

في الثالث والعشرين من أكتوبر، خرجنا في الصباح من باب إلبيرة Elvira، حيث ينطلق الطريق إلى قرطبة، ومضينا إلى طريق مقبرة المسلمين، التي أعتقد في الحقيقة أنها أكبر مرتين من كل نورمبرج، مما أدهشنى كثيراً. أخبرنى دون خوان دى سبيرا Don Juan de Spira وهو رجل صادق، أن كل مسلم يدفن في مقبرة خاصة وجديدة. مقابرهم صغيرة إلى حد ما، على قدر الجسد فقط، يشيدون القبر بأربعة ألواح من الحجر، ويغطونها بالأجر، لكى لا تلتصق الأرض بالجثة، ثم يغطون القبر بعد ذلك.

وصلنا إلى دير جديد على نظام رهبنة سان خيرونيمو، يقع في خارج الأسوار، شيدوه منذ عامين في مسجد قديم شهير.

بعد تناول الغذاء، صعدنا من جديد إلى الحمراء، على جبل شاهق، على سفحه رأينا مقبرة أخرى كبيرة، أكبر ست مرات من ميدان نورمبرج، صعدنا لمسافة طيبة، دخلنا إلى مكان كان سجناً للأسرى المسيحيين. كان واسعاً جداً، يحيط به سور، يشبه سور كنيسة سان لورنزو في المدينة الألمانية السابق ذكرها، حيث يوجد أربعة عشر كهفاً سحيقاً، ضيقة جداً من الجزء الأعلى، لها فتحة واحدة، ومحفورة في الصخرة نفسها. في كل واحد منها يوضع مائة أو مائتا أسير. كل من مات في السجن، تعرض للتعذيب، ودفن في الأرض نفسها. في أحدى المرات كان يوجد سبعة آلاف من الأسرى المسيحيين، وزعوهم بين هذا السجن ومنازل المسلمين في المدينة، هلك كثير منهم أثناء الحصار، وعند سقوط غرناطة،

كان القليل منهم على قيد الحياة، بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة فقط، سُلموا للملك المنتصر عندما دخل غرناطة. ياله من منظر مرعب بالنسبة لنا مشاهدة مقبرة المسيحيين الذين كانوا في وقت الحرب يجبرون على أكل لحم الخيل والحمير والبغال الميتة.

كان بين الأسرى الذين تم تحريرهم قسيس، حكي لنا كثيراً عن الرعب، وكيف نجا بحياته، جعله الملك كاهناً، كان رجلاً طيباً ورعاً.

Tafel LXXXII



Lámina IV: Mujer morisca barriendo su casa, según Weiditz (Foto Manuel CASAMAR)

امرأة موريسكية تقوم بكنس منزلها عن فيدتز

يدلف إلى داخل القلعة عبر أبواب حديدية كبيرة، وجنود كثيرين، ومساكن للضباط. وصلنا في النهاية إلى القصر، شامخاً وفخماً، خاصاً بالسيد حاكم القلعة واسمه اينيجو لوبث Iñigo Lopez من بيت مندوثا القشتالى Mendoza، كونت Tendilla، وحاكم قلعة غرناطة، الذي عندما قرأ خطاب توصية حاكم قلعة المرية، اختصنا بحفاوة كبيرة. ألقيت أولاً خطبة قصيرة باللاتينية، التي أصغي إليها باهتمام، فإنه رجل حكيم جداً، ورد عليها دون تردد. أجلسنا على نسيج من الحرير، وأمر بأن يحضروا لنا حلوى وأشياء أخرى. تناولنا وجبة خفيفة، ثم صحبنا بنفسه إلى القصر الملكى في موكب من الجنود. رأينا هناك قصوراً لا تعد، أرضها مغطاة بالرخام الناصع البياض، وحدائق غناء تزينها أشجار الليمون والرياحين، وحوض ماء، وأسرة من الرخام على الجوانب، وأربع عشرة غرفة مليئة بالسلاح، مثل الرماح، والأقواس، والسيوف، والدروع والسهام. غرف نوم فاخرة وحجرات، في كل قصر، أحواض كثيرة من الرخام الناصع البياض، الكثير منها كان أكبر من التي توجد على مقربة من سان اوجستين، تفيض بالمياه، غرفة حمام مقببة فخمة جداً - أوه لا يوجد أجمل منها، في وسط أحد الأبهاء حوض كبير من الرخام، يستند على ثلاثة عشر أسداً منحوتة أيضاً من رخام ناصع البياض، تمج المياه من أفواهها عن طريق الأنابيب. توجد لوحات كثيرة من الرخام طولها خمسة عشر قدماً وعرضها سبع أو ثمان، وأخرى مربعة، من عشرة أو أحد عشر قدماً. لا أعتقد أنه يوجد شئ مثل ذلك في كل أوربا. كل شئ كان شامخاً، رائعاً، مشيداً بذوق رفيع، من مواد مختلفة، التي تجعل منها جنة. ليس من السهولة بمكان أن أصف كل شئ بدقة وتفصيل. كان الكونت دائماً يقدم لنا بنفسه شروحاً عن كل شئ.

. في الحمام يوجد حوض من الرخام، كانت النساء والمحظيات يغتسلن فيه عرايا. والملك يشاهدهن من شرفة ذات مشربيات تقع في الجزء الأعلى، وكان يلقى بتفاحة إلى التي تروقه، إشارة منه إلى أنه سوف يقضى الليلة معها.

سألت حاكم القلعة حول شعار الملك المسلم، الذي كان عبارة عن رمانة، وإذا ما كان مرسوم في بعض الأماكن هناك. أجابنى أنه ليس لديه أى شعار، ماعدا خوذة على شكل رمانة، مكتوب في وسطها بحروف عربية: "لا غالب إلا الله" هذا الشعار ملون باللون الأزرق السماوى، في أماكن مختلفة بالقصر.

توجد في القصور الجميلة، أنابيب للمياه، تتوزع بطريقة فنية على كل المواقع، حيث تمضى المياه عن طريق مجرى يأتى من أعلى الجبل، وتتوزع على كل القلعة.

الكونت، فارس شريف، عند النزول من القصر، ذهب بنا إلى حوض جديد ومربع، كبير مثل حوض كنيسة سان سيبالدو في نورمبرج، الذي أسس حديثاً في هذا العام، بتكلفة مقدارها عشرة آلاف دوقة. أسقف القاعات والغرف، في الجزء العلوى، كانت مصنوعة من الذهب، واللازورد، والعاج، والسرو بأشكال مختلفة، لدرجة أنني أعجز عن الكتابة عنها أو وصفها.

يوجد في الحمراء خمسمائة فارس، يسمون زناتة Jinetes، يمتطون خيولاً أصيلة[٧١]، وينتمون إلى نظام الكونت ويقدمون له الطاعة.

صعدنا إلى برجين شاهقين حيث تأملنا موقع المدينة، لكننا، على حسب ما قال لنا الكونت، تمكنا فقط من أن نشاهد أقل من نصفها. أعتقد أنه لا يوجد في كل أوربا ولا في إفريقيا مدينة أكبر من غرناطة. رأينا في الجزء الأسفل من الحمراء، باتجاه الجنوب، قلعة أخرى، حصينة جداً، لكنها لم تكن قد اكتملت بعد. وأخرى باتجاه الباب الجنوبى، التي يبدأ عندها طريق يمضى بين سورين، وبهذا فإن الملك غير المحبوب من المسلمين، عندما كان يضطر إلى المرور في شوارع المدينة التي كانوا فيها ، كان يمكنه الخروج من الحمراء والعودة اليها[٧٢].

كان عدد المسلمين الذين كانوا يقومون بتشييد المنازل هناك كثيراً، وأيضاً الذين كانوا يعملون في إصلاح ماتهدم من القلعة او الممتلكات الملكية الأخرى. فإن ملك غرناطة بعد أن تأكد أنه لا يمكنه مقاومة ملك إسبانيا المسيحى، سمح لهم بهدم الكثير من المبانى.

توجد في الحمراء مطاعم كثيرة وبيوت لسكنى رماة المنجنيق وللجنود الآخرين. ولا يسمح لأى مسلم بالمبيت في الحمراء، ولكن يجب عليهم أن ينزلوا إلى المدينة أو أى مكان آخر لقضاء الليل.

غادرنا الحمراء بعد غروب الشمس، ووصلنا إلى محل إقامتنا في وقت متقدم من الليل، حيث التقينا بجندى ممتط بغلة، تحمل قرطماً، ونبيذاً، وخبزاً، ودجاجاً، وطيور الحجل. كل هذا كان هدية مرسلة إلينا من الكونت الكريم. لم نستطع أن نرد بالمثل على هذا الكرم، ولكننا امتدحناه أمام ملكنا

وأمرائنا. وعندما ودعنا الكونت، طلبنا منه توصية جديدة لحاكم مالقة واشبيلية، والتي كان لها وقع طيب جداً.

يوجد في الحمراء أيضاً مسجد عظيم – كرس الآن للسيدة مريم العذراء ومقراً لرئيس الأساقفة – الذي لديه أربعون كاهناً، ومائة وأربعون نائباً رسولياً. كذلك أقيم هناك دير للرهبان على نظام سان فرانسيسكو. وخارج أسوار الحمراء على قمة الجبل يمتلك الملك بستاناً فاخراً وشهيراً حقاً، به نافورات وأحواض، وجداول جميلة، من إنشاء المسلمين، ولا يوجد أجمل منها(٧٣).

في السادس والعشرين من أكتوبر، عندما كنا هناك، رأينا مسلمين كثيرين يزينون ويرممون الصور والأشياء الأخرى بما يتفق مع أسلوبهم. تمتعنا هناك بمنظر رائع. صعدت على جبل آخر أكثر ارتفاعاً، وتأملت موقع المكان، رأيت سهلاً جميلاً جداً وثلاثة أبراج كبيرة من الداخل، لكن نصفها مهدم من الخارج، حيث كان ملوك غرناطة يقضون أوقات فراغهم.

المقبــرة الإسلامية خارج بــاب إلبيرة

في الرابع والعشرين من أكتوبر، خرجنا في الصباح من باب إلبيرة، القريب من محل إقامتنا، توجهنا إلى مقبرة المسلمين وتجولنا فيها. كانت كبيرة وموزعة في عدة أماكن، مما يثير الدهشة. جزؤها القديم كان مغروساً بالزيتون، بينما الأجزاء الأخرى ليست بها أشجار. مقابر الأثرياء كانت مربعة وعلى طريقة الحدائق كانت محاطة بسور من الأحجار الفخمة. توجهنا أيضاً إلى المقبرة الجديدة، حيث شاهدنا جنازة رجل مسلم، بالقرب من المقبرة كانت هناك سبع نساء يرتدين

ملابس بيضاء، يجلسن بجانب القبر، ورجل الدين يتجه برأسه نحو الجنوب، جالساً أيضاً ، وكان ينشد باستمرار بصوت عال، بينما كانت النساء ينثرن بلا انقطاع زهورا طيبة الرائحة ورياحين على القبر.

هذه المقبرة أكبر مرتين من مقبرة نورمبرج. خطوة إلى أعلى توجد المقابر الأخرى، كانت تقع عند سفح الحمراء – التي كانت أيضاً واسعة جداً – أعتقد أنها أكبر من مدينة نوردلنجن Nördlingen . المسلمون بالطريقة نفسها يتجهون إلى الجنوب في عبادتهم لله . ويدفنون موتاهم ويوجهون رأس الميت نحو الاتجاه نفسه .

في أعلى الجبل ، نحو الشمال ، أمام الحمراء ، توجد مدينة أخرى متصلة بغرناطة الكبرى ، ولكن يفصلها عنها سور–تسمى البياسين– التي كان يقطنها الملك الصغير Chico (Junior Rex)وهى تواجه المقبرة التي تحدثنا عنها من قبل.

في هذا اليوم ، وبينما نصعد إلى مدينة البياسين ، كانت هناك فرصة لرؤية تلك المقبرة . كانت تشغل جزءاً كبيراً من سفح الجبل أعلى المدينة ، وواسعة مثل مدينة أولم Ulm ، وفي الجزء الأعلى من المقبرة ، يوجد برج شاهق ، توجد فيه مدافن ملوك غرناطة .

مسجد البياسين – صلاة الجمعة في المسجد الأعظم

خارج أسوار غرناطة الكبرى، ولكن ليس بعيداً عنها، توجد مدينة أخرى كبيرة، تسمى البياسين، بها أكثر من اربعة عشر ألف بيت، ولا يمكن مشاهدتها من الحمراء. في هذه

المدينة التي هي جزء من غرناطة، يوجد مسجد جميل، به ستة وثمانون عموداً، مساحته أصغر من مسجد غرناطة الأعظم، ولكنه أكثر منه جمالاً. به حدائق جميلة غنية بالزيتون. وعندما نزلت باتجاه المدينة، وعلى قمة الجبل أمام الحمراء، رأينا على بعد خطوة، مسجداً آخر، جميلاً، ولكنه ليس كبيراً، استولى عليه الأسقف من المسلمين بأمر الملك وحوله إلى كنيسة مكرسة لسان خوسيه، ومريم العذراء، ووقفه على الإكليروس. رأينا في حديقته شجرة زيتون هائلة، أكبر من شجرة البلوط، محملة بالزيتون. صعدنا إلى المئذنة، ومن هناك أحصيت عدداً من المساجد، وكان من الصعب علينا تصديق هذا العدد.

في هذا اليوم ، اقتربنا من المسجد الأعظم، في وقت الظهر، ولأنه كان يوم جمعة، وهو عيد عند المسلمين، رأيت كثيراً من المؤذنين يعلنون الصلاة من على المآذن. وسارع عدد كبير من المسلمين بالحضور، وعندما امتلأ المسجد بهم اضطر كثير منهم إلى البقاء في الخارج. أعتقد أنه كان يوجد أكثر من ألفين أو ثلاثة آلاف رجل. ونحن واقفون بجانب الباب، نتابع شعائرهم. رأينا إمامهم الأعظم يجلس على مقعد عال، يلقي خطبة دينية لمدة نصف ساعة تقريباً. بعد ذلك، وبإشارة منه لرجال الدين الآخرين وهم وقوف، كانوا يحنون رؤوسهم، ويسجدون على الأرض، كما يفعل رهباننا في الاجتماعات، مالوا نحو الأرض، ومن جديد وبإشارة أخرى إنطلقوا في صلاتهم، قاموا وواصلوا الصلاة في ورع عظيم. كانوا حفاة الأقدام. وهكذا قاموا وسجدوا على الأرض ثلاث مرات، وأخيراً وقفوا وأنهوا الصلاة، ثم مضى كل واحد منهم إلى عمله.

عند الباب يوجد كثير من المسلمين يطلبون الإحسان، الذين كانوا أسرى للمسيحيين والآن أطلق سراحهم. وفي هذه اللحظة وصلت جنازة أحد المسلمين، فقام الإمام بالصلاة أمام الجثمان صلاة طويلة، وفي النهاية حملوا المتوفي ليودعوه ضريحاً خارج أسوار المدينة.

في هذا اليوم، ولأنه كان يوم جمعة، كانت المساجد الأخرى كذلك مليئة بالمصلين المسلمين كما هو الحال هنا. المساجد في غرناطة وفي البلاد الأخرى، كانت مثل الأبرشيات في بلادنا.

موقع مدينة غرناطة

عند وصف مدينة غرناطة، أكبر مدن هذه المملكة، يمكن تسميتها مملكة أكثر من تسميتها مدينة. تقع إلى الشرق منها مجموعة من الجبال الشاهقة، بعضها يرتفع إلى عنان السماء. أعتقد أنها أكثر ارتفاعاً من جبال الألب في إيطاليا. لذا فإن الإقليم ولو أنه حار بما يتفق مع المناخ الجنوبي، مع ذلك، فإن الثلوج لا تختفي من فوق قمم الجبال الشاهقة طوال فصل الصيف. في الجنوب والشمال والغرب يمتد سهل واسع جميل، محاط في معظمه بالتلال. هذا السهل الواسع يروى في كل جهاته، وأرضه خصبة، تنتج محصولين في العام. بخلاف المنتجات الأخرى مثل الجزر، واللفت، والدخن، والعدس، والذرة، والفول، والبقول... الخ في كميات طيبة. ولما كانت لا تثلج في هذا السهل، فإنه ينتج بوفرة أنواعاً مختلفة من الأشجار وخاصة الزيتون، والسفرجل، والتين، واللوز، والرمان، والبرتقال، والليمون... الخ. توجد به الفاكهة تقريباً طوال العام. ففي أبريل يجمعون الكرز ، الحرشف، الذي

يسمونه الخرشوف - وفاكهة أخرى. في مايو يجمعون أنواعاً مختلفة من التفاح والكمثرى. في يونيو يجمعون العنب من أنواع مختلفة الذي يستمر حتى نوفمبر. في أواخر أكتوبر عندما كنا هناك، رأينا في أشجار الكرم عناقيد كثيرة.

في الأماكن التي تستقبل حرارة الشمس جيداً، تنضج فاكهتها سريعاً. أما في الوديان وفي الجبال، والأرض الظليلة الباردة نوعاً ما، التي تتوفر فيها مياه الرى، فإنها تنتج الفاكهة، وان كانت تنضج متأخرة قليلاً.

على سفوح الجبال، في سهل جيد، وعلى بعد ميل تقريباً، توجد بساتين لا نهاية لها، وقرى تروى بواسطة قنوات المياه. وهذه البساتين تمتلئ بالبيوت والأبراج، التي تسكن خلال الصيف، مكونة مدينة عجيبة أهلة بالسكان. وبصفة أساسية إلى الشمال الشرقى، وعلى امتداد فرسخ، أو أكثر، تأملت هذه البساتين التي لا يوجد أكثر منها جمالاً. كان المسلمون عاشقين جداً للبساتين، كما كانوا ماهرين في زراعتها وريها، حتى إنه لا يوجد أفضل منها. إلى جانب ذلك كان المسلمون يقنعون بالقليل ويعيشون بصورة كبيرة على الفاكهة التي ينتجرنها، ولا تختفي طوال العام، وتمثل قوتهم الرئيسى. لا يشربون الخمر. لكن على العكس، يعدون كميات كبيرة من زبيب العنب. حتى مطاياهم مثل الخيل، والحمير تجد المراعى بسهولة في كل مكان.

توجد في غرناطة كذلك جبال شاهقة، وسهول، ووديان، ولكن بسبب ندرة المياه لا يمكنهم زراعتها أو سكناها. لديهم كذلك قطعان لا تحصى من الماعز، والنعاج، والثيران الضخمة. على الجبال توجد أيائل، ودببة، وأيائل سمراء،

وأرانب وخنازير جبلية. لحم الأيائل له سوق رائجة، حيث تباع لحومها رخيصة الثمن جداً. تثير الدهشة أعداد طيور الحجل، التي كانت كبيرة الحجم، ولها مناقير وأرجل حمراء. عندما ركبنا عبر الجبال من بيرة إلى المرية، لمدة ساعة تقريباً، أثار دهشتنا أربعة أو خمسة أسراب من طائر الحجل. في بيرة اشترينا نبيذاً بخمسة دنانير[٧٤]. وهى تساوى خمسمائة فلورين Florín Rhinese، لكن في غرناطة كان يمكن شراء أربعين منها بدوقة، نظراً لرخص الطعام بها.

لديهم كذلك النخل البرى، الذي تكون جذوره لينة، في أكتوبر، يقشرونه ويستخرجون من عصيره شراباً لذيذاً.

ينحدر من الجبال الشاهقة، واديان، في وسطهما يوجد جبل الحمراء، لكنهما ليسا الوحيدين إذ إن هناك نهرين غنيين بالمياه، وأنهاراً أخرى أصغر بعض الشئ في وديان أخرى، تُروى منها كل غرناطة بواسطة مجارى مائية أعدت بإتقان. القسم الأكبر من فحصها Vega تتوافر به مياه الرى بدرجة كبيرة. أخيراً وعلى بعد ثمانية فراسخ، يجتمع هذان النهران في نهر واحد يجرى ليصب في الوادى الكبير بالقرب من لوشة Loja التي تقع على حدود غرناطة مع مقاطعة قشتالة من جهة الغرب، التي تسمى اندالوثيا Andalucia، ويجرى ليصب في الوادى الكبير[٧٥]. أوه، يالها من أراض خصبة وغنية بكل أنواع الفاكهة التي تجعل الحياة سهلة وميسرة! هذه الفحص يمتلئ أيضاً بالقرى التي يختص المسلمون بزراعتها.

عظمة غرناطة

بمدينة غرناطة سبعة تلال، وتتشابه جبالها ووديانها في أنها كلها ماهولة بالسكان. الجزء الأكبر من المدينة يقع أمام الحمراء. إلى الجنوب منها في سفح الجبل تقع مدينة أخرى تسمى أنتقيرة Antequeruela، التي أسسها منذ ثمانين علماء الفارون من مدينة أنتقيرة Antequera ولجأوا إلى غرناطة، بعد أن استولى المسيحيون على هذه المدينة الإسلامية(٧٦). بجوار السهل ترتفع جبال كثيرة. تقع مدينة البياسين في جهة الشمال، خارج الأسوار القديمة لمدينة غرناطة. بها شوارع ضيقة، حتى أن بيوتها في معظمها تتلامس من أعلاها، وعموما فإنه لا يمكن أن يمر حماران يكونان في اتجاهين متضادين في الشوارع الأكثر شهرة، والتي ربما يكون عرضها أربعة أو خمسة أذرع.

بيوت المسلمين في معظمها صغيرة، غرفها قليلة، غير نظيفة من الخارج، شديدة النظافة في الداخل. كلها تقريباً مزودة بأنابيب للمياه وأحواض. وكان من المعتاد أن تكون الأنابيب والمجارى المائية اثنتان، واحدة للمياه الصالحة للشرب، والأخرى للصرف الصحي والفضلات... الخ. وكان المسلمون يهتمون كثيراً بهذه الأمور، وكانت تنتشر في كل الشوارع قنوات لصرف المياه غير النظيفة. وكانت البيوت التي ليس بها أنابيب، بسبب ضيق المكان، تلقى بفضلاتها خلال الليل في هذه القنوات. وعلى الرغم من أن قنوات الصرف الصحى ليست كثيرة، فإن الرجال كانوا في غاية النظافة.

في بلاد المسيحيين كان المنزل يشغل مساحة أكثر اتساعاً من المساحة التي تشغلها أربعة أو خمسة بيوت لدى المسلمين. في الداخل كانت البيوت متشابكة ومضطربة، حتى تبدو وكأنها أعشاش خطاطيف. ومن هنا قيل أن في غرناطة أكثر من مائة ألف بيت.

كانت المحلات والبيوت تغلق بأبواب بسيطة من الخشب، ومسامير، وعصى، كما هى العادة في مصر والمغرب، لأن كل المسلمين يتفقون في العادات، مثلما يتفقون في الدين، والأدوات، والمساكن وبقية الأشياء.

أمر الملك فرناندو بتوسعة شوارع كثيرة جداً، وإقامة أسواق لذلك هدم بعض البيوت. كما أمر بهدم حى اليهود، حيث كان يقطن حوالى عشرين ألف يهودى، وأسس مستشفي كبيراً على نفقتهم، وكاتدرائية مكرسة للسيدة مريم العذراء، التي رأيناها وقد شارفت تقريباً على انتهاء البناء حتى السقف، والتي سوف تكون مقراً أسقفياً[٧٧].

أوه، يالها من مبانٍ عظيمة ومتنوعة، أمر الملك بالتوسع في انشائها!

كان النبلاء والأثرياء المسلمون يتملكون في غرناطة بيوتاً فخمة، لها أفنية وحدائق ومياه جارية ووسائل راحة أخرى. ارسل الملك أكثر من مائة ناقوس على نفقته، رأينا بعضها في حديقة دير سان خيرونيمو وقد وزعت على كل كنائس غرناطة. أوه ياله من ملك مدهش ومهتم بكل المسيحيين!

كانت مدينة غرناطة مكتظة بالسكان، فإنه في وقت الحصار، فر إليها سكان المدن الأخرى المجاورة التي استولى عليها المسيحيون، ولذلك احتشد في المدينة أكثر من مائتى ألف رجل مسلح من أهل المدينة والفارين إليها من المدن الأخرى. ولإحساسهم المستمر بالخوف، فإنهم لم يحاولوا أن يقوموا ضد الملك. سيدهشك الطعام الذي يتناولونه. الفاكهة متوفرة طوال العام، يعيش عليها هذا الشعب قانعاً، لا يشربون الخمر. يصنعون الخبز من أنــواع مختلفة من الحبوب مثل القمح، الدخن، الذرة... الخ.

بعد الاستيلاء على غرناطة، وخضوعها للمسيحيين، أكثر من أربعين ألف رجل من المسلمين عبروا إلي المغرب مع ملكيهم[٧٨]. وهلك أيضاً كثيراً منهم من الجوع في فترة الحصار، واضطر آخرون إلى الفرار. ومع ذلك بقى عدد كبير من المسلمين في المدينة، وبعد مرور أربعة اشهر منذ ذلك، في شهر يونيو تآمر سراً أربعون ألفاً أرادوا قتل المسيحيين عن آخرهم، واكتشفت هذه المؤامرة بسبب وشاية أحد المسلمين. واكتشفوا في بيت أحد المسلمين أسلحة تكفي لأربعمائة رجل. اكتشفت هذه المؤامرة وكان قد سمح للمسامين بأن يحيوا حياة حرة ويمارسوا شعائرهم لمدة ثلاث سنوات، فإن هذه المدة انتهت في يناير. وشيئاً فشيئاً تم القضاء على مقاومة المسلمين، حتى تخلصوا منهم جميعاً، وسُكنت المدن الكبرى والضواحى بالمسيحيين[٧٩].

موقـــع مدينة غرناطـــة

تشكل مملكة غرناطة، جزءاً من الإقليم الذي كان قديماً يسمى Hispania Betica (نسبة إلى نهر الوادى الكبير) ، تمتد

على هيئة نصف دائرة قطرها يحدها جنوباً البحر. وتحيط بها من كل الجهات الجبال الشاهقة، وأرضها جبلية بصفة عامة. عرضها من الشمال إلى الجنوب ثلاث مراحل، وطولها سبعة أو ثمانية. أشهر المدن البحرية بها حسب أهميتها: المرية[٨٠] التي كتبت عنها من قبل، المنكب[٨١] Almunecar، التي اشتهرت بإنتاجها من السكر، حيث ينمو بها قصب السكر، الذي يبلغ أحياناً ستة أو سبعة مرافق في الطول، وفي سمك معصم اليد. بلش مالقة[٨٢]، مدينة ثرية، بها قلعة حصينة ، مالقة[٨٣] ، ميناء شهير على البحر.

أما المدن الداخلية الأكثر شهرة فهى بسطة[٨٤] Baza، ووادى آش، وغرناطة، و لوشة[٨٥]، و الحامة[٨٦]، و رندة[٨٧]، و مربلة[٨٨].

وفي مملكة غرناطة عدد لا يحصى من القلاع والوديان. ولا توجد زراعة إلا حيث تتوفر مياه الرى. وأعتقد أن مدينة غرناطة تقع في الجزء الأكثر ارتفاعاً في المملكة، وفي ذلك الوقت الذي كنا فيه هناك لم نر ثلجاً على أى جزء من السلاسل الجبلية، ماعدا الجزء المسمى سييرا La Sierra، المطل على مدينة غرناطة.

توجد هناك أيضاً، أنهار مياهها صحية وعذبة، بها أسماك من بينها أنواع تحتاج إلى المياه الباردة.

مدن المملكة تقع عموماً على الجبال ومنحدراتها، محصنة بأبراجها، ودفاعاتها، وحصونها المحكمة بشرفاتها، وخنادقها. إنها مملكة غنية جداً. تنتج أحسن الحرير في العالم. كذلك يوجد بها كثير من الزعفران، وخاصة في الأراضى

المنخفضة. التين له مذاق حلو مثل قصب السكر، وإن لم يكن حجمه كبيراً. تنتج كذلك الزيت، اللوز، الحلفاء، قرمز الصباغة، الذي يباع الرطلان منه بدوقة ونصف. وكثيراً من الفاكهة الأخرى.

كل الأنهار تنبع من ينابيع ماؤها عذب. وفي الصيف لا تنقص مياهها بسبب ذوبان الثلج. ولا يوجد في أى إقليم في إسبانيا مثل هذه الأمطار الغزيرة بسبب ارتفاع الجبال، والأبخرة المتصاعدة - كما يحدث في متز و سالزبوج Saltzburgo و Matz.

غـــزو مـــلكة غرنـــاطة

عندما ورث الملك دون فرناندو الشجاع والمنتصر وزوجته التقية الورعة دونيا إيسابيل عرش أسلافهم، كانت هناك خلافات كبيرة بين النبلاء، والمدن، والأساقفة. ومثل ذلك مع اليهود والمرتدين الذين ظلموا الناس. وخلال سنوات عديدة لم ينتبه الملك إلى الأمور التي من شأنها تهدئة النزاع، مما يخلق حالة من الهدوء في المملكة. كان اللصوص والقتلة كثيرين. ووصولاً إلى هذا الهدف امتلأ الملك حماسة لإخراج المسلمين من غرناطة - جنة إسبانيا.

كانت غرناطة سجناً فظيعاً للمسيحيين، وكان هناك خمسة عشر أو عشرون ألفاً منهم، قاسوا مرارة الأسر، يزحفون مصفدين في الأغلال، ويجبرون كالبهائم على حرث الأرض، ويكرهون على ممارسة الأعمال الحقيرة. إلى جانب ذلك فإن بعضهم كانوا يخشون أن يعاقبهم الملك على جرائمهم، ففروا إلى غرناطة، بحثاً عن ملاذ أمن. وهناك تعرضوا لدسائس لا

نهاية لها. الملك خيب أمالهم. ملكة وماركيز قادس Cadiz، كانا الوحيدين الخبيرين في التخطيط، بحيث لا يستطيع أى خائن أن يعوقهما، كان لديهما استعداد لتدبير أكثر من ثلاثين ألف حمار وبغلة، لنقل كل أنواع الإمدادات، وعربات الثيران التي تحمل ذخائر الحرب.

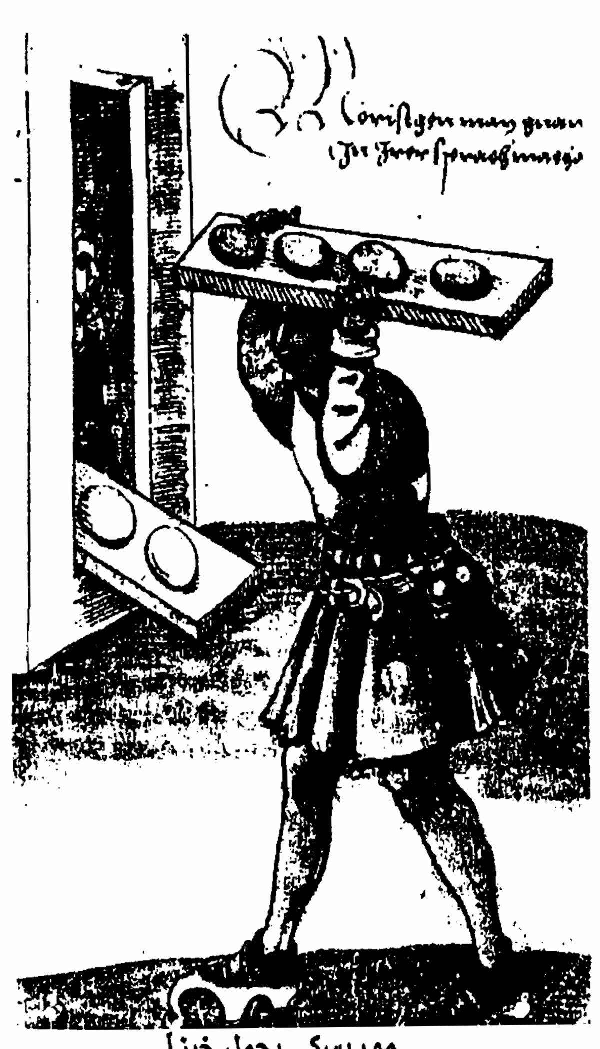
لكن الله الرحيم، ألهم دون فرناندو، القوة والفطنة والبصيرة، والذراع القوية. فتمكن في خلال عشرة أعوام من إخضاع كل غرناطة، قسم منها بالقوة، والقسم الأخر بالاستسلام وقسم بالاتفاقيات، وقسم بالذهب والفضة التي رشا بها كثيراً من حكام القلاع المسلمين، بطريقة جعلتهم يسلمونها إليه، ويفروا إلى المغرب. وبدأوا في قطع الإمدادات عنهم، فماتوا في الطريق نتيجة للجوع الشديد.

ملك غرناطة الذي كان مقتنعاً، أن ملك قشتالة قد أعد العدة للاستيلاء على كل مملكة غرناطة. استدعى ملك قشتالة إليه النبلاء والأمراء، ووضع على الأرض بساطاً، ووضع في وسطه صنية من الفضة قد ملئت ذهباً، قائلاً "من يتمكن من الوصول إلى الصنية دون أن يطأ البساط، أعطيته ما تحويه من ذهب، ولما لم يتمكن أحد من أن يفعل ما عرضه الملك بدأ الملك في طى البساط قليلاً قليلاً، ودفع بالصنية خارج البساط، وأخذ الذهب. وقال: "المدن القريبة والضواحى تكون البساط، وغرناطة هى الصنية التي يوجد بها الذهب. ومضى ملك قشتالة في الاستيلاء على تلك المدن، وأخيراً سقطت غرناطة بين يديه.

الاستيلاء على المملكة بالكامل، جاء في شرح خاص، ولهذا، ونظراً للايجاز، سوف لا أكتب عنها أكثر من ذلك.

ملك إسبانيا قبل أن يدخل غرناطة منتصرا، أمر بأن يعمل له باب خاص، وطريق خلف قلعة الحمراء، ينقل عبره خيول الحرب. المنظر الأول الذي عرض، كان كل المسيحيين مصفدين في القيود، وكانوا محبوسين لسنوات طويلة في هذه السجون القاسية، صاحوا "مبارك رب اسرائيل، الذي زارنا من الأعالى، وكان مخلصاً لشعبه". دخل الملك أولاً، في موكب دينى طويل، كان الإكليروس يرتدون ثياب القساوسة المقدسة، والجنود بالأسلحة، حاملين صليباً مرفوعاً، لكى يراه الجميع. وعند مروره اندفع الناس يهتفون، ويسكبون دموع الفرح.

أحد رجال القضاء
لوحة رقم XLI (ورقة ٦٣)



موريسكى يحمل خبزاً

لوحة رقم LXXXIX (ورقة ١٠٤)



أسير مسلم في قشتالة يحمل زقاً مملوءاً بالنبيذ

لوحة رقم XLVII (ورقة ٢٢)

وبينما كانت القلاع والمدن تستسلم، ازدادت حماسة الملك، مشجعاً ومضى قدماً في تنفيذ خطة الاستيلاء على غرناطة. فشيد أولا مدينة صغيرة على بعد ميل من غرناطة، من جهة الغرب، في سهل خصب، محصن بالأسوار الخنادق، والوسائل الدفاعية الأخرى. وأطلق عليها الايمان المقدس (سانتافي Santa Fé). التي ظلت إلى اليوم مأهولة بالسكان. أقسم الملك بتاجه أن لا يخرج من فحص غرناطة حتى يدخل المدينة منتصراً. في ضواحى سانتافي أقام الملك معسكراً لجيشه. ومن هذا المكان منع كل الإمدادات عن المحاصرين في غرناطة. وتابع بالمناجل والسيوف الحصاد عامين متتالين. وعندما أظهر الجنود تقاعساً في تنفيذ هذه الأوامر، ترجل الملك عن حصانه وحصد القمح بيده.

بعد أن اشتد الحصار على غرناطة من شهر مايو حتى أول يناير، أنهكهم الجوع، حتى صاروا يأكلون البغال، والكلاب،والخيل،والفئران والحيوانات الأخرى.أخيرا وفي اليوم السادس من يناير من عام ١٤٩٢م دخل الملك فرناندو منتصرا،وأعلن ملكاً على غرناطة.وعند الفجر قامت جماعة من أكثر من مائتى ألف مسلم بمحاولة لصد الجيش الملكى، الذي لم يكن تعداده عندئذ يتعدى أربعين ألف رجل. لكن أفول القمر غير المتوقع اعتبره المسلمون فألا سيئا،إلى جانب انخفاض روحهم المعنوية، فعادوا القهقرى وانتهى الأمر بالإستسلام(٨٩).

كيف بدأت الحرب ضد غرناطة

إلى الغرب من غرناطة، كان ماركيز قادس Cádz، وهو رجل جسور، تعود على الانتصار، صلب مع الأعداء، وشجاع في الحرب. منذ حوالى خمسة عشر عاماً استولى

المسلمون في ليلة عيد ميلاد السيد المسيح، على إحدى القلاع، وألحقوا بها الكثير من الأضرار. لذا فكر الماركيز في طريقة يستطيع بها أن يحطمهم، لكنه كان في حروب مستمرة مع دوق مدينة سيدونيا Medina Sidonia وكونت لبلة Niebla وقائد اشبيلية[٩٠]، الذي كانت لديه قوات كبيرة، ولما كان الماركيز أكثر منه ذكاء، فقد أعد جيشاً كبيراً قوامه حوالى ثلاثة آلاف رجل، وبناء على نصيحة وارشاد ومشورة مسيحى هارب كان أسيراً في الحمراء لمدة أربع سنوات، قام في المساء، بعد أن لف الصمت كل الحرس، بالهجوم على الحامة، وطرد منها المسلمين، واستولى عليها[٩١].

وعند دخوله سارع دوق مدينة اشبيلية ـ مع أنه كان عدوه، إلى مساعدته بجيش كبير[٩٢]، وعندما التقيا عند أسوار الحامة تبادلا قبلة السلام، وتركا كراهيتهما القديمة. وعند الرحيل قال الماركيز لزوجته: "دوق اشبيلية، عدوى اللدود، هو الذي يستطيع مساعدتى في تحقيق هدفي"، وعندما سمعت زوجته أنه قد استولى على الحامة، وأن المسلمين كانوا محاصرين فيها، استدعت دوق اشبيلية، وقصت عليه كل هذه الأخبار. عندئذ قام الدوق بتوحيد الجيش، وسارع إلى نجدته. كذلك كتب الماركيز إلى ملك البرتغال وملك قشتالة يطلب منهما المساعدة. إلا أن دون فرناندو لم يبد رغبة في المشاركة، فقالت الملكة "لا نسمح أبداً أن يحمل ملك البرتغال هذا الشرف، هذا شأن خاص بنا، لأنه يتفق مع أهدافنا[٩٣]. وقدمت للملك هذه النصيحة، فدخل في أرض غرناطة بجيش ضخم، وقدم المساعدة للماركيز، وقام بتحصين قلعة الحامة. واتفق الجميع على القول بأنه بدونه لم يكن من الممكن القيام بمثل هذه الانتصارات الكبرى. ومع ذلك صمم الماركيز على

تنفيذ كل الخطة بالحماسة نفسها والنشاط الذي يتعامل به مع أموره الخاصة.

لا استطيع أن اكتب بالتفصيل عن كل شئ، بعد الاستيلاء على غرناطة مات هذا الدوق العظيم، الذي ترقد روحه في سلام(٩٤).

رمال الذهب في غرناطة

في الجزء الأكبر من قلعة الحمراء، وتقريبا في كل الأنهار، توجد أراض ورمال ثقيلة، لونها أصفر ضارب إلى الحمرة. وعند غزو غرناطة، جاء إليها بعض المسيحيين من فرنسا، بهدف الاستقرار فيها. أثارت هذه الرمال انتباههم، غسلوها وحصلوا منها على ذهب خالص. كذلك قاموا بغسل الأرض الحمراء، وحصلوا منها أيضاً على الذهب. الملك فرناندو ودون معرفة السبب منع عمليات البحث وغسل الذهب، ورغبة في التأكد من هذا الأمر، سألت الأسقف وكونت Tendilla اللذين أكدا لى أن هذا هو ماحدث حقيقة، وأضافا أن الرجل هناك كان يمكنه اثناء الاستحمام اليومى أن يستخرج كمية من الذهب تزن دوقة. الأرض هنا طينية حمراء قانية مثل لون الآجر.

طقوس وملابس المسلمين

الرجال فقط يذهبون إلى المساجد(٩٥)، يحافظون على شريعة النبى محمد، فالقرآن نفي الثالوث، ولم يعترف بأن يكون الله أبا. مؤكداً أنه لا يوجد ابن بدون التقاء جسدى. يؤكد أيضاً أن المسيح ولد من مريم العذراء كإنسان طاهر، وليس

كإله، وأنه لم يمت، لأنه لصلاحه ليس أهلاً للموت، وأن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه وإنما شبه لهم. رافضاً كذلك كل الأسرار الكنسية، قائلاً إنها شرك وخداع للإكليروس. يقول كذلك إن كل البشر يمكن أن يجدوا الخلاص في شريعته، وأن المسيح في الجنة، وأنه سوف يقضي على المسيخ الدجال.

صرامة تامة مع فروض الزكاة والصوم. من قبل شروق الشمس في الصباح وحتى غروبها في الليل، يوصي بالصلاة التي كان لها احترامها الشديد بين المسلمين. يكنون توقيراً كبيراً لمريم العذراء، والقديسة كاتالينا، وسان خوسيه، وأطلقوا على أبنائهم هذه الأسماء.

أطلعني شيخ على مسبحة مصنوعة من نوى البلح، قائلاً أنها صنعت من النخلة التي أكلت السيدة مريم من بلحها، اثناء رحلتها إلى مصر، التي قبلها قائلاً إن لها فائدة كبرى في حالات الحمل، مقتنعاً أن ذلك كان عملاً مجرباً.

يؤكدون كذلك أن الذين قد حرموا من المتع في هذه الحياة، فإنهم في الحياة الأخرى سوف يكون لديهم الأفضل منها، والذين يكونون في وضع متدنٍ، سوف يكون لديهم ما هو أفضل.

العطلة لديهم يوم الجمعة، بعد أن يؤدوا الصلاة، يعودون لإستئناف أعمالهم، قائلين إن الكسل هو سبب كل الشرور، وأن الله قد أمر أن نعيش بالعرق والعمل[٩٦]. محبون للعدل لأقصى درجة، معتدلو الوزن، يكرهون الكذب.


P
Q
C
موريسكيات غرناطيات بملابس الخروج

كل صباح، قبل شروق الشمس بساعتين، في بهجة الصباح، وكذلك عند الظهر والمساء[٩٧]. يصعد رجال الدين إلى المآذن، ويرددون بصوت عالٍ: "الله أكبر، وقادر على كل شئ، ومحمد رسول الله". يؤدون كذلك صلوات أخرى كثيرة يمجدون فيها الله، ولديهم ترانيم ووقفات طبيعية وعجيبة، التي لا يستطيع أحد أن يتعلمها بمهارة. وكما ذكرت من قبل يظهرون الحزن في الآذان. بعض الأحيان تستمر صلواتهم حتى ساعتين، كما حدث في مسجد قريب من فندقنا. عندما يجتمعون في المساجد يبقون وقوفاً، حفاة بترتيب خاص، قبل الصلاة يغسلون أقدامهم، وأيديهم وعيونهم والشرج والخصيتين. بإشارة من الإمام يحنــون أولاً الرأس، يضربون الصدر، ثم يسجدون في الأرض ويبتهلون، ثم يقفون من جديد. يعملون هذا ثلاث مرات، ويؤمنون إيماناً مطلقاً أنهم بعملهم هذا ستغفر خطاياهم وذنوبهم. في الحقيقة إنهم مخلصون في توقير الله حسب عاداتهم.

يضعون مصابيح في دور عبادتهم، وكان رجال الدين بأعداد كبيرة، يرتدون البياض، ورأسهم معصوب بقماش أبيض أيضاً. إنهم أتقياء جداً، ولديهم غرفهم حول المسجد الأعظم، حيث يمارسون القضاء، لديهم كاتب عدل، ويقومون بوظائف روحانية أخرى.

ملابس المسلمين —الزواج

لم أر أى رجل يرتدى جورباً، ومن النادر من يلبسها حتى الركبة، يربطونها بأنشوطة في الجزء الخلفي، حتى يتمكنوا من خلعها بسهولة في أوقات الوضوء والصلاة قبل دخولهم المسجد.

النساء كن يلبسن سراويل واسعة ومجعدة من الكتان، يربطنها إلى الوسط قرب السرة، مثل الرهبان. وفوق السراويل يلبسن قمصاناً واسعة من الكتان، وفوقها رداء من الحرير أو الصوف، حسب الحالة المادية لكل منهن. وعندما يخرجن من المنزل يظهرن متدثرات بغطاء أبيض من القطن أو الكتان أو الحرير، يغطين وجوههن ورؤسهن بطريقة لا تظهر معها سوى العينين(٩٨).

مباح للمسلمين أن يتزوجوا حتى أربعة نساء، الذين يطلقوهن لأتفه الأسباب، وفي عقد القران يتم الاتفاق على شروط معينة، تختلف بحسب الحالات. لكل زوجة منزل صغير، وعلى العموم كانت تلك المنازل نظيفة جداً، ومزودة، إلى جانب ذلك، بالزيت، والطحين، والحطب، واللوازم الضرورية الأخرى. الصداق كان يتناسب مع مركز المرأة الاجتماعي، يتكون من القلائد والملابس... الخ. زوجات الأغنياء يلقين احتراماً كبيراً في المعاملة، لأن النساء كن يعقدن الصداقات بسهولة. لكن لا تشفق واحدة منهن على الزوج إذا ما تعرض لمشكلة، باستثناء السيدات المهذبات. لا تستطيع المرأة أن تطلق الزوج، إلا إذا كان هناك سبب خطير، مدون في عقد القران. لكن عندما يرغبن في الإنفصال، يضايقن الزوج بوسائل عدة، مما يغضبه، وينتهي الأمر بالطلاق. كان المسلمون المستقيمون يقنعون بزوجة واحدة، ويتحرجون من اتخاذ زوجات عدة.

لعبة القصب

في يوم الأحد السادس والعشرين من أكتوبر، يوم سان سيمون San Simón وسان خوداس San Judas، كونت تنديلا

Tendilla الشهير، عقد اجتماعاً على شرفنا، وحوالى مائة من فرسانه البارعين، مارسوا في ميدان القلعة الحمراء، الذي يبلغ طوله مائة وثلاثين خطوة، لعبة بأسلوب حربى: انقسموا إلى طائفتين، وكل واحدة تهاجم الأخرى بقصب السكر، الطويل والحاد، مثل الرماح، والآخرون يتظاهرون بالفرار، ويدفعون الرماح بالتروس، ويهاجمون الطائفة الأخرى بالطريقة نفسها، و فرسان زناتة Jinetes على خيولهم، الذين كانوا سريعين وملثمين وخفيفي الحركة، لا نظير لهم. اللعبة خطيرة، لكنها تمارس في هذه المعركة الوهمية، كحرب حقيقية. ثم بقصب أقصر، وهم على الخيول، يطلقونها، كما لو كانوا يطلقون السهام من الأقواس. لم ير أحد منظراً بمثل هذا الجمال(٩٩).

في صباح اليوم التالى، السابع والعشرين من أكتوبر، جمع كذلك على شرفنا، كل جنوده بالبيارق والأسلحة وعتاد الحرب. كانوا ستمائة، مروا في عرض، ثم أعطوا لكل واحد منهم راتب شهرين. وقاموا بفصل الجنود الذين لم يعدوا الخيل أو السلاح بطريقة مناسبة.

حضر أيضاً إلى محل إقامتنا، عازفوا المزامير، والقيثارات، ونافخو الأبواق، وحيونا بألعابهم. أوه الكونت العظيم لأسرة تنديلا Tendilla الزاهرة، كم كان الشرف الذي اختصنا به، باركك الله وكافأك، فإننا لا نستطيع أن نرد بالمثل!

خادم الكونت لم يرافقنا باستمرار، كان رجلاً شريفاً، جُلب من ألمانيا عندما كان طفلا بواسطة البوهيمى Don León de Bodebrat، حيث أتقن اللغتين البوهيمية واللاتينية، وقص

علينا كثيراً من الأخبار الجميلة عن دون جابرييل تجل Don Gabriel Tegel ودون جابرييل موفل Don Gabriel Muffel رفاق رحلة دون ليون Don León[١٠٠]. اصطحبنا أيضاً الألمان جاكوب ماجنو دى ارخنتينا Jacobo Magno de Argentina، وخوان دى سبيرا Juan de Spira، وخودوكو دى جيرليشهوفن Jodco de Gerlishofen وآخرون.

رئيس الأساقفة فراى إرناندو دى طليرة

الملك فرناندو المنتصر، رغب في اتخاذ التدابير الضرورية الخاصة بالدين المسيحى في مملكة غرناطة، أعطى أبرشية المدينة، لعالم مبجل، يقدس الحياة، مخلص وورع وتقى، وديع ورحيم، يدعى الراهب إرناندو دى طلبيرة Hernando de Talavera. من إقليم طليطلة، التابع لنظام رهبنة سان خيرونيمو. لا يوجد رجل في كل إسبانيا أكثر منه حكمة وعلماً في اللاهوت والفلسفة. إنه في الحقيقة سان خيرونيمو آخر. فإنه بالطريقة نفسها، كان دائم الاهتمام بالدراسة، إلى جانب الاهتمامات الأخرى بوظيفته، زاهدا، حتى أنه يمكن عد عظامه التي يكسوها الجلد فقط. رحب بى بلطف وأبوية، وأحاطنى علماً بما سألت عنه. لا أستطيع أن أصف السرور الذي شعرت به لمقابلة هذا الرجل، كان على صلة قوية بالملك، ووافق على هذا المنصب مكرهاً. حول كثيراً من المسلمين إلى المسيحية. ماذا أكثر من ذلك؟ كالمسيح، علم وخبرة! ليس سهلاً على أن أعطى أى فكرة عن البناء الذي أقيم بهدف غزو غرناطة. كان أيضاً مستشار الملك وزوجته العفيفة وقس الاعترافات الخاص بهما. أعطانى بعض خطابات التوصية المكتوبة بخط يده للملك ولحاكم الهيئة القضائية الملكية، لأرى شخصياً هذا الملك المتعمق في الديانة

المسيحية بفضل الله العظيم الذي وفقه في إخضاع غرناطة[١٠١].

لديهم كنيسة كاتدرائية في قلعة الحمراء، في المسجد الرائع، حيث يوجد أربعون كاهناً، راتب كل منهم مائة وعشرون سوقة. وأربعون نائباً يسمون Racioneros رواتبهم أقل، وعشرة من ذوى المقام والمساعدين، يبلغ مجموعهم مائة شخص. يعيشون على العشور التي يعطيها الملك.

يوجد في غرناطة كذلك، دير لسان خيرونيمو، خارج الأسوار، وفي داخل المدينة، دير الوعاظ التابع لنظام سان دومنجو. يسمى دير سانتا كروث، ودير رهبان الروح المقدسة، الذين كانت ملابسهم بيضاء تماماً مع صليب أحمر على الصدر، في مدينة الحمراء، دير رهبان سان فرانسيسكو، وكنيسة سان خوسيه، التي كانت فيما مضى مسجداً جميلاً، وكنيسة سانتياجو، وكنيسة سانتا ماريا، التي أقيمت على نفقة الملك، والتي أصبحت المقر الأسقفي، المميزة عن كل الكنائس الأخرى بالمنطقة، بها حدائق جميلة جداً وأقسام أخرى. في تلك الحدائق، أنجزت الإدارة الملكية في زمن قصير، أعمالاً كثيرة، منحها الملك العشر من كل ايرادات مملكة غرناطة، لتشييد بيوت الله، ولمساعدة الفقراء في المستشفيات، ولأعمال الورع الأخرى.

مستشفي البهاق، وبيت المهد وبيت المجانين، التي كان المسلمون قد أقاموها، زيدت أعدادها. في كل ابرشيات المملكة مارس الملك قانون الرعاية، الذي يمنح كل الامتيازات المقصورة على الأسقف في المقر الرسولى.

رأيت في غرناطة أيضاً سجن المجرمين، الذي كان فيما سبق متجراً وبيتاً، رأيت أيضاً السجن العام الذي كان من قبل متجراً وبيتاً للجنويين،تحتفظ جدرانه ببعض الآثار الألمانية التي مُحيت بمرور الزمن،والتي تذكرنا أنه كان يعيش هنالك أناس من نورمبرج وأسرة من التجار تسمى لوس ميندل Los Mendel، الذين كانت لهم في جنوة تجارات كبرى.

قلعة موكلين EL Castillo de Moclin

بعد مغادرة غرناطة وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها إلى الغرب (#) ، توجد قلعة موكلين الحصينة على قمة جبل شاهق، وهى القلعة التي كان الملك المسلم يضع فيها آماله الكبرى.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ بإتجاه مملكة قشتالة، تم الاستيلاء على حصن آخر للنصارى، يمكن رؤية المدينة منه، وهاتان القلعتان تمثلان الحدود بين كلتا المملكتين. فمن هناك تبدأ الجبال التي تقع في الأراضى القشتالية. يضئ المسيحيون في كل ليلة في قلعتهم ضوءاً يستدل به الأسرى الذين كانوا ينجحون في الفرار، ويبحثون عن ملاذ آمن. الملك دون فرناندو، قبل الاستيلاء على غرناطة، هاجم قلعة موكلين بمجموعة كبيرة من الرجال ومن المحاربين الماهرين، ونجحوا في تحطيم أسوارها بالكبش والمنجنيق و بمهراس، حيث ألقوا على برج عالٍ صخرة ضخمة مليئة بمسحوق. ستة عشر رجلاً من المسلمين جاءوا مع ضوء الفجر إلى المكان الذي سقطت فيه الصخرة، لكن أصابهم الرعب عند رؤية القذيفة والمسحوق يغطى الأرض،وعندما ألقيت شعلة فوقهم ،

(#) المسافة من غرناطة إلى موكلين خمسة فراسخ .

أحدثت انفجاراً كبيراً، أحرق المسلمين، الذين قاموا بتسليم الحصن إلى الملك. وعندئذ أدرك المسلمون أنهم قد وصلوا إلى نهاية المطاف بخصوص ممتلكاتهم في أوربا، لأنهم قد فقدوا الأمان.

الخـــروج من غرناطـة

مدينـــة الحامـــة

في السابع والعشرين من أكتوبر، غادرنا تلك المدينة الرائعة، عبر سهل جميل، وبعد ثلاثة فراسخ وصلنا إلى قلعة الحامة الحصينة، والتي تقع على قمة جبل. رأيت هناك بعض الحمامات الرائعة، مياهها صافية وحارة، لم أذق أعذب منها في حياتي.

شيد ملك غرناطة بناء من الرخام بثلاث بوائك عالية، في الجزء الأعلى، لها نوافذ كبيرة مدهشة. قلعة الحامة تعد من القلاع الأولى. بفضل نصيحة وتوجيه بعض المسيحيين الذي كانوا أسرى لسنوات طوال في سجون قاسية. ماركيز قادس النبيل، صعد خلال الليل على درج وقتل المسلمين. أشياء كثيرة يجب أن يكتب عنها. مات هذا الكونت العظيم، اثناء حروبه التي قام بها ضد المسلمين. تبعد الحامة سبعة فراسخ عن غرناطة.

مدينـــة بلش مالقة البحريـــة

في الثامن والعشرين من الشهر نفسه ، صعدت في الصباح إلى جبال شاهقة ووديان، ثم انحدرت في النهاية نحو البحر، بعد ستة فراسخ وصلنا إلى بلش مالقة الشهيرة، الواسعة والتي تقع على شاطئ البحر. لها في الجبل قلعة عظيمة، التي استسلمت للملك، بسبب الجوع، مزارع بلش

مالقة خصبة جداً، بها إنتاج وافر من الزيت والتين واللوز والرمان، وفاكهة أخرى، يعيشون عليها.

مالقـــــة

المدينـــة

في اليوم التاسع والعشرين من الشهر نفسه، توجهنا في الصباح إلى شاطئ البحر، وبعد خمسة فراسخ، وصلنا إلى مالقة، وهي مدينة بحرية مكتظة بالسكان، اخذت شهرتها من مينائها. الطريق كانت تكتنفه المخاطر، لأن المسلمين، كانوا يأتون خلال الليل، من بلاد المغرب، بمساعدة الرياح، ويجوسون في المنطقة، ويسلبون من يقابلهم قبل شروق الشمس، ويعودون ببعض الأسرى. في هذه الأيام حملوا معهم بعض الرعاة وخمسة فلاحين.

عدنا على ظهور الخيل من بليش مالقة إلى مالقة، عند ساحل البحر، رأينا كمية كبيرة من النباتات، التي يصنعون منها شراباً من الصبر للكبد. أوراقها سميكة، طويلة وشديدة المرارة، لها جذر سميك مثل أوراق الزنبق البنفسجي، لكنها كثيفة جداً. يزاد الحنظل على هذا العصير، ليكون أقوى فاعلية. صيدلي الوادي الكبير أعطاني كمية كبيرة من هذا النبات.

المدينة دائرية، وكبيرة مثل نورد لنجن Nordlingen. عندما كانت في أيدي المسلمين كان بها سبعة آلاف بيت، يوجد بها ميناءان رائعان، على شكل أنصاف دوائر، وثلاثة أبراج حصينة في الزوايا. في جهة الغرب يوجد مبنى كبير

بسبعة عقود لرسو السفن والمراكب، ومسجد عظيم به مائة وثلاثة عشر عموداً كاملاً، وهو الآن مركز أسقفي.

بها أيضاً ثلاثة أديرة للرهبان والوعاظ ومؤسسة حديثة البناء للرهبان الـ Menores تقع أمام الدير الخاص بالراهب الأراجونى Fray Bernardo de Boil الذي أرسل كمكتشف لـ Las Indias. صحبته اللطيفة لى في مدريد أفادتنى كثيراً لدى الملك، حدثنى كثيراً عن تلك الجزر.

يقع الدير إلى جهة الجنوب، في سهل خصب ، كانت له فيما سبق حدائق شاسعة خصبة، لكنها دمرت أثناء الحصار.

في المسجد الأعظم، وضع الملك لوحة جميلة على شرف سان خوان المعمدان، الذي كان قديساً، رسم فيها الملك، وبيده بطاقة تقول[١٠٢]:

" Non nibis domine ,etc."

وأخرى بيد الملكة بها:

Benedicta sit rancta Trinitas et indivisa Unitas que misericordiam nobis". "fecit



احدى السيدات الإسبانيات
لوحة رقم XLVIII (ورقة ٥٧)

حصون مالقة

على سفوح الجبال، نحو الشرق من المدينة، توجد قلعة جميلة، شهيرة، في غاية الحصانة، تزينها أبواب كثيرة من الحديد، وأقفال كثيرة متنوعة(١٠٣). بها كذلك ثلاثة كهوف، أو فجوات كبيرة منحوتة في الصخر الصلب، حيث كان يوضع الأسرى المسيحيون، وأشياء أخرى خاصة.

وصل السيد حاكم القلعة، وبفضل خطابات التوصية استقبلنا بترحاب، وصحبنا خادمه الخاص إلى حصن القلعة العالى، الذي يقع على قمة الجبل، بين صفين من الأسوار(١٠٤). أوه كم هى عجيبة تلك القلعة، وفي غاية الحصانة!.

على بعد خمسة عشر ميلا، رأينا أيضاً مسجداً ملكياً صغيراً، عظيماً جداً، وبعض اللوحات الجديرة بالذكر، المصنوعة من الفسيفساء على النمط الإسلامى.

غزو ملك قشتالة لمالقة

الموقع، والميناء، والقلعتان المنيعتان تجعل من مالقة مدينة في غاية الحصانة. الملك، وخلال ثلاثة شهور كاملة(١٠٥)، اتخذ موقعاً بين الأرض والبحر، ومنع عنها كل الإمدادات، فقل فيها الطعام، حتى أن حارس السور كان يُعطى أوقيتين من الخبز في اليوم. واضطر الفقراء إلى عمل خبز من نشارة الخشب، وقشر النخيل، عندما تكون أطرافها لينة. وأخيرا، خرج خمسة آلاف مسلم، مع نسائهم، عبر شاطئ البحر، في طريق الجبال البحرية الشمالية، التي

تضررت كثيراً منهم، لكن جيش الملك فرناندو تصدى لهم ومنعهم، وقتل الكثير منهم، ومنع الآخرين من الهرب إلى المدينة. وفي النهاية استسلموا للملك، الذي باع خمسة آلاف رجل منهم، مقابل ثلاثين دوقة لكل واحد، وكان أى واحد منهم يمكنه أن يفتدى نفسه مقابل ثلاثين دوقة أخرى.

قام الملك بالهجوم على المدينة، قاومت القلعة خمسة عشر يوماً، ولكنها في النهاية استسلمت.

يوجد الكثير للكتابة عن أحد المسلمين الذي غادر مالقة، ودخل في صفوف الملك، وقام بطعن دون الفارو دى برتغال طعنة كبيرة، ظناً منه انه الملك. وكان دون ألفارو قد ارتد عن دينه في مدريد، وأمر أخاه فرناندو بذبح ملك البرتغال[١٠٦]. المسلم مُزق إربا صغيرة على يد المسيحيين[١٠٧].

عندما افتتح المسلمون مدينة مالقة، منذ نحو سبعمائة عام، قاموا بقتل المسيحيين حتى آخرهم. أقسم الملك أن يصنع في المسلمين نفس هذا العمل، لكن رحمته وإنسانيته منعته من ذلك، وقرر بيعهم كأسرى. في شهر يناير منذ عشرة شهور، وقع بمالقة زلزال شديد أدى إلي هدم كثير من الأبراج والمبانى. ومثل ذلك وقع في أرض الميناء، حتى إن كثيراً من السفن دخلت في اليابس، وظلت كذلك حتى انجرفت الأرض بفعل الأمواج العاصفة.

عند استيلاء الملك على مالقة، عرض عليه سبعمائة واثنان وخمسون من الأسرى المسيحيين، الذين كانوا قد أنهكهم الجوع، فأنعشهم الملك بحساء الدجاج وأطعمة أخرى. كان يوجد بينهم ألمانى شهير من زيورخ يدعى إنريكى

موريير Enrique Murer، الذي عانى من الأسر خلال أربع سنوات. ظهر أيضاً بين الأسرى شيخ بلحية طويلة، الذي أكد أنه عانى من الأسر ثمانية وأربعين عاماً. قالت له الملكة: "كيف قضيت السنة الأولى من أسرك، لأن المنقذ لم يكن قد ولد بعد؟" فأجابها حزيناً: "أماتتنى الحزن". وعند خروج الأسرى حاملين صليب من الخشب، صاحوا بصوت عالٍ: "وصل المنقذ، الذي حررنا من ظلام جهنم"، وسجدوا في بلاد الملك والملكة.

أوه، ياله من حزن ممتزج بالسرور! أسرى مسيحيون جدد، كانوا قد ارتدوا عن الإيمان، عند الاستيلاء على مالقة، كانوا عرايا، رموا بالسهام حتى الموت بأمر الملك. كانوا اثنان من لومبارديا، وسبعة إسبان من قشتالة. قتلوا قعصاً بالسهام، وأحرقت أجسادهم، ياله من ملك عميق التدين، يتغنى بمدحه إلى الأبد!.

توجد قلعة استولى عليها الملك عنوة، تقع في واد جيد السقيا، على بعد خمسة فراسخ من مالقة، ولما طلب الملك الأسرى، الذين كان المسلمون قد أودعوهم السجون من قبل. لم يقدم له المسلمون غير جثثهم. فأمر الملك بقتل كل المسلمين. وقبل ذلك كان الملك عندما يحاصر إحدى المدن، يأمر بعدم قتل الأسرى، ولكنه بعد هذا الأمر كان يأمر بذبحهم جميعاً، عندما يدخل منتصراً. وكان المسلمون الخائفون يصيحون: "نسمع صوت النواقيس والأجراس".

عند تحرير الأسرى المسيحيين، كان الحزن، يخيم علي الجميع وخاصة منظر الذين حملوا في الأصفاد، وكان يمكن أن تنقل تلك الأصفاد التي تقيد أرجلهم في عربتين كبيرتين.



إمرأة في الشارع في مملكة قشتالة
لوحة رقم L (ورقة ٢٣)

الخــروج من مالقـــة

في الثلاثين من أكتوبر، بعد الظهيرة، غادرنا مالقة عبر بعض الجبال الشاهقة مثل El Portalón [١٠٨] وجبال أخرى، وعبر بعض الوديان. حيث كان الملك قد شق طريقاً مدهشاً في زمن الحرب، لنقل العتاد، تاركاً على يسار رندة وماربيلا، بيوتاً كثيرة وفنادق. ثم وصلنا في اليوم الثالث إلى أوسونا Osuna (Ursana) مدينة ماركيز قادس. رأينا هناك أكثر من ثلاثمائة مسلم مكبلين في الأصفاد. كذلك كانت مرشانة[١٠٩] Marchena (Marechena) وميرينا Mairena (Mariena) ، وهي قلاع قوية لنفس الماركيز، مليئة بالأسرى. أخيراً وصلنا إلى اشبيلية في اليوم الرابع.

منح الملك الأسرى حق اللجوء إلى غرناطة – التي استولى عليها منذ ثلاث سنوات، حاصلين على حريتهم. لهذا كان المسيحيون يراقبون الحدود بحذر شديد لمراقبة الأسرى، الذين تحرروا من أسرهم، وكانوا يتجهون إلى غرناطة طلباً للحرية.

مدينة هيسباليس Hispalis

المعروفة الآن باسم إشبيلية

في اليوم الرابع من نوفمبر، غادرنا Mairena في الصباح، وبعد مسيرة أربعة فراسخ، وصلنا إلى أكثر المدن شهرة في الأندلس Andalucía المسماة الآن اشبيلية Sevilla (Sibilia) وباللاتينية Hispalis، تقع هذه المدينـــة في سهل

واسع وجميل، أكبر من أى سهل أخر رأيته في إسبانيا، غنى بانتاج الزيت، والنبيذ الذي بلغ الغاية في الكمال وبكل أنواع الفاكهة.

صعدت إلى أعلى برج في كنيسة السيدة مريم العذراء، التي كانت المسجد الأعظم على عهد المسلمين، تأملت المدينة، وقدرت أنها أكبرمرتين من نورمبرج. تامة الإستدارة، وتقع في مكان سهل. في جهة الشمال، أسفل أسوارها، يوجد نهر الوادى الكبير، وهو نهر جار صالح للملاحة، يزداد ماؤه عند مد البحر طوال اليوم حتى يصل إلى ارتفاع ثلاثة أو أربعة أذرع، وعند ذلك تحمل المياه ملحاً كثيراً، لكن عند الجزر تنخفض المياه، وعندئذ تكون هذه المياه عذبة وجيدة. بإشبيلية مياه كثيرة صالحة للشرب، عبر قنوات مائية، من بينها قناة لها ثلثمائة وتسعون عقداً، بعضها عقود مزدوجة، بسبب وعورة وانخفاض الأرض. هذه المياه، تستخدم في رى الحدائق، وغسل الميادين، وفي المنازل وفي أعمال أخرى. بها أيضاً كثير من أديرة الفرنسيسكان وأجسطين، والدومينيكان وأديرة أخرى.

كنيسة مريم العذراء العظمى

منذ مائة وسبعين عاماً، انتزعت مدينة اشبيلية من أيدى المسلمين، وأصبحت مسيحية بالكامل(١١٠). مازالت بها إلى الآن آثار إسلامية لا حصر لها. ساهم أهل اشبيلية وقرطبة بسخاء كبير في نفقات حملة الملك ضد غرناطة، لكونهم جيرانها ولقربهم من الخطر. قدم أهل اشبيلية في هذه الحرب فقط أكثر من مليون من الدوقات Ducados.

من بين الآثار التي توجد بها من العهد الاسلامى، مسجد ضخم، لا تزال حديقته، وثلثاه باقيين إلى الآن. كان طول المسجد مائتين و خمسين خطوة وعرضه مائة وتسعون. طول الحديقة اليوم مائة وأربعون خطوة بقياسنا. يوجد في وسطها نافورة جميلة جداً، كان المسلمون يستحمون فيها. هُدمت النافورة ووضعوا في مكانها أخرى أفضل منها. وعلى الأنابيب كتبت هذه الأبيات: "صاحب الجلالة الملكية، بعد الانتصار على المسلمين، صنعت لى هذه النافورة".

من هذه المياه تروى حالياً كل الحديقة، بها كثير من أشجار الأترج، والليمون، والبرتقال، والسرو والنخيل.

هذا المكان كان موقعاً لمسجد، انهار الآن، وأقيمت علي أنقاضه كنيسة شامخة مكرسة للسيدة مريم العذراء[١١١]. إنها عمل فخم، حتى إنه لا توجد في إسبانيا كنائس تفوقها. أنجزت الكنيسة، لكن لم تنجز مقصورة الكهنة حتى الآن. طول الكنيسة مائتا خطوة وعرضها مائة وسبع عشرة. سبعة أروقة[١١٢] في الطول، منها اثنان يكونان مصليات عظيمة، وخمسة وأربعون عموداً كاملاً، ومقاعد فخمة في مقصورة الكهنة. بها أيضاً أربعون كاهناً و كهنة آخرون من أصحاب المعاش، وعشرون من أصحاب المقام والمساعدون. لها دخل كبير، يتكون من مائتين أو ثلاثمائة دوقات، وإكليروس محترم. توجد أعمدة مثمنة مرتفعة جداً، تبلغ في إستدارتها خمساً وعشرين خطوة، وعقود عالية وعريضة. أعتقد أنه في خلال ست سنوات سيتم الانتهاء من بنائها تماماً[١١٣]. كلها من الحجارة الصلبة، جئ بها من جبال ساحل مملكة غرناطة عن طريق نهر الوادى الكبير.

تبعد اشبيلية عن البحر أربعة عشر فرسخاً، وعبر النهر تصعد السفن التي يبلغ عددها مائة وخمسين سفينة[١١٤]. هذا النهر يقدم نفعاً كبيراً للسكان. تنتج اشبيلية نبيذاً أصيلاً، تزيد حلاوته على حلاوة العنب، وزيتوناً ضخماً بحجم البرقوق الدمشقي، يسمى Spilling، من الصعب أن نصدق حجمه لو أننا لم نره. التمسنا من حاكم القلعة، رئيس إشبيلية[١١٥] الذي يدعى خوان دى سيلبا Juan de Silva، كونت ثيفوينتس Cifuentes، أن يعطينا تصريحاً للمرور عبر حدود قشتالة، فوافق أن يمنحنا كل التسهيلات.

أصلح الملك كثيراً من الأديرة في إشبيلية، ومن بينها دير رهبان Los Hermanos Menores الذين ثاروا، فحرمهم الملك علناً من الكنيسة، واستخدام الامتيازات الممنوحة لهم. وسمح لهم بالخروج من الكنيسة كل أيام الآحاد، وظل متمسكاً بهدفه، وحررهم من الطرد من الكنيسة، بفضل صبره، وجعلهم قيد المراقبة.

رغبة منه كذلك في السهر على إقامة العدل، أجبر كل الوكلاء على الخضوع لنظم معينة في المجالس العامة، وأمرهم أن يضعوا سجلاً لعملائهم يسجلون فيه أجورهم بجانب اسم كل عميل، إذ إنهم كانوا من قبل يستغلون الفقراء في مقارهم الخاصة[١١٦].

قبل غزو الملك لإشبيلية، كانت توجد بها طوائف متعددة، حتى إنه كان لا يمكن لأحد أن يسير في الليل في أمان. حفاروا القبور الذي كانوا يكلفون بدفن الموتى الفقراء، كانوا يتخفون في البيوت، وعندما يجن الليل يسرقون الذهب،

وأدوات المائدة، وكل ما يقع تحت أيديهم. لا يوجد مكان آمن لا داخل سور المدينة، ولا خارجها، في كل الإقليم.

يا له من ملك عظيم، يده القوية تطال كل شئ!

ديــر سانتا ماريــا

Cartuja de Santa María de las Cuevas

خارج اشبيلية، وعلى الضفة الأخرى من نهر الوادى الكبير، وبجانب شاطئه الغربى، يوجد دير عظيم للرهبان الكرتوزيين (شديدى الزهد) يسمى دير سانتا ماريا دى كويباس Santa María de Cueva ، عبارة عن بناء شامخ، به قاعة طعام جميلة جداً، بموائد من رخام ناصع البياض يتناولون عليها الطعام، ليس هناك أجمل منها. ما أجمل المصلى ! بها صوامع فخمة للرهبان، أمامها أروقــة عظيمة التأسيس. وفي الوسط حديقة جميلة، تزدان برسوم مختلفة من الآس والرياحين والياسمين. بشكل لا يمكن تصديقه. رأيت أيضاً في المقبرة شجيرة لها أوراق ضخمة جداً، عرضها قدمان، وطولها أربعة. يقال إنها شجرة موز، لكنها ليست كذلك، لأن أوراقها لا تمتد إلى أعلى، وأظن أنها لا تعطى فاكهة ولابذوراً. ومع ذلك فإن أوراقها شديدة الخضرة وبشكل شبيه بالخطمى Malvavisco.

خارج الدير وصوامع الرهبان، توجد حديقتان ترويان بمياه تجلب من نهر الوادى الكبير بواسطة بغلين. الحديقتان جميلتان جداً بهما شجر الأترنج، والبرتقال، والرمان، والتين، واللوز، والكرم والإجاص. كانت فاكهتها تتدلى من الأشجار.

لم أر قط في الحقيقة حدائق بمثل هذا الجمال! كانت قنوات الرى موزعة تماماً بين أجزاء الحدائق. الذين تحولوا إلى الدين المسيحي، كان لهم كذلك رواق على حدة، له أعمدة من الرخام الجيد، وحدائق جميلة، خططت بإتقان كبير.

يوجد أربعون من الآباء وثلاثون من الرهبان الخدم. كان الأب رئيس الدي، رجلاً مبجلاً، شيخاً في العقيدة، يسكن في مقصورة خاصة، ملحق بها دير قيم. رأينا أيضاً سرداباً واسعاً جداً، كان به ثلاثة وتسعون دن من النبيذ. أؤكد أن ثلاثة من هذه الدنان تكفي لملء عربيتين في نورمبرج. كانت تحتوى على نبيذ له مذاق طيب، مثل العنب الحلو. رأينا كذلك بيتاً من المستحيل أن أصفه. استقبلونا استقبالا طيباً، دخلوا معنا الحديقة، وأبدوا اهتماماً كبيراً بعاداتنا وطقوسنا الدينية، وملابسنا، وطريقة تصفيف شعرنا وغير ذلك.

أعتقد في الحقيقة، أنه بعد رهبانية بافيا Pavía لا توجد رهبانية أخرى أحسن منها، وإلى جانب ثروتها، كان لها دخل سنوى يبلغ أربعة آلاف دوقة Ducados. الطعام هناك رخيص جداً، نظراً لخصوبة كل الأندلس.

قصر اشبيلية

El Alcázar de Sevilla

أقيم قصر اشبيلية من أساساته، على يدى الملك الفونسو Alfonso مؤلف الجداول الفلكية، الذي استولى والده فرناندو Fernando على اشبيلية من المسلمين[١١٧]. هذا القصر هائل، ولا يقل في اتساعه عن قلعة الحمراء. أسس على نفس النمط بأفنيته، وغرفه، وحجراته، ومصارف مياهه. مزين بالذهب،

والعاج والرخام الجيد. لم يكن شكله الخارجي يشبه قصر الحمراء، لأنه أقيم في منطقة سهلية، به ست أو عشر حدائق، بين كبيرة وصغيرة، بها أشجار الليمون، والأترج، والبرتقال، والريحان والماء الجارى.

في هذا القصر ولد ابن الملك، الذي أصبح ملكاً فيما بعد، رأينا الغرفة التي ولد فيها.

ينتظر الإشبيليون وصول ملكهم، ومن أجل ذلك، أصلحوا الأرصفة بالحجارة، وأقاموا الكثير من المنشآت. الملك أسس في الوقت الحالى كثيراً من الغرف الجديدة، وأصلح ماتهدم من الغرف القديمة. وأعد ثلاث غرف لابنه وللملكة، والغرف الثلاث فائقة الروعة، متناسقة.

رأينا كثيراً من الأشياء، عند الخروج من القصر، صعدنا إلى مصلى في أعلى الكاتدرائيـة. هناك تسمع الصلوات. زرنا المقابر الفاخرة لملوك قشتالة[١١٨].

الملك فرناندو الأول Fernando I ملك قشتالة تقى جداً، يؤمن إيماناً راسخاً أنه بمساعدة السيدة مريم العذراء نجح في الاستيلاء على اشبيلية، ولهذا أقام لها أيقونة من الخشب، تتحرك جميع أعضائها، كما عمل أيقونة متحركة أيضا للسيد المسيح وهو جالس في المهد. وقبل ذلك، كانت في مسجد المسلمين أيقونة للسيدة مريم العذراء، وكان هذا الأمر يثير المسيحيين، ولم يقم أحد من المسلمين بتدميرها. أخيراً تلقى الملك في منامه وحياً بأن يقيم عبادة خاصة لهذه الأيقونة، ومن أجل ذلك استولى على اشبيلية.

منذ ذلك الحين أبدي الملك خشوعاً لمريم العذراء، وكان في كل معركة يحمل معه هذه الأيقونة، المصنوعة من الذهب والفضة في تابوتها، فيحقق الانتصارات الكثيرة بمساعدتها.

رأينا أيضاً تمثالاً لفرناندو الكبير، مع زوجته الألمانية، وتمثالاً آخر لابنه ألفونسو، وتاجاً لمريم العذراء مصنوعاً من الذهب النقى، والأحجار الكريمة، والياقوت الأزرق، والزمرد والمرمر، شئ يصعب وصفه. كان يحمل معه دائماً هذه الأيقونة إلى ميدان المعركة، ويخصها بإحترام كبير، ويزين رأسها بإكليل من الذهب الخالص، والزمرد، والجواهر وغيرها من الأحجار الكريمة. حملتها في يدى وقدرت وزنها. أكثر المعارك التي هزم فيها المسلمون كانت بقوة العذراء[١١٩]. رأينا هناك الكثير من الأشياء الجديرة بالوصف، ولكنى سأترك ذلك للاختصار.

خارج المدينة، وعلى الجانب الآخر، يوجد جسر مكون من قوارب عبر نهر الوادى الكبير.

وفي ربض واسع يسمى طريانة[١٢٠] Triana، تصنع أوانى كبيرة من الطين، للزيت والنبيذ... الخ. التي يتسع كثير منها لاثنتي عشرة أو ثلاث عشرة قارورة من النبيذ[١٢١]، ولو لم أرها لصعب علىّ تصديق ذلك.



سيدة من اشبيلية

لوحة رقم XCII (ورقة ٦٠)

في الحادى عشر من نوفمبر الذي كان يوافق يوم سان مارتين San Martín، غادرنا إشبيلية بعد غروب الشمس، عبر سهل واسع، وغنى جداً بالزيتون والمزارع، يبلغ طوله خمسة عشر ميلاً وخمسة في العرض. وصلنا في النهاية إلى مدينة Sanlúcar (Salcúra)، بعد أن امتطيت جواداً قوياً منذ الصباح، وطوال مسافة أربعة فراسخ مررت بقلعة لبلة[١٢٢] Niebla (Nebula) التي تقع في دائرة أملاك دوق مدينة سيدونيا Medina Sidonia.

في اليوم التالى، أجتزنا حدود مملكة قشتالة، ومنها دخلنا إلى البرتغال، وصلنا إلى قلعة سيربا Serpa الحصينة.

هناك وعلى بعد اثنى عشر فرسخاً ، تقع مدينة يابرة[١٢٣] Évora، من اشبيلية إلى يابرة اثنان وأربعون فرسخاً. وبمشقة كبيرة قطعنا ثلاثاً أو أربع ساعات من قبل الفجر وحتى قدوم المساء، حتى وصلنا في النهاية إلى يابرة، حيث كان الملك يقيم حينئذ في اليوم السادس عشر من نوفمبر.

خارج الأسوار، في كنيسة سان بلاس San Blas رأينا جزءاً من جلد حية أحضر من غينيا الأثيوبية Guinea de Etopía، كان طوله ثلاثون شبراً، وفي حجم انسان، وقد قتلت بسهام النار. مسلوخة من العنق حتى الذيل، وهذه القطعة من الجلد ملونة بألوان جميلة متنوعة، كما لو كانت نجوماً ونقط زخرفة، مما يدعو إلى الدهشة. يبلغ وسط هذا الجلد اثنين وعشرين شبراً، ويؤكدون أن هذه الحية قد التهمت رجلين

أمسكتهما بحلزون ذيلها، وإنها يمكنها أن تقاتل الفيلة. مما جعلني أصدق تماماً حديث بلينيو Plinio من قبل عن حيوانات الهند وأثيوبيا، والتي أحضرت اليوم كشئ عجيب من اثيوبيا والجزر المجاورة.

يوجد في يابرة قصر ملكي جميل، وكنيسة ذات قباب رائعة، كانت مقراً أسقفياً، بها رواق رائع تنزهنا فيه. اطلعنا على موقع المدينة، التي تكون أكبر من أولم Ulm. رأينا أيضاً جملاً صغيراً جميلاً في فناء الملك، جلبه من المغرب، حيث يكثر هناك.

الملك خوان الثاني Juan II، رجل لطيف، حاد الذكاء، يحكم مملكته بسلام وهدوء، بشوش للغاية، وباحث متعمق في موضوعات كثيرة، ينصت باهتمام إلى الذين يلتقون به، يفتخر بمعرفته للعلوم الحربية والبحرية والعلوم الأخرى.

لديه أيضاً مهارة كبري في جمع الثروات من التجارة، ومن طرق أخرى. أرسل إلى جنوة نسيجاً من الصوف من ألوان مختلفة، تشبه البسط التي تصنع في تونس، وأقمشة، وخيول، وبضائع مختلفة من نورمبرج Nürremberg، غلايات كثيرة من النحاس، طسوت من النحاس الأصفر، نسيج قرمزي وأصفر، عباءات من انجلترا وأيرلندا ، وأشياء أخرى لا تحصى. يأتون إليه بالذهب، والعبيد، والفلفل الأسود، وقرمز الجنة، وسن الفيل... في كميات بلا حصر.

طرقنا باب جلالته بواسطة واعظه كاتالدو الحكيم(١٢٤) Cataldo . أعطانا الملك رسائل للمرور من الحدود وتوصيات للشبونة، بهدف اطلاعنا على كل شئ. جلست أربع مرات إلى

مائدته. وتحدث معي في شؤون مختلفة. وعندما ودعناه في يوم سانتا كاتالينا، بعد العشاء في القصر، ضمني بين ذراعيه؛ كان يبدو يومئذ في حالة سيئة، فإنه ومنذ وفاة ابنه ألفونسو نتيجة سقطة من على جواد، لم ير بعد ذلك في حالة طيبة. يخشى أن يكون مصاباً بمرض الاستسقاء، والعياذ بالله ، ليته يبقى وقتاً طويلاً على قيد الحياة هذا الملك العظيم واللطيف(١٢٥).

له ابن غير شرعي يدعى دون خورخي Don Jorge، فتى في الثالثة عشرة من عمره، حاد الذكاء، ولديه خبرة كبيرة بالنسبة لسنه، يلقى القصائد، بطريقة لا يضاهيه فيها أحد. مؤدب دون خورخي، كاتالدو الصقلي الحكيم، من جامعة باريس، خطيب عظيم، أعطاه الكثير من التجارب التي يعرفها في الإنسانيات. هذا الغلام سيكون جديراً بالجلوس على العرش بفضل ذكائه الحاد ومواهبه.

عندما كان صغيراً، ثار ضد سيده فأعاده كاتالدو إلى صوابه واشتد معه بشكل أكثر مما اعتاد عليه، مهدداً إياه بالسوط، محطماً بذلك عاداته السيئة. الآن صرح علانية: "خشونة كاتالدو أفادتني كثيراً". المراهق أصبح حكيماً في الإنسانيات، وبمرور السنوات أصبحت لديه معرفة طيبة عن الشعراء فيرخيليو Virgilio و أوراثيو Horacio وشعراء آخرين، كذلك أصبح شاعراً مفوهاً.

لشبونة Lisboa

في اليوم السادس والعشرين من نوفمبر، غادرنا يابرة عبر جبال مونتي مور Montemor ، وقلعة جميلة مليئة بأشجار الزيتون، ومزارع من سبعة عشر فرسخاً، وذراع في

البحر من ثلاثة فراسخ، حتى وصلنا أخيراً إلى مدينة لشبونة الشهيرة، يوجد جبل شاهق هناك، وعلى قمته يوجد قصران ملكيان، سفح الجبل مأهول بالسكان، مكتظ بالبيوت، والأديرة والكنائس. وإلى الغرب يوجد جبل أخر، جزوه الشرقي مأهول كله، وفي الوسط سهل كبير يمتد حتى البحر عامر بالسكان. إنها أكبر من نورمبرج وأكثر سكاناً، ففي البيت الواحد، بصفة عامة، يعيش ثلاثة، أو أربعة أو خمسة من الجيران. تتكون من ثلاث مدن. لليهود ثلاثة أحياء خاصة بهم أسفل القلعة، على سفح الجبل - تغلق كل مساء. يوم السبت يوم عيد سان اندريس San Andrés دخلت بيعة يهودية Sinagoga لم أر لها مثيلاً.

أمام البيعة اليهودية، يوجد بناء ضخم، تغطيه كرمة كبيرة، محيط دائرة جذعها أربعة أشبار. أوه ياله من مكان جميل، به منبر للوعظ كالذي في المساجد!. تضاء في البيعة عشرة شمعدانات ضخمة، وفي كل واحدة منها خمسون أو ستون مصباحاً، للنساء بيعة خاصة، يوقدن فيها أيضاً المصابيح. يهود لشبونة أغنياء، يحصلون الضرائب الملكية، ويظهرون تعنتاً كبيراً مع المسيحيين، ولديهم خوف كبير من النفي، إذ أن ملك إسبانيا طلب من ملك البرتغال أن يقضى على المرتدين و اليهود، أو يعلن الحرب عليهم. ملك البرتغال، الذي سار على نهج ملك إسبانيا، أمر بطرد كل المرتدين من مملكته الذين تعاقدوا مع السفينة Rejina، وهى سفينة جميلة جداً، وأبحروا عليها في أواسط ديسمبر إلى نابولى. منح الملك اليهود مهلة مدتها عامان كاملان، حتى يغادروا المملكة في هدوء. أخذ اليهود هذا علي محمل الجد، فأخذوا يرحلون بحثاً عن بلاد آخري يستقرون فيه .

للمسلمين أيضاً بجانب أسوار المدينة، أسفل القلعة، مساكنهم ومسجد كنا فيه.

في الجبل الذي يحاذى القلعة يوجد دير للرهبان الكرمليين Carmelitas شيد بفخامة على يدى الأمير دون انريكى Don Enrique، يبدو كأنه قلعة[١٢٦]. صعدت البرج، وتأملت موقع هذا الجزء من المدينة، وأعجبت به جداً. على نفس الجبل يوجد دير ترينيداد المقدس Trinidad ودير أخر للرهبان الـ Menores، شاهدنا فيه تمساحاً ضخماً معلقاً، وشجرة ضخمة تسمى التنين، تنتج عصارة ضاربة للحمرة مثل دم التنين.

في دير سان أوجستين San Agustín الذي يوجد في الجزء الأعلى من القلعة، توجد ثلاث شجرات أخرى للتنين. كانت إحداهن ضخمة ، لدرجة أن رجلين لا يقدران أن يحيطا بجذعها. مرتفعة مثل شجر الصنوبر، ورأسها مقسم إلى فروع كثيرة ضخمة، تخرج في نهايتها حزمة كبيرة من الأوراق التي تشبه أوراق اللفت البرى وهى كثيفة. تعطى عناقيد كبيرة وملتفة، مثل شجرة النخيل، مع حبوب كثيرة مثل البندق، بلون أصفر ضارب إلى الخضرة. عندما تنضج في يناير، تصبح حلوة ويتحول لونها إلى الأصفر، لكنها لا تؤكل كثيراً في تلك البلاد. خشب هذا الأشجار عبارة عن لحاء كثيف من الخارج، ولحمة بيضاء اسفنجية من الداخل، مثل أشجار الليمون. أطراف الغصون طرية جداً، بينما هي صلبة جداً عند الجذع والجذر.

في غينيا وفي جزر أخرى يطعمون الدواب أوراق هذه الأشجار، التي تكون أكبر حجماً في غينيا، عنها في أثيوبيا.

ويصنعون منها قوارب تتسع لثلاثة أو أربعة رجال، ومن الجذع المجوف يصنعون، مراكب لخمسين أو ستين رجلاً. رجال صادقون، خشب هذه الأشجار إسفنجى، رخو وخفيف، مثل لب البيلسان، ويمكن تجويفه بسهولة، ملئ بعروق صغيرة. في مارس تستخرج منه عصارة لونها أصفر ضارب إلى الحمرة، مثل دماء التنين. إنها شجرة جميلة جداً. تنمو بكثرة في الأقليم الحارة، وبصفة خاصة حول الأماكن ذات المياه الوفيرة، لإنها تحتاج دائماً إلى ماء كثير.

ضواحي لشبونة

في يوم الأحد الذي كان آخر أيام شهر نوفمبر، مشينا ميلاً من لشبونة إلى سانتا ماريا دى لالوث Santa María de la luz، المعروفة هناك جيداً بمعجزاتها، حيث رأينا منقار بجعة يشبه منقار طائر مائى يسمي Onocrótabo، ولكنه ليس عريضاً مثله، له كيس كبير أمام فتحة المعدة، إنها أصغر من الأوزة العراقية، وأكبر من الأوزة، كل ريشها رمادى اللون، تكثر في غينيا. رأينا بعض القصب الذي قذفته العواصف البحرية من الشرق إلى جزر ماديرا Madera وفيال Fayal، حجم أحدها ستة عشر شبراً، في سمك ذراعى عند المعصم والمسافة بين العقدتين في طول المرفق، لهذا صدقت بلينيو عندما تحدث في كتابه السادس عن حجم القصب.

رأينا أيضاً رماحاً مصنوعة من القصب، لها رأس حاد جداً، يسميها الأثيوبيون Azargayas، وأقواساً، ومنجنيقاً ونبالاً من الحديد لها رأس حاد جداً، كلها مصنوعة من القصب. رأينا أيضاً تمساحاً وبعض المناشير، التي تمثل أسنان السمك الضخم، عبارة عن منشار من عظم صلب جداً، يستطيع

السمك أن يحطم بها أخشاب السفن، كما لو كانت منشاراً. هذه المناشير صلبة جداً وحجمها شبر في العرض، ومرفقين في الطول.

في نفس هذا اليوم صعدنا إلى القلعة، ورأينا أسدين شجاعين جميلين، لم أر مثلهما أبداً، وخريطة للعالم مرسومة بإتقان، ولوحة ضخمة ومذهبة، قطرها أربعة عشر شبراً. إنها قلعة عظيمة في الحقيقة، بأبهائها، وغرفها والأشياء الأخرى.

عند النزول من القلعة نحو البحر ركبنا في سفينة جميلة وكبيرة تخص نبيلاً ألمانياً شهيراً من دانزنج Danzing كان يحمل اسم برناردو فيشتر Bernardo Fechter، الذي استقبلنا بترحاب كبير وقدم لنا فخذ خروف يسمونه هامن Hamen في ويستفاليا Westfalia، وبعض ضلوع خراف مشوية، احتسيت بيرة لذيذة حتى ارتويت، من انجلترا ومن دانزنج، التي أعجبتني جداً. برناردو فيشتر نفسه، بسبب إحساسه بالضيق من عاصفة في البحر البريطاني، بعث اثنين من رجاله في زورق، استعملا المجاديف للوصول إلي السفينة بغرض إنزال القارب عليها، لكن العاصفة أخذتهم بعيداً عن السفينة. وطوال عشرة أيام وإحدى عشر ليلة ظل هؤلاء في البحر، بلا طعام ولا شراب ولا مجداف، حتى كادوا يفقدوا حياتهم من الإنهاك الشديد. وفي اليوم الحادى عشر عثر عليهم أحد الصيادين.

هذا الأسطول كان مزوداً بأعداد كبيرة من المناجيق والمهاريس والأقواس والرماح والنبال وكل ما هو ضرورى للمعارك البحرية.

كان عليه طاقم مكون من مائة رجل مجهزين تجهيزاً جيداً بكل ماهو ضروري. أثنى أحد الرهبان التابعين لنظام رهبنة Eslingen de Suabia على هذا الأسطول وقال إن السفن معدة إعداداً جيداً لكل الأمور الحربية.

دور الصناعة في لشبونة

عند مغادرة هذه السفينة، دخلنا في سفينة آخري تسمي La Regin. أوه!، يالها من سفينة جميلة ومزودة بكل شئ! بها ستة وثلاثون منجنيقاً من الحجم الكبير، ومائة وثمانون من الحجم الأصغر وكثير من براميل البارود والرصاص والرماح والأقواس، كانت قد جهزت للإبحار إلى نابولى في ديسمبر، لنقل المرتدين. تعاقدوا فيها على ثلاثين منجنيقاً، كل من عليها ألمان، قائدها الكابتن Gregorio Piet من الثماواس Alzamaus مدينة من Feldkirch بالقرب من ? Salzach (Salgans). رجل طيب، صريح، كان الملك يقدره كثيراً.

يباع في الميناء كل أنواع الطعام بكميات كبيرة وكذلك الفاكهة، مثل البندق والليمون واللوز والتين... الخ والتفاح الذي لا مثيل له. لم أر إطلاقاً بيع كميات كبيرة من التفاح مثلما كان يحدث هناك، ولا حتى في نورمبرج في الخريف، وأوائل الشتاء، عندما يكون من المعتاد بيع التفاح هناك. كانت هناك أنواع مختلفة من السمك، والسمك المجفف الذين يسمونه السردين، وكانوا يصيدونه على بعد أربعة أميال من مدينة سيتوبال Setubal البحرية، في كميات كبيرة، كانت تفي بحاجة كل بلاد البرتغال، واسبانيا وروما ونابلى والقسطنطينية. لن أتحدث عن سمك التونة والدلافين والأسماك الأخرى.

في يوم سان أندريس San Andrés، نقلنا بأمر الملك إلى مخزنه[١٢٧]، كان عبارة عن بناء كبير في الميناء، حيث تخزن أنواع كثيرة من السلع التي سوف يبعث بها الملك إلى إثيوبيا. رأينا قماشاً كثيراً مرسوماً بمختلف الألوان، أحضره الملك من تونس، وبُسُطاً وأقمشة وغلايات من النحاس وقدوراً ومسابح من شجر الليمون ومن الزجاج، وسلعاً أخرى لا حصر لها. في مبنى آخر رأينا سلعاً أتى بها الملك من أثيوبيا مثل: قرمز الجنة وعناقيد الفلفل الأسود، التي أهدى إلينا منها كمية كبيرة، وناب الفيل. كل الذهب كان قد ضرب عندئذ، ومن ثم فقد جئ به جاهزاً ومعداً. مناجم هذا المعدن نادرة، وتوجد في أراض ضاربة إلى الحمرة، كلها مذهبة تقريباً. في نهاية هذا الكتاب، في فصل حول الجزر الجنوبية وأثيوبيا، ستوجد معالجة بإسهاب كبير لهذا الموضوع[١٢٨].

في العشرين من ديسمبر أبحرت أربع سفن بها ثمانمائة مرتد ، وسفينة أخرى تدعى العقاب، محملة بكميات كبيرة من السكر ومائتى رجل وتجار وحجاج، وربان ماهر. ويقال أن العقاب غرقت فجأة على بعد خمسة فراسخ من ميناء لشبونة، بسبب العواصف العاتية.

غادرنا في ذلك اليوم سانتياجو Santiago، وهبت رياح قوية عاصفة، وقلت لرفاقي: "مساكين هؤلاء الذين يبحرون الآن في البحر". عند الوصول إلى سرقسطة Zaragoza، قصوا علينا هذه الحوادث. رجل مشهور من بلنسية، أخبرني في مدينة طولوشة Tolosa، أنه طوال حياته المديدة، لم ير عاصفة بمثل هذه القوة.

في هذه الأيام، تحطمت في البحر أو في الموانى أكثر من خمسين سفينة في المسافة ما بين مارسيليا Marsella وبلنسية Valencia.

رأينا أيضاً ورشة كبيرة، بها أفران عديدة، حيث يصنعون الخطاطيف والرماح... الخ وكل ما يتعلق بالبحر. كل العمال كان لونهم أسود، حتى ليُظن أنهم من العمالقة ذوى العين الواحدة في كهف الدكان (أسطورة يونانية). رأينا في النهاية، في أربع بنايات كبيرة، رماحهم الجميلة والهائلة، التي كانت لا تحصى عدداً، وكذلك النبال والتروس والدروع والمهارس والمدافع والأقواس والرماح كل شئ متقن الصنع وبأعداد كبيرة. سوف لا أتحدث عن الأشياء الأخرى التي تمضى موزعة بين البحر والسفن.

أشرعة سفن نورمبرج لا تساوي شيئاً إذا ما قورنت بهذه الأشرعة.! يا له من رصاص ونحاس ونطرون وكبريت! بكميات كبيرة جداً. ليس عجيباً، لأن اثيوبيا ترسل الذهب بكميات كبيرة، والملك رجل يعمل الكثير من أجل وطنه، ليس مسرفاً، ويحقق أرباحاً طائلة. أعتقد أنه يجنى سنوياً أرباحاً خيالية من التجارة البحرية. أخذنا ضيافتنا في بيت كبير للملك، في غرفة والد زوجة السيد مارتين بوهميو Don Martin Bohemio المدعو Don Jodoco de Hurder دون جودوكو دى هوردر من بروجاس Brujas، رجل شريف، قائد جزر فايال Fayal وبيكو Pico. له زوجة نبيلة وحكيمة وبارعة في كل شئ، أهدتنى كيساً من المسك واختصتنا بكرم عظيم. كان البيت في الميدان الأعظم، في مكان رحب جداً بجوار دير سانتو دومينجو Santo Domingo، عاملونا بمنتهى الرقة.

ميــــــاء لشبونــــة

على بعد نصف ميل من لشبونة يوجد جبلان، يفصل بينهما ربع ميل، يتوغل البحر في مضيقهما باتجاه الشمال الشرقى، لمسافة أربعة عشر فرسخاً، كان عرضه في بعض الأجزاء ثلاثة فراسخ، وفي أماكن أخرى أقل. أوه، كم هى خصبة، وما أكثر السكان على شواطئ هذا الذراع البحرى! الغنى بالملح والزيتون وكل فواكه هذه البلاد. في الجهات القريبة من لشبونة فإنه على الرغم من وجود العواصف العاتية، فإن الأساطيل تكون في أمان. في الجزء المقابل للشبونة، باتجاه الجنوب، يوجد جبل جميل، نُرى قلعة على قمته، كانت قديماً تسمى أليمانيا Alemania واليوم حرف اللفظ إلى ألمادا Almada التي انتزعت من المسلمين، أثناء احتلال هؤلاء للشبونة، على أيدى الألمان والإنجليز والفرنسيين، حبا في ديننا، أغلقوا الميناء وسببوا انهيارات أخرى كثيرة. وراء القصر الملكى توجد كنيسة تسمى سان فيسنت San Vicente، توجد بها مقابر لمجموعة من الألمان الذين شاهدنا جماجمهم، هؤلاء الألمان، ماتوا عندما ضربوا الحصار على لشبونة، وانتزعوها بالقوة من المسلمين.

الرجال والنساء مهذبون جداً، أكثرهم أغنياء، وبصفة عامة كانوا من الألمان والهولنديين، يعيشون في الميدان وفي شارع Nova الذي أسس على النمط الألمانى، وخصص الجزء الأكبر منه للتجارة. يوجد هنا يهود أغنياء جداً، كلهم تقريباً يعملون بالتجارة، وخاصة تجارة الرقيق.



الربـــان الذي يقود السفينة

لوحة رقم II (ورقة ٨٥)

أرض البرتغال

طول البرتغال من الشمال وحتى مدينة شلب Silves، التي تقع في الجنوب في منطقة الغرب El Algarbe مائة وعشرون فرسخاً، وعرضها من الغرب نحو الشرق أربعة وعشرون فرسخاً، في معظمها أراض خصبة، ولكن في إقليم الغرب الذي يمثل زاوية من رأس سان بيثنتى San Vicente وتقريباً حتى سيتوبال Setubal، يكون أرضاً جبلية ، نادرة السكان.

القسم الذي يقع على الساحل في إقليم الغرب، به وفرة في التين والعنب واللوز(١٢٩)... الخ.

سواحل المغرب

في المغرب، بالقرب من المضيق، وأعمدة هرقل، تقع مدينة سبتة Ceuta، التي كانت فيما مضى مدينة كبيرة جداً. انتزعها أسلافهم من ملك فاس، وهي الآن مدينة صغيرة ومحصنة ضد هجمات المسلمين. في سنة ١٤٥٨م، قام ملوك فاس وتونس ووهران بأكثر من أربعين ألف رجل بالهجوم على سبتة، بهدف استردادها. جردوا السلاح وكثيراً من التروس المصنوعة من لحاء الشجرة التي يسمونها Zockelholtz، واقتربوا من الأسوار في جمعهم الكبير، ولكن زحفهم توقف. ثمانية آلاف مسيحي كانوا في المدينة، وكان من بينهم المانيان، أحدهما خورخى دى اتشنجن Jorge de Echingen من مقاطعة ويتمبرج Wittemberg، فارس مسلح من أورشليم، والآخر هو خريخوريو دى رامسيدنر Gregorio de Ramseidner من سالزبورج Saltzburgo، محاربان شجاعان. خريخوريو قسم من الوسط من ضربة سيف، من مسلم يمتطي جواداً، رامسيدنر ترك للبرتغاليين نموذجاً لنكائه، في بعض

الجرار من الطين المحروق حرقاً متوسطاً ، المملوءة بالكلس المسحوق، وبعض مثلثات الحديد، التي كانوا يسمونها الحسك Fuseysen (abrogos)،قذفت عبر الأسوار على المسلمين، حيث قاسى العميان والجرحى الكثير من الألم.وحضرت لنجدتهم بعض السفن من سان لوكار Sanlucar (Sancta Luca Sibilie) إذ تأخر ملك البرتغال بسبب العواصف، فلم يتمكن من نجدتهم. القائد الأعلى للمسلمين الذي كان يسمى الحيدرى El Hayzari الذي كانوا يبجلونه. ارتكب خطأ لدى ملك فاس، إذ إنه شرب نبيذاً، وهو شئ غير مسموح به عند المسلمين ، وبدأ التفكك يظهر بينهم، وانسحبوا في اليوم التاسع مدحورين، تاركين كثيراً من عتاد الحرب. حزن المسيحيون كثيراً لانسحابهم ليلاً، ولكنهم من جانب آخر قتلوا أكثر من ألفين.

في الأعوام التالية، استولى ملك البرتغال منهم على ثلاث قلاع أخرى : أصيلة، وطنجة والقصر الكبير، والثلاثة قوية التحصين ، وفرض ضريبة على القرى المحيطة، بواقع دوقة على الرأس في كل عام (التي تسمى Tablo). كان لدى الملك في القصر الكبير رماة منجنيق ألمان مهرة ، من بينهم جاكوبو Jacobo Suewus من Waiblingen، وهى إحدى مدن مقاطعة ويتمبرج Wittemberg، الذي أحرز بطولات كبيرة. في شهر نوفمبر التالى أجبر مدينة ثائرة على دفع ضريبة من ثلاثة الآف ماعز، ومائتى ثور وأشياء أخرى، بالاضافة إلى أربعة عشر عبداً. تبعد هذه المدينة عن اشبيلية سبعة عشر فرسخاً.

الطريق إلى كومبوستيلا

Compostela

في الثانى من ديسمبر غادرنا مدينة لشبونة العظيمة الشهيرة، بعد الغذاء، وبعد مسيرة خمسة فراسخ على شاطئ البحر، وصلنا إلى مدينة البركة Alberca في وقت متقدم في المساء. ارتقينا الجبال وسرنا تسعة فراسخ بلا راحة، حتى وصلنا إلى مدينة شنترين Santarem. وخلال جولتنا، وعلى بعد فرسخين من لشبونة، شاهدنا سفينة كبيرة وجميلة خاصة بالملك، معدة تماماً لكل شئ؛ لم نر من قبل لها مثيلاً . المسافة الواقعة بين لشبونة وشنترين غنية جداً في الإنتاج وخاصة الزيت، والعنب، والملح على الساحل، يوجد أكثر مما يُحتاج إليه. تقع شنترين على شاطئ نهر التاجو Tajo الذهبى الشهير، الأكبر من نهر Mein في فرانكفورت، ويرويها حتى يصل إلى هذا الذراع البحرى. في كل مكان يوجد العنب من أجود الأنواع، والزيت وفواكه أخرى.

وفي الرابع من ديسمبر، خرجنا من شنترين وسرنا بضعة فراسخ، عند الفرسخ التاسع وصلنا إلى مدينة ثومار Thomar، التي تشتهر بزيتونها الضخم، ومزارعها الواسعة، بفضل النهر – وهو نهر بسيط – يتكون في بركة من الماء البارد حيث يفرخ سمك التروتة Truchas وهو سمك نهرى. بها قلعة جميلة، طلاها الأمير دون انريكى(١٣٠) بالذهب، وهو مكتشف الجزر، الذي قضى هنا الجزء الأكبر من حياته. هذا المكان خصب جداً وغنى بأشجار الزيتون، على امتداد مساحة أربعة فراسخ.

في اليوم الخامس، بعد الغداء، خرجنا من ثومار Thomar، ومشينا اثنى عشر فرسخاً عبر الطريق، وفي وقت متقدم في المساء في ضوء القمر، وصلنا إلى مدينة قلمرية Coimbra التي تقع على جبل جميل وفي سهل، يجتازه نهر مونديجو Mondego، بجسره الشهير وزيتونه الوافر.

في اليوم السادس، بعد الانتهاء من الغذاء، غادرنا قلمرية عبر أماكن خصبة وحقول، وصلنا بعد يومين إلى مدينة أوبورتو Oporto الشهيرة والعتيقة، التي تقع على سفح جبل شاهق. يرويها نهر دويرة Duero الشهير، الغزير المياه مثل نهر الراين Rhin في بازيليا Basilea. بها اسقفية وأرضها خصبة وقديمة. تبعد عن البحر فرسخاً، وفي وقت ارتفاع المد، تصل السفن الكبرى إلى أسوار المدينة، وكله من أحجار قديمة جداً ومربعة. أوبورتو أقدم من لشبونة. هناك التقيت بواعظ ملك البرتغال، إدواردو دى كالبو Eduardo de Calvo الحكيم، الذي قدمنى إلى معلمى المحب والحكيم خوان لاندسبرج Juan Landsberg، ومدحنى عنده مديحاً طيباً. وكان الملك مكسميليانو Maximiliano قد فوضه مرتين من قبل. وصف لنا أشياء كثيرة تتعلق بإسبانيا، إذ إنه واصف عظيم للكون.

أوبورتو، مدينة كبيرة، أقيمت على جبل وسفوحه، تزينها بنايات قديمة في الجزء الأسفل. تتبع اسقفية قلمرية. يجب الكتابة كثيراً حول هذا الموضوع، ولكنى سأغفله حرصاً على الإيجاز. بعد لشبونة هناك مدينة من أكثر المدن شهرة في البرتغال. تبعد ثمانية عشر فرسخاً عن قلمرية.

في اليوم التاسع، بعد الغذاء، خرجنا من أوبورتو، ووصلنا إلى المدينة الصغيرة المسماه بارثيلوس Barcelos، التي تقع على جبل، يرويها نهر شهير جداً يأتى من براجا Braga التي كانت تسمى فيما مضى أوجوستا Augusta، وهى مدينة قديمة، تبعد عن أوبورتو ثمانية فراسخ.

في اليوم العاشر بعد تناول الطعام، غادرنا بارثيلوس Barcelos، وبعد خمسة فراسخ وصلنا إلى مدينة بونتو دى ليما Ponto de Lima، التي يرويها نهر يسمى ليما Lima، عليه قنطرة طويلة بها ثمانية عشر عقداً. بعد تناول الطعام في مطعم، وبعد ثلاثة أميال، وصلنا إلى كوسيرادو Coserado.

في اليوم الحادى عشر، وبعد ثلاثة فراسخ، وصلنا إلى بلنسة دو مينهو Valenca do Minho (Valencia de Mina) آخر مدينة على الشواطئ الشمالية من البرتغال. أبحرنا عبر نهر مينيو Miño، الوافر المياه مثل نهر الراين في بازيليا، وصلنا إلى مدينة توى Tuy (Duy)، التي تقع على جبل على نهر في الجهة المقابلة لبلنسا Valenca، وهى المدينة الأولى في جيليقية Galicia بها اسقفية، بكنيسة جميلة.

في نفس اليوم بعد تناول الطعام، خرجنا من توى Tuy، وفي وقت متقدم من المساء وصلنا إلى ريدونديلا Redondela (Rondella) وهى مدينة صغيرة تقع على ذراع من البحر، حيث يقومون بصيد السردين بكميات مدهشة. وكان هناك ألمانى شهير، مولود في فرانكفورت، وهو جارلنا، أنزلنا في مكان سيئ جداً، فالوقت كان ليلاً وجافاً، لكنه أعطانا أموالاً بسخاء.

في اليوم الثاني عشر، استيقظنا في الصباح، وبعد السير ثلاثة فراسخ وصلنا إلى بونتيبيدرا (Pos Fedrus) Pontevedra، وهي مدينة أزلية، ليست كبيرة، ولكنها كانت في الماضي ميناء شهيراً على البحر[١٣١]، وفيها تصاد كميات كبيرة من السردين ، الذي يصدر إلى بلاد مختلفة، مكوناً غذاءها الرئيسي. بها أيضاً نهر مهم له قنطرة جميلة بأربع عشرة عيناً.

في نفس اليوم، بعد تناول الطعام، وبعد ثلاثة فراسخ من الركوب، وصلنا إلى مدينة كالداس Caldas الصغيرة، بها مياه وحمامات كبريتية ساخنة، التي جربتها، لكن الناس أهملوها، فلم يشيدوا مبان أو أحواضاً للإستحمام، وكانت هناك حفرة يستحمون فيها. مع ذلك كانت المياه رائعة وساخنة جداً مثل حمامات بادن Paden القريبة من Turegum في سويسرا.

في اليوم الثالث عشر، غادرنا كالداس، قبل شروق الشمس، ووصلنا إلى مدينة بادرون القديمة (Patron) Padrón التي كانت تسمى من قبل إيريا Iria ، حيث دخلنا في البداية كنيسة سانتياجو (شانتياقب) Santiago الأزلية، ورأينا تحت المذبح الأعظم عموداً من الحجارة له تجويف، يقال إن جثمان سانتياجو مسجى فيه. غادرنا بعد ذلك عبر شاطئ النهر، حيث كانت تمر سفينة قادمة بدون مجاديف من Judea بجثمان سانتياجو مع بعض التلاميذ، وتركوه فوق صخرة، التي ذابت كالشمع لاستقبال الجسد المقدس. رأينا أيضاً، عند صعود الجبل في الجانب الآخر للجسر ، المكان الذي يوعظ فيه الوثنيون. وهو عبارة عن كومة هائلة من الأحجار على هيئة هرم، وعلى القمة صخرة مستوية، على طريقة المنبر. زرنا أيضاً المصلى، حيث تنساب مياه النافورة التي يقال إنها

تفجرت عندما ضرب القديس سانتياجو صخرة بعصاه. المياه التي شربناها كانت حلوة وخفيفة ووقعت منا موقعاً حسناً.

زرت كل هذا، وعلى بعد أربعة فراسخ، وصلنا إلى مدينة كومبو ستيلا Compostela المقدسة، التي يرقد فيها – كما يؤكدون – جسد سانتياجو الأكبر كاملاً، ابن Zebedeo وأخ Juan Evangelista.

Compostela De Santiago

في اليوم الثالث عشر من ديسمبر وصلنا إلى كومبو ستيلا، التي تقع في وسط دائرة كاملة من الجبال. يوجد في الوسط تل آخر، يرتفع كما لو كان مقاماً في مركز الدائرة. لا يوجد بها أى نهر، لكن توجد ينابيع كثيرة تتدفق منها المياة العذبة[١٣٢]. ليست مدينة كبيرة، ولكنها قديمة، ومحصنة بسور قديم وأبراج عديدة قوية. الريف جميل، وبساتين المدينة تغص بأشجار البرتقال، والليمون، والتفاح، والخوخ والفاكهة الأخرى. لكن الناس في منتهى القذارة – لديهم خنازير كثيرة تباع بأسعار رخيصة جداً – وكسالى، لا يهتمون بالحد الأدنى المطلوب لزراعة الأرض، ويعيشون عموماً على الدخل الذي يعود عليهم من الحجاج. لديهم طقس جميل، وفي داخل المدينة مثل خارجها، توجد أديرة كثيرة مثل دير سانتو دومينجو Santo Domingo، الذي يوجد به واعظ عظيم وحكيم، وقد أوضح لى كثيراً من الأمور، ودير سان بينيتو San Beneto، الذي ساق الملك أسقفه سجيناً إلى قشتالة لإسرافه، ودير سانتا كلارا Santa Clara. الملك منحه الله العمر الطويل، منهمك حالياً في إصلاح أديرة أوجسطين Agustino .

كنيسة سانتياجو Santiago

كنيسة سانتياجو، واحدة من ثلاث كنائس رئيسية تتبع نظام روما وإفسوس في آسيا، كان قد أسسها الامبراطور شارلمان، ملك الفرنجة، وامبراطور ألمانيا، الذي عرف بحروبه – وكان لديه ولع كبير بغنائم المسلمين[١٣٣]، إنها عمل عجيب، أقيمت على شكل الصليب. الرواق المركزى. يبلغ مائة خطوة، طول أذرعه مائة وعشرون، والعرض خمس عشرة، عرض الرواق المركزى ثنتان وثلاثون، وطول كل الرواق المركزى وما وراء مقصورة الكهنة مائة وخمسون . مبنى الكنيسة أقيم وكذلك قبابه بأحجار صلبة جداً. بها رواقان جانبيان، مثل كنيسة سان سيبالدو San Sebaldo، وفيما وراء مقصورة الكهنة، أقيمت مصليات. في أركانها الأربعة أبراج قوية جداً، وفي هذه الأيام يقومون بإنشاء برج آخر، في غاية الحصانة أيضاً.

وصف كنيسة سانتياجو

تحيط بمقصورة الكهنة، اثنا عشر مصلى، والقبة التي على شكل صليب شاهقة جداً. وفي وسطها بين جنبات أذرع الصليب، توجد مبخرة هائلة ينبعث منها دخان معطر.

منح البابا Calixto لهذه الكنيسة الكثير من المزايا. رئيس أساقفتها حالياً دون ألفونسو ، كونت ثيفوينتس Cifuentes، رجل حكيم وواعظ كبير، يشارك منذ ستين عاماً وحتى الآن في النزاع المصيرى، الذي بسببه ضعف إقليم جليقية Galicia. الملك الذي يمسك بزمام الأمور في إسبانيا اليوم، بيد قوية، استدعاه إلى سلمنقة Salamanca، منفياً، وسمح له بالحياة هناك برواتبه، وأصلح الأحوال في جليقية وذلك عن طريق سن قوانين وانشاء مؤسسات جديدة(١٣٤).

بهذه الكنيسة خمسة وأربعون كاهنا، بينهم سبعة نشأوا في مؤسسة Calixto، سمح لهم بإقامة القداس في المذبح الأعظم فقط ويطلق عليهم كرادلة شانتياقب Santiago. سمح هذا المطران لهم أيضاً وللأساقفة الآخرين أن يحضروا هنا. كانت رواتب الكهنة سبعين دوقة Ducados، إلى جانب إعانات مالية أخرى.

ملك قشتالة زود هذه الكنيسة بزخارف جميلة جداً، كذلك خصص لها لويس ملك فرنسا، والد كارلوس Carlos، كثيراً من الهبات(١٣٥)، من بينها، ثلاثة نواقيس هائلة، وعشرة آلاف شعار، وزع نصفهم على الكهنة، واشتروا بالنصف الآخر ثياباً قيمة للقساوسة ، كان الزنبق شعار الملك، مرسوماً في كل مكان.

في السادس عشر من ديسمبر الذي كان يوافق يوم ثلاثاء، قبل عيد سانتو توماس Santo Tomas، أقاموا احتفالاً كبيراً لسان فروكتوسو San Fructuoso، الأسقف الذي كان

جسده محفوظاً هناك، استخدموا في الموكب الدينى، زخارف غنية بزنبق ملك فرنسا[١٣٦]، مثلما كان يحـدث في القداس.

كذلك فإنه في اليوم الثامن عشر الذي كان يوافق اليوم السنوى قبل عيد سانتو توماس، احتفلوا بعيد العذراء ، الذي يسمى عند الإسبان عيد أمل التجسد للسيد . Fiesta de la Expectación de la Encarnación del Señor، وذلك في احتفال يثير الدهشة، بمشاركة موكب دينى ومبخرة في وسط مقصورة الكهنة، وزخارف رائعة من الذهب الخالص، الذي كان هدية من ملك قشتالة. في الخلف يحمل هؤلاء الشعار الملكى بالنشاب، وفي الظهر، شعار قشتالة وأراجون، وكلها من الذهب والأحجار الكريمة. أوه، ما أعظم هذا الملك، وهباته للكنائس، وإصلاحها! .

في نفس يوم عيد العذراء، زين المذبح الأعظم بأيقونتين للقديسين من ثلاثين، وخمسة وعشرين، وأربعين إطاراً، وأخرى من الفضة المذهبة، من بينها الأيقونة الكبرى للعذراء، وهى من الذهب الخالص.

يؤكدون أنه كان بيدها اليمنى صولجان عظيم، وفي اليسرى ابنها الطفل، بتاج عظيم، وكان الكاردينال يحملها في الموكب الدينى تحت مظلة، ويقوم اثنان من القساوسة بإسنادها. يوجد أيضاً صليب كبير مزين بالذهب والأحجار الكريمة، الذي يشاهده الحجاج في بيت القربان المقدس. سوف أتحدث عن رفات القديسين الكثيرة في كومبوستيلا في كتابة منفصلة[١٣٧].

مصليات ماوراء مقصورة الكهنة في سانتياجو

من بين الاثنى عشر مصلى التي تحيط بمقصورة الكهنة. يوجد المصلى الخاص بملك فرنسا، الذي أمر ببنائها وخصص لها مائتي دوقة Ducados سنوياً، لكي ينشدوا هناك في كل الساعات المخصصة للكنيسة، لكن الكهنة يحصلون على الرواتب، بينما ينشدون فقط في مقصورة الكهنة الرئيسية.

سبعة من الاثنى عشر مصلى، تكون دوائر قسسية لكل كومبوستيلا حيث تدار الأسرار الكنسية. قمنا بالمساعدة في دفن الموتى. أمام الجثة، يحملون زقاً مملوءاً بالنبيذ، وكيسين من الخبز، وربعين أمامين من ثور وخروفين، وذلك حسب القوانين الأبرشية، وكذلك كان معها أفضل الأقمشة الجنائزية. الكهنة ينشدون في نشاط كبير. كان صراخ الناس المتواصل في الكنيسة، يدعو إلى الظن أنه مهرجان أو سوق، الورع قليل جداً هناك. الحوارى المقدس، وقور جداً، ويلقى إحتراماً كبيراً. يعتقد أنه مدفون مع اثنين من تلاميذه أسفل المذبح الأعظم، أحدهما على اليمين، والآخر على اليسار، إلا أن أحداً لم ير الجثمان، ولا حتى ملك قشتالة عندما كان هناك في عام ١٤٨٧[١٣٨]. نعتقد بالإيمان فقط إنه هو الذي أنقذنا من الأعداء[١٣٩].

الخروج من كومبوستيلا

في اليوم الحادى والعشرين من ديسمبر، ودعنا شانتياقب، حيث غادرناها بعد الغذاء، وبعد خمسة فراسخ وصلنا إلى موقع فريروس[١٤٠] Ferreros الصغير، حيث لم نجد ترحيباً. وفي الصباح امتطينا تسعة فراسخ، حيث مررنا

بقرية Mellid حتى وصلنا مدينة سيجوندى Segonde الصغيرة، وفي اليوم الرابع والعشرين مررنا بمدينة بوينتى مارين Puente Marín، عبر نهر كبير[١٤١]. وبعد ثمانية فراسخ، وصلنا إلى موقع ساريا Sarría الصغير. كل هذه الجولة كانت في أراض خصبة وجبلية ، ولكنها نادرة السكان. وكان هؤلاء الناس يعتمدون في غذائهم بصفة خاصة علي لحم الخنزير، وفي كل أعمالهم، كانوا في الحقيقة غير نظيفين.

في اليوم الخامس والعشرين، الذي يوافق يوم عيد ميلاد السيد المسيح، استرحنا خلال هذا اليوم. حيث تسلمت بعض الرسائل من جودوكو ماير Jodoco Mayer والد زوجة أخى، عن طريق أحد الحجاج، الذي ذكر لى فيها أنه قد وقع وباء كبير في نورمبرج.

في صباح اليوم السادس والعشرين، وصلنا عبر الجبال والوديان إلى مدينة ثيبريروس Cebreros (Sebrors)، على قمة جبل شاهق يسمى مالفابر Malfaber (Valcarce) كانت المسافة تبلغ تسعة فراسخ طولاً.

في اليوم السابع والعشرين، هبطنا من هذا الجبل الشاهق عبر واد طويل جداً يبلغ طوله سبعة فراسخ، ووصلنا إلى قلعة بيلا فرانكا Villafranca. التي تقع في سهل جميل، حيث ينتجون كميات كبيرة من النبيذ، ولديهم ديران، أحدهما لسان فرانسيسكو والآخر لسان بينيتو، على جبال جليقية الشاهقة، تلتقى هناك ثلاثة أنهار تمدها بالماء العذب الصالح للشرب والغنية بالأسماك[١٤٢].

في اليوم الثامن والعشرين، خرجنا صباحاً من بيلا فرانكا. عبر هذا السهل الخصب والقلعة المسماه بونفرادا Ponferrada، ومشينا ثمانية فراسخ، حتى وصلنا عبر سفح جبل شاهق، إلى المدينة المسماة ريو Río. هذا الجبل الشاهق يفصل بين جليقية وقشتالة، وهو شديد الارتفاع، ويسمى جبل رابانال(Rasanellus) Rabanal (١٤٣).

في اليوم التاسع والعشرين، صعدنا إلي الجبل ثم نزلنا، وبعد ثمانية فراسخ، مررنا بقشتالة، ووصلنا إلى قرية بال الصغيرة(١٤٤) Val (Alval) حيث لم نجد ترحيباً.

في اليوم الثلاثين، استيقظنا قبل شروق الشمس، قطعنا عشرة فراسخ، حتى وصلنا إلي مدينة بينابنتى Benavente (Beneventum) الطريق بين شانتياقب وبينابنتى يبلغ ستة وخمسين فرسخاً، طويل وجبلى وسيئ، على جانبه تقع مدينة استرقة Astorga(١٤٥) الشهيرة، التي أخذت شهرتها لكونها أبرشية ولأسوارها المحكمة وخنادقها. ومن قبل عندما انتشرت الكاثوليكية في إسبانيا، وبدأ الوجود الإسلامى في الضعف، بدأت حركة الاسترداد من تلك المدينة اشتورياس Asturias وكنتبرية Cantabria التي يسمونها بسكايا Vizcaya، فإن أهل الاشتورياس والبسكانيين استمروا في الإيمان كجند مخلصين للسيد المسيح. كما جاء في تفاصيل كثيرة في التواريخ الإسبانية.

بينابنتي Benavente وقلعتها

بينابنتى، مدينـة متوسـطة ليست كبيرة، سيئة البناء، بها أربعـة أديرة مستصلحة، لسان فرانسيسك، وسانتو دومينجو، والروح المقدسة ولسانتا كلارا. تقع في سهل فسيح وخصب، يخترقه نهر أكيفونتيس Aquefontis[١٤٦] الغنى بالسمك الجيد، والذي يلتقى مع نهر دويرة Duero ومع انهار أخرى أقل أهمية، ثم يمضى ليصب في البحر بالقرب من البرتغال. ينتمي كونت بينابنتى إلى دون رود ريجو Don Rodrigo، الذي يكون هو ودوق اشبيلية أكثر النبلاء ثراء في إسبانيا[١٤٧]، لديه مدن كبيرة وكثيرة، وهذا بفضل الحروب الطويلة التي خاضها من قبل ضد المسلمين.

قلعة بينابنتي Benavente

قلعة بينابنتى، واحدة من أكثر القلاع جمالاً وعظمة في كل قشتالة، بعد قصور غرناطة وإشبيلية لا يوجد لها مثيل في كل إسبانيا. تقع خارج المدينة، على جبل صغير، مربعة وفي كل زاوية من زواياها الأربعة يرتفع برج قوى التحصين، هناك خنادق ومعاقل في غاية الحصانة. يزينها من الداخل فناء مربع الشكل ومصليات، وأبهاء وغرف شيدت من أنواع مختلفة من الآجر. زوايا كل الأبهاء و الغرف والأعمدة الرخامية مزخرفة بالذهب. على سفح جبل القلعة يجرى نهر يسمى أوربيجو (Auri) Orbigo. القلعة غنيـة بالقباب والعقود واللوحات... الخ . يوجد سرداب ينحدر باتجاه النهر، بطريقة يمكن معها للخيول أن تنزل ، لأن المسافة طويلة جدا، وتوجد سراديب أخرى للطواحين، ولاستخراج الماء، التي لم أر لها

نظيراً. لم أر إطلاقاً فوق الأرض قلعة تشبه هذه بسراديبها وكهوفها وجبالها.

لم يكن الكونت هناك، إنه رجل عظيم، يسمى في اللغة الإسبانية Alcaide وقد وجدته معلماً في كل شئ. الكونت له شغف بالحيوانات، لديه تسعة أسود، واثنان آخران وذئب. أكلوا في حضورنا بهدوء دون أن يسببوا أى إزعاج. رأينا زنجياً يدخل عليهم يداعبهم بيديه، فيظهرون له الرضا. أكد القائد أنهم يحتاجون إلى ألف وخمسمائة دوقة Ducado سنوياً لإطعام هذه الحيوانات. منذ سنوات قليلة، كان يوجد فيل، لكنه مات في الشتاء، لأنه لم يتحمل الطقس البارد. يجب الكتابة كثيراً عن هذه القلعة العظيمة، ولكننى سأغفل ذلك نظراً للإيجاز. إنها في غاية الجمال وخاصة منظر النهر.

نومانثيا Numancia حالياً سمورة Zamora

مدينة قشتالة

في صباح اليوم الثانى من يناير وصلنا إلى سمورة(١٤٨)، التي كانت تعرف قديماً باسم نومانثيا Numancia، تبعد عن بينا بنتى، عشرة فراسخ، تقع في سهل خصب، عجيب في إنتاج العنب والغلال، إنها كبيرة مثل أولم Ulm، لكنها مثلثة على شكل الهرم. ومن جهة الشرق، وخارج الأسوار، يرويها في وسطها نهر دويرة ElDuero أكثر أنهار إسبانيا شهرة، يصب في بحر البرتغال، شامخاً، صافياً، به طواحين، وقنطرة، مع ماء عذب وصيد ممتاز. وتحت القنطرة الجديدة يمكن رؤية أساسات القنطرة القديمة.

في الزاوية الأكثر حدة، باتجاه النهر. يوجد القصر الملكى الجميل، وملحق به الكاتدرائية الأسقفية المكرسة لسان سلفادور، وبها أربعة وعشرون كاهناً، وستة من أصحاب الرتب، وأصحاب المعاشات من القساوسة الذين لا حصر لهم. إنها كنيسة جميلة، شيدت على النمط القديم، بها صور عالية جداً أمام مقصورة الكهنة، ولوحات فخمة وزخارف أخرى. بها أيضاً رواق عالٍ غاية في الجمال، به أعمال فنية مذهبة على النمط الإسبانى. صعدت إلى البرج الشاهق، وتأملت موقع المكان والمزارع، وأعجبت به للغاية.

في سنة ٦٠٠ قاومت سمورة الرومان ببسالة، وبأربعة آلاف فقط من السكان، فكتبت لها الحياة، وقضوا على أكثر من ستين ألف جندى رومانى. فإنه بمشورة Escipión الإفريقى، نجح في ايقافهم، ليس بالقوة، ولكن بالحيلة، حيث

منع وصول كل الإمدادات، وأقام حول كل الضواحى خنادق أعاقت الدخول والخروج من المدينة. ليجبرهم الجوع على الاستسلام أو خوض الحرب التي سوف يلقون حتفهم فيها، لكنهم رفضوا الأمرين، ولما أرهقهم الجوع، اضرموا النار في المدينة كلها وفي أنفسهم لكى لا يبقى للمنتصر ما يفخر به. ومن ثم لا يبقى للرومان سوى المكان.

سألت Escipión عن إسباني يسمى Cireneo الذي قاوم الرومان سنوات طويلة وبقوة قليلة. فأجاب "الود جعله لا يهزم، في الخلاف كان هلاكه". عبارة كانت تقرأ في مجلس الشيوخ لسنوات كثيرة في أيام معينة. أعتقد أننى سأجد كل هذا مع تفصيل أكثر في Tito Livio عندما يتحدث عن Escipión .

ريف سمورة هادئ وينتج قمحاً جيداً، وعنباً، وفواكة أخرى .

سلمنقة Salamanca

تبعد سلمنقة عن سمورة عشرة فراسخ، وتقع بجوار نهر تورمس Tormes[١٤٩] الذي ينبع من جبل تورمس. وعلى الرغم من أن النهر غير واسع، إلا أن عليه قنطرة بثلاثة وعشرين عقداً صغيراً. تقع المدينة في سهل جيد، صعدت إلى برج الكاتدرائية الشاهق، حيث بدت لى المدينة أكبر قليلاً من نورمبرج.

بها كثير من الأديرة المستصلحة، ومن بينها الكنيسة الكاتدرائية، المكرسة لعيد انتقال السيدة مريم العذراء، عبارة عن بناء راسخ من أحجار مربعة، ولها قبة شامخة أمام مقصورة الكهنة، ورواق جميل ومصليات عديدة ملحقة، غنية بالزخارف. ومن بين ملاحق الرواق توجد المكتبة التي لم أر مثلها إلى الآن في أى مكان في إسبانيا، وهى عبارة عن بناء شامخ مقبب على طريقة الكنائس، بها كتب قديمة جداً و عظيمة في أوراق عن الكليات وخاصة الفلسفة واللاهوت.

بها خمسة وعشرون كاهناً، وكثير من القساوسة أصحاب المعاشات، وثمانية عشر قسيساً وثمانية من أصحاب المقام. معاشات ومميزات الرجال الحكماء كثيرة. الهيئة القضائية الأسقفية أيضاً عبارة عن مبنى جميل. الناس مهذبون ويعيشون على الزراعة أكثر من التجارة. سوق الطعام رائع جداً ، ستة خصيان كانوا يساوون دوقة Ducado... الخ.

الدراسة السلمنقية

لا توجد في كل إسبانيا دراسة عامة أكثر شهرة من الدراسة في سلمنقة. عندما زرتها، أكدوا لي أنه يحضر إلى الفصول خمسة آلاف طالب يتوزعون بين كل الكليات.

خصوبة الأرض الزراعية، أدت إلى رخص أسعار الطعام في الأسواق، وهذا هو السبب في توافد الطلاب في أعداد كبيرة، إلى جانب دماثة أخلاق الأساتذة الذين يقومون بالتدريس، وكان عددهم كبيراً. بها مدرسة جميلة جداً شيدت على نفقة الملك، بها مقاعد حجرية على نمط الأروقة في الأديرة، واسعة، ومضاءة، مع مقاعد مزينة. بها أيضاً مكتبة كبيرة. ذات قباب، ومرسوم في أعلاها الأبراج، والبروج والفنون الحرة. كبيرة مثل مصلى العذراء في نورمبرج. رأينا التلاميذ يقرأون ويتلون الدروس. كانت أخلاقهم حسنة، ويمضون في ملابس جيدة وأبدوا إعجابهم بملابسنا ولغتنا. أعجبتني كثيراً هذه المدرسة. توجد مكاتب كثيرة في شبه الجزيرة مثل بلد الوليد Valladolid ولشبونة Lisboa وطليطلة Toledo، ولكن لا يوجد ما يماثل هذه المدرسة.

كهف السحر

هناك كهف تحت الأرض، توجد به عقود وسراديب، وفوقه مصلى لـ Cipriano السعيد. قبل مجئ المسيح، وحتى في زمن المسلمين، كان السحر يمارس كثيراً في فارس، وإسبانيا وفي بريطانيا، كما يمكن أن نرى في الكتاب الثلاثين من Histria Natural de Plinio لكن لا يوجد أحد يعتقد أن السحر يمارس هناك. أعتقد أنه كهفٌ لـ Sibilino، وأنه في

الحقيقة، كانت تلقى هناك خطب كهنوتية، كما كان يعمل في كهف الكاهنة ، في ريف نابولي. العامة يرْوون ألف خرافة حول هذه الكهف. يوجد في مكتبة الكاتدرائية كتاب عن علم الفلك، والأبراج والزودياك Zodiaco (منطقة أو دائرة البروج)، بمواقيت وصفات عديدة، ومن الخطأ اعتباره كتاباً في السحر.

يوجد أيضاً بيت عظيم، أقيم على نفقة السيد أسقف اشبيلية[١٥٠]، له دخل، ومتاع، يعيش هناك ثمانية عشر طالباً، من بينهم اثنان يدرسون الفلسفة، وأربعة الطب، وأربعة اللاهوت، وأربعة القانون، وأربعة الشريعة. انها مدرسة جميلة في الحقيقة!

لا توجد في المدينة أشياء أخرى جديدة تستحق المشاهدة. بها كثير من الفرسان والنبلاء الذين يعيشون من مواردهم الخاصة.

١٤٩٥

في اليوم الرابع من يناير، بعد تناول الطعام، غادرنا سلمنقة، وبعد أربعة فراسخ وصلنا إلى قرية ألبا Alba التي كانت تحت سيادة دون فادريكى الطليطلى Don Fadrique de Toledo، دوق ألبا وكونت شلبطرة Salvatierra، الذي يمتلك هناك قلعة عظيمة. استيقظنا صباحاً، ومررنا بـ (Boadilla (Bonvillam، وبعد ثمانية فراسخ، وصلنا إلى بيافرانكا Villafranca.

في اليوم السادس من يناير، بعد سماع القداس وتناول الإفطار، قطعنا ستة فراسخ عبر جبال شاهقة ومثلجة؛ وفي اليوم التالى نزلنا منها نحو وادٍ جميل، ملئ بالكروم، والزيتون والقسطل الفخم، ثم وصلنا إلى مدينة كولميناريس Colmenares، وعبرنا سهلاً جميلاً، شاهدنا قنطرة رئيس الأساقفة، وهى قنطرة شامخة وعالية، لها عقود وبرجان في غاية المناعة، شيدهما أسقف مهم. في اليوم السابع وعبر جبال شاهقة ووعرة، وصلنا إلى دير جوادا لوب (وادى لوب) Guadalupe الشهير.

ديـر جوادا لـوب Guadalupe

سرنا من سلمنقة إلى اشبيلية، باتجاه الجنوب، تظهر جبال شاهقة جداً، يبلغ طولها سبعة أو ثمانية فراسخ. بهذه الجبال أوكار للحيوانات الضارية، ووديان وعرة، مليئة بالوهاد، التي في وسطها، في مركز الدائرة، بجانب نهر جوادا لوب (وادى لوب) الصغير، يقع هذا الدير. Guada في لغة المسلمين تعنى نهر (وادى). ومن ثم فان جوادا لوب Guadaluppa تعنى نهر الذئاب، لأن هذا المكان ملئ بهذا الحيوان.

كان المسلمون يسيطرون لمدة سبعمائة عام على كل منطقة الوادى الكبير حتى إشبيلية، كانوا على دين الإسلام، أسقف Hispalene أتى بالدمار على إسبانيا، دفنت رفاته في أماكن متعددة، وفر بعض كهنته، حيث أخفوا أيقونة العذراء في هذا المكان البرى البعيد عن الطرق. ليوناردو Leonardo أسقف اشبيلية، أرسل إلى روما أخاه أيسيدورو Isidoro رسولاً إلى البابا جريجوريو الأول Gregorio I، الذي أهداه هذه الأيقونة، التي في زمن الوباء الكبير في روما، كان رئيس الكهنة يحملها إلى بيوت المرضى.

بوفاة ليوناردو، خلفه في الأبرشية أيسيدورو، بعد ذلك بسنوات طويلة قام الملك فرناندو بغزو إشبيلية، أحد الرعاة فقد بقرة وسمع صوتاً عالياً يقول له: هكذا عمل الراعي[١٥١]، وأقيمت أساسات مصلى، وبعد ذلك أقيم دير للعذراء الشهيرة بمعجزاتها الكثيرة. إنه بناء فخم جداً ومزخرف، وبالنظر إلى ضخامته، فإنه لا يوجد أجمل منه[١٥٢].

موقع الدير

يقع هذا الدير باتجاه الجنوب على سفح جبل شاهق، تنساب منه أربعة عيون، تستقر مياهها في أماكن مختلفة. تحيط به الجبال من كل جوانبه، ماعدا الجنوب، حيث تقع بعض الروابى، تمثل سهل الوادى الكبير. إنه موقع زاخر بأشجار العنب والزيتون والبرتقال. كما تتوفر هناك الفواكه الأخرى بكثرة.

في الثامن من يناير كانت طيور الشحرور وأنواع أخرى من الطيور تشدو، مثلما يحدث في بلادنا في شهر مايو.
مياه نهر (وادى لوب) جوادا لوب عذبة وغنية بالأسماك.

كنيسة الدير

دخلنا أولاً إلى الكنيسة، وشكرنا العذراء الطاهرة، تجولنا فيها، كان البناء عالياً، فخماً، منيراً، له قبة شاهقة. أمام مقصورة الكهنة.

أمام هذه المقصورة يوجد المذبح الأعظم، به ثلاثة عشر درجاً، بهذا النمط ، يستطيع الآباء أن يشاهدوا أسرار القداس بسهولة من مقصورة الكهنة العالية الخلفية. أيقونات المذبح الأعظم كبيرة وعالية، صنعت كلها من الذهب والعاج، وفي وسطها تلمع هذه الأيقونة المقدسة التي عثر عليها الراعى. يتدلى أمامها ستة عشر مصباحاً من الفضة وأخرى من الفضة المذهبة، التي توقد ليلاً ونهاراً. وفي الوسط يوجد أكبر واحد منها، يزن مائة وثمانية وعشرين ماركا Marcos من الفضة – مهداة من رعاة هذا الإقليم – الذين اكتشف أباؤهم هذه الأيقونة. توجد مصابيح أخرى هبة ملكية من النبلاء. رأينا كذلك على الجانب، شمعة ناصعة البياض، من خمسة أو ستة عشر ثنتتاريو Centenarios، أهداها ملك البرتغال إلى العذراء، بسبب وباء خرب مملكته، وبعض متاعب البحر الخطيرة، حيث أستقبل الذين نجوا في أمان في الميناء(١٥٣). رأينا كذلك أصفاداً من الحديد لا حصر لها، جئ بها إلى هناك بواسطة الأسرى الذين تحرروا من المسلمين، بشفاعة العذراء، بعضها كان ثقيل الوزن، يبلغ عشرين أو خمسة وأربعين رطلاً. يا له من شئ فظيع أن نري أو نسمع عن حجم الرعب الذي تحمله المسيحيون تحت وطأة هذا الوزن الثقيل، الذين كانوا يستعبدون ويسخرون في الأعمال الشاقة!.

كانت المعجزات التي تشرق هناك كل يوم كثيرة وكبيرة، تملأ صفحات ثلاثة كتب كبيرة، توجد كتب أخرى تزود بها باستمرار. وليس من المستغرب، أنه لا يوجد مستحيل أمام إرادة الله.

شاهدنا كذلك جلد تمساح ضخم، أحضره بعض البرتغاليين الذين نجوا من الخطر في غينيا La Guinea، وأهدوه إلى العذراء، وظهر سلحفاة عملاقة، كان مثل حوض يمكن أن يغتسل فيه رجل، ونقنان كبيران يبلغ طولهما أربعة أذرع، وشبرين في العرض عند القاعدة، أخذوا من حوت ضخم في البرتغال، وأخيراً رأينا نابا طويلاً لأحد الفيلة.

مقصورة الآباء أقيمت أعلى الجزء الخلفي من الكنيسة، في اتساع كبير، بها مقاعد جميلة وكتب كثيرة لم أر مثلها في حياتي. عرض كل ورقة منها أربعة أشبار، وطولها ستة.

بالكنيسة أكثر من ثلاثين مذبحاً، وكل المصليات غنية بالزخارف، كان هناك مائة وأربعون أخاً مع الرهبان، وسبعون مقصورة كنسية، بها موظفون كثيرون، وصناع مهرة، ورعاة وفلاحون، كانوا في الدير وخارجه، يعدون طعاماً لتسعمائة شخص. غير الصدقات التي كانت توزع بكثرة لكل من يطلبها. بالإضافة إلى الكثير من الموظفين، والفنيين، والرعاة الذين ذكرتهم من قبل. بها أيضاً الكثير من المنشدين، الذين كان لديهم ورع عظيم للسيدة العذراء، ينتمون لنظام أوجسطين، وثيابهم مثل ثياب المنتمين لسان خيرونيمو Jerónimo: تنورة بيضاء وشريط بنى اللون، أو باللون الطبيعي للصوف. أسس جريجوريو الثاني Gregorio II هذا النظام، وأعطاه هذا القانون.

بهو التسليم، والسراديب، والأنابيب

بعد الغداء، دعونا إلى الدير، حيث استقبلنا أولاً الأب المحترم رئيس الدير، وهو رجل وقور، يبلغ من العمر خمسة وستين عاماً، بشوش. في دهليز بهو التسليم توجد نافورة جميلة. دخلنا فيه، كانت غرفه فاخرة وبعد حديث طويل، أصطحبنا أبوان إلى سرداب واسع، محفور إلى أكثر من جبل في العمق، حيث شاهدنا بعض البراميل الضخمة والدنان الهائلة، المملوءة بالنبيذ. مضوا بنا بعد ذلك إلى سردابين آخرين، لم تكونا أصغر من السراديب السابقة. عند خروجنا من السراديب، شاهدنا حوضاً واسعاً مليئاً بالماء الذي يؤتى به من عين في الجبل، ويتوزع بكميات كبيرة بواسطة أنابيب مختلفة، تمد أحواضاً كثيرة في الدير بالماء. المطبخ وحجرة الاجتماعات والمستشفي والرواق وخزانة الأشياء المقدسة... الخ. كل الغرف تمد بالماء العذب والصالح للشرب. ببراعة شديدة، ونفقات باهظة، عُملت هذه الأنابيب من الرخام والنحاس والرصاص والصلصال من مختلف الأنواع.

قاعة طعام الرهبان، والخدم، والمطابخ

قاعة طعام الآباء واسعة، عالية جداً وفاخرة التأسيس، يبلغ طولها خمسمائة وخمس خطوات. غرفة طعام الخدم والموظفين جميلة كذلك، وواسعة جداً. يتناول فيها أكثر من مائتى شخص طعامهم يومياً. بينهم القساوسة الخمسة الذين يديرون الأسرار الكنسية للخدم، مع التلاوة أثناء الطعام، في سكون شديد، عند الباب يوجد صندوق كبير للصدقات.

بها أيضاً مطبخ للخدم به آنية كبيرة من النحاس، تكفي لطبخ ثور داخلها، وآنية أخرى للماء الساخن والبارد، بأنابيب مناسبة. المطبخ الخاص بالآباء شامخ جداً. تتصل بقاعة الطعام الحانة وخزانة الطعام الرائعة، جميلة التأسيس، لا يوجد أعظم جودة منها.

في الحادى عشر من يناير، الذي كان يوافق يوم الأحد، الأب.....[١٥٤] واحد من المستشفي دلنا على قاعة الطعام، حيث تناولنا الطعام مع مائة من الآباء والرهبان، في ورع كبير وبهدوء في التلاوة أثناء الطعام، لقاء الآباء في ورع كبير، كان يبعث إلى احترام الله، وإن كان الذنب كبيراً.
عوملنا معاملة رائعة جداً.

صناع النعال، الخياطون، الخبازون، الإسكافيون، الحدادون ومهن أخرى

رأينا كثيراً من العمال يعملون بصفة مستمرة في مصنع للنعال، وكميات كبيرة منها، لم نر مثلها أبداً في حياتنا، وكان بين الإسكافيين ودابغى الجلود ألمانى من دانزنج Danzing في بروسيا (Brusia) Prusia .

توجد في المخبز أكياس كثيرة من الدقيق، ومن كثرتها كان من الصعب أن نصدق هذه الكمية. إذ إنهم كانوا يستهلكون في الأسبوع عشرين حملاً من الدقيق لعمل الخبز اللازم للدير وصدقات الفقراء.

رأينا في محلات الخياطة كذلك أثواباً لا تحصى، وقمصاناً من الصوف خاصة بالرهبان، مسجلة باسم كل واحد

منهم، كل شئ بكثرة. كان يوجد قس ألماني من شتيتن Stettin من لاماركا La Marca. كما كان هناك كثير من الفنيين والقساوسة الألمان.

ورش الحدادين هائلة، وضوضاء المطارق صاخبة، والمبارد... إلخ. كانت الورش التي تخص الدير بأعداد كثيرة، مما يدفع إلى الاعتقاد أنها مدينة صغيرة. بها صوامع هائلة. لا يمكن وصف كل شئ.

البساتين والحدائق

دخلنا بستانين واسعين وجميلين، يقعان على سفح جبل، حيث توجد قنوات للماء لرى الإترنج، والبرتقال والريحان، والليمون، والزيتون والأشجار الأخرى. كانت الثمار ناضجة وأوراقها الخضراء، تعطى منظراً جميلاً.

المكتبة، وغرف النوم، والمستشفي

لديهم مكتبة زاخرة بالكتب، مجهزة بستة وثلاثين مكتباً جميلاً، وكتب فخمة التجليد.

غرفة نوم الطلبة، بها سته وعشرون سريراً، معدة إعداداً جيداً، وفي الوسط مصباح يوقد طوال الليل. وبنفس الطريقة كانت غرف الرهبان، بها اثنان وعشرون سريراً، وكلها معدة إعداداً جيداً.

المستشفي كان نظيفاً جداً بأبهائه وغرفه، به نافورة جميلة وصيدلية قيمة، شئ لايمكن تصديقه.

الـــرواقان

بها رواقان واسعان جميلان، شيد أحدهما فوق الآخر، الأعلى منهما كان الأكثر جمالاً. في الوسط توجد نافورة، لها حوض من النحاس المسبوك، بضور جميلة، في الزاوية، بجوار قاعة الطعام، توجد نافورة جميلة أخرى. حيث توجد أشجار البرتقال والسرو... إلخ .فوق هذا كان الرواق الآخر، الذي يطل على مقصورة الكهنة العليا، وفي أركانه توجد أيقونات ثمينة للصليب، والعذراء وقديسين آخرين، حيث مكان إقامة الرهبان، وكذلك مصليات ثمينة، وكتب كثيرة بمقصورة الكهنة.! كم هو ورع وجميل هذا المكان! أينما كنت يمكنك أن تمسك البرتقال باليد من علي الشجر. من الصعوبة وصف كل هذا الجمال.

الغـــرف الملكية

لملوك قشتالة هنا قصور فخمة، مزودة بنافورات وغرف معدة إعداداً جيـداً[155]، ورأينا فيها بعض خدم الملكة يحرسون صناديق كثيرة للملوك، وببغاوات كثيرة، بينها ببغاء له خمسة ألوان، رأس رمادى، ورقبة خضراء، وصدر أسود، وذيل أحمر، وجناحان زرقاوان، ينتهيان باللون الأخضر. هؤلاء الخدم كانوا في انتظار الملك والملكة[156]. الملكة تكن لهذا الدير حباً شديداً، وعندما تكون فيه تقول إنها في الجنة. تساعد بصفة خاصة في الصلوات، والخطبة الخاصة الفخمة فوق المقصورة.



حمار يحمل أكياس الطحين في إسبـــانيا
روحة رقم XXXIV (ورقة ٣٩)

خزانة الأشياء المقدسة وبيت المال

يوم الأحد الذي كان يوافق الحادى عشر من يناير، وبعد الغداء الفاخر في غرفة الطعام، حضر الأب رئيس الدير مع مائة أب وراهب، وبكل وقار وورع دخلنا إلى خزانة الأشياء المقدسة، لمشاهدة ملابس القساوسة والأشياء الأخرى.

أول ما رأيناه هناك كانت خزانة بعشرة صلبان عالية، جميلة للغاية، إلى جانب ثلاثين صليباً تزين المذابح. في أيام الأعياد يعلق صليب من هذه الصلبان فوق كل مذبح. كانت مصنوعة بإتقان كبير وفن عظيم، وتزن ما بين خمسة أو ستة أو عشرة ماركات Marcos. يوجد هناك أيضاً طست وكثير من الأباريق الصغيرة، للماء والنبيذ، وكلها من الذهب والفضة.

الخزانة الثانية بها عشرة صناديق خشبية، وفي كل واحد منها ثلاثة أسمطة كلها موشاة بالذهب - وبعضُها بلوحات من الذهب - وقماش على نمط المنخل ملئ بالدر والأحجار الكريمة الأخرى(١٥٧). هناك فقط توجد الجبهات الأمامية، هبة ثمينة من ملوك قشتالة.

كانت الخزانة الثالثة مليئة بمفارق سلحفاة سوداء مرصعة بالذهب - للصوم الكبير - أيقونات أخرى من الفضة والفضة المذهبة.

الخزانة الرابعة كانت تحتوى على أربع وعشرين أيقونة كبيرة من الفضة، الغنية الزخرفة بالدر والأحجار الكريمة. يوجد بها صليب كبير، عالٍ وفي أسفله توجد أيقونات للسيدة العذراء، ولسان خوان المجدلى San Juan Magdalena ولسان

خوسيه San José [١٥٨]... إلخ. كلها من الذهب الخالص، أهداها أحد ملوك قشتالة للسيدة العذراء، قيمة كل واحدة منها ستة آلاف دوقة Ducados، وتاج من الذهب الخالص المرصع بالأحجار الكريمة والدر. والتي من بينها شكل لكمثرى كبيرة الحجم. قال خادم الكنيسة إن هذه الخزانة تساوى أكثر من عشرين ألف دوقة.

الخزانة الخامسة، كبيرة الحجم، مصنوعة من السرو، تحفظ بيت قربان الخميس المقدس el Jueves Santo، بها ألواح من الذهب والفضة، وأيقونات مذهبة بالدر والأحجار الكريمة، ثقيلة الوزن، تحتاج إلى عشرة من الرجال لنقلها إلى مقصورة الكنيسة. أؤكد أن بيت الرهبان المقدس لا يقدر بثمن. أعتقد أنه ليس هناك ما يماثله في العالم، يقدر بأكثر من ألف مارك Marco[١٥٩].

الخزانة السادسة حافلة بالكؤوس، بعضها كان من الذهب الخالص، أرضيتها مغطاة بحصى ثمين وبالدر والأحجار الكريمة، كانت تحمل في المواكب الدينية في أيام الأعياد لأداء الصلوات. بها كذلك بعض الآنية الفخمة للنبيذ وللماء المخصص للذبح. قيمة هذه الخزانة مرتفعة في الحقيقة.

في الخزانة السابعة توجد سبع عشرة أيقونة، وصليبان عاليان وإكليل ثمين من الذهب الخالص. أؤكد أن هذه الخزانة تساوى أكثر من خمسة عشر ألف دوقة Ducados.

في الخزانة الثامنة يوجد وعاء القربان، يزن مائتين وخمسة وخمسين ماركا، تكلفت زخرفته ألف مارك. بيت الرهبان المقدس من الذهب الخالص ومن الأحجار الكريمة.

قيل أنه اشترى بأربعة آلاف مارك. يوجد أيضاً صليبان جميلان عاليان من المحارات وورود من الذهب الخالص.

الخزانة التاسعة بها اثنا عشر درجاً، يوجد فيها ستة وثلاثون من حلل الشمامسة، كلها موشاة بالذهب، والدر والأحجار الكريمة، ودرج بمقدمة ودعامات، وأثواب أخرى ثمينة.

الخزانة العاشرة كانت زاخرة بشمعدانات ضخمة عالية ومربعة، من أجل المذابح، ومباخر غنية، من الفضة والذهب والأحجار الكريمة.

الخزانة الحادية عشرة ملينة بملابس القساوسة الموشاة بالذهب، للقداس والاحتفالات الرسمية الكبرى، درج آخر، ملئ بملابس القساوسة الحمراء من القرمز، لأعياد الحواريين، ودرج آخر به ملابس قساوسة من حرير بسيط للأعياد العادية.

الخزانة الثانية عشرة مليئة بقماش يستعمل لتزيين المذابح، من الذهب والفضة وغيرها.

توجد أيضاً خزانات أخرى كثيرة لملابس القساوسة اليومية، التي لا يمكن إحصاؤها. في الحقيقة إن المسلمين كانوا يستطيعون أن يستردوا ممالكهم المفقودة بهذه الثروة التي كانت تحتوي عليها هذه الخزانة، إن خزائن هذا الدير لم تكن أصغر من خزائن ملوك قشتالة.

المستشفى

خارج الدير، لديهم مستشفي، جميل، ضخم، فخم التاسيس، مربع به اسرة كثيرة، كانت بعض أبهائه مخصصة للجرحى، وأخرى لمرضى الحمى، وأخرى لإطعام الفقراء، وكثير من الغرف مليئة بالبطاطين، والشراشف، وكل ما يتعلق بهذا المستشفي العظيم.

إيرادات الدير

ايرادات وثروات هذا الدير، كانت تدرها أساساً الماشية، التي كانت لا حصر لها. لديهم أربعة آلاف بقرة، وكثير من النعاج والخيل والزيت والنبيذ والقمح. من المعتقد أن دخلهم السنوى كان أكثر من عشرين ألف دوقة Ducados. يعيشون في غاية الاحترام.

كل شئ هنا رتب بعناية. يوجد كذلك رسامون مهرة وناسخون ومنمقون وصائغون ومزخرفون، ليس من السهل الحديث عن كل شئ. أوه يا لها من كتب قداس رائعة مثيرة شاهدناها هناك!

كان بناء الدير مدهشاً، كل شئ أعد للمتعة والجمال. تبادر إلى ذهنى قول لـ Salustio "مع الوئام تكبر الأشياء قليلة الأهمية، ومع النزاع تنهار الأشياء المهمة". وهذا النزاع لا يوجد أبداً حيث التقوى لا يُشق غبارها.

أعتقد أن أصحاب الجلالة يعرفون كل الأسرار المخبأة في الخزانة ولديهم روايات عنها، يجب أن يُكتب الكثير حول هذا الدير الشهير، لكنى أترك ذلك للاختصار.



راع قشـــتالى
لوحة رقم LV (ورقة ٢٠)

الطريق إلى طليطلة

في الحادى عشر من يناير، عدنا عبر هذه الجبال الشاهقة، ومررنا بجسر الأسقف el Puente de Arzobispo، ثم توجهنا إلى طليطلة التي تبعد عن وادى لبب Guadalupe مسافة سبعة وعشرين فرسخاً. من el puente de Arzobispo وصلنا إلى طلبيرة Talavera المدينة الشهيرة، التي تقع على ضفاف نهر التاجو Tajo، بقنطرة من اثنين وعشرين عقداً. أسقف غرناطة أقام فيها ديرين أحدهما لسان خيرونيمو والآخر لسان فرانسيسكو(١٦٠). هناك كنيسة كاتدرائية، كبيرة مثل كاتدرائية Nordlingen وتقع في سهل جميل، غنى بالنبيذ والزيت والمنتجات الأخرى. خرجنا من المدينة في الرابع عشر من يناير، ووصلنا في المساء إلى مدينة طليطلة العريقة والشهيرة.

طليطلة Toledo

طليطلة واحدة من اكثر المدن شهرة في إسبانيا، تقع على جبل ومحصنة تحصيناً قوياً. يحيط بها نهر التاجو من ثلاث جهات، عبر واد عميق. لهذا فإن موقعها يشبه موقع مدينة برن Berna في سويسرا Suiza. أوه يا لها من أسوار قوية جداً، من انشاء المسلمين، وكم هى حصينة بالطبيعة والفن!

بها الكاتدرانية التي مات فيها الكاردينال الأسقف التي تحمل اسمه، دون بدرو دى مندوثا Don Prdro de Mendoza، والذي نقل جثمانه من وادى الحجارة Guadalajara عبر اثنين وعشرين فرسخاً، بورع كبير، واحتفال مهيب، لا يمكن عمل أكثر منه(١٦١).

في ضواحى المدينة رأينا أشخاصاً كثيرين من الرجال والنساء بأعداد لا يمكن تصديقها، فإنها مدينة كبيرة وأكثر ازدحاماً بالسكان من نورمبرج.

هذا الكاردينال ترك ثروة طائلة من الذهب والأثاث، تبلغ قيمتها أكثر من مائتى ألف دوقة. كنيسة طليطلة ربما هي الأكثر غنى بين كل كنائس إسبانيا.



علية القـــوم في مملكة طليطلة
لوحة رقم XXVI (ورقة ١٧)

الكاتـــدرائية

لم نر في إسبانيا كاتدرائية تضارعها في الجمال والحسن. طولها مائتان وعشرون خطوة، وعرضها سبعة وأربعون. بها رواقان على كل جانب، وخلف المقصورة ثلاثة، والأخيرة منها أكثر انخفاضاً. المصليات شامخة، وواسعة جداً وجيدة الزخرفة. توجد بها قبور الملوك. أنفق على هذا المبنى من غنائم المسلمين، وبعد الاستيلاء على طليطلة، كان المسلمون يفقدونها ثم تعود إليهم[١٦٢]. مقاعد المقصورة كثيرة، أعيد نحتها من جديد بواسطة نحات من ألمانيا. في كل مقعد من المقاعد نحت منظر جميل عن غزو غرناطة، والمدينة والقلعة، بطريقة يمكن معها تخيل الحرب الدامية كما لو اننا نشاهد أحداثها بأعيننا[١٦٣].

بها كذلك برج شاهق وجميل، صعدنا إلي أعلاه لمشاهدة المدينة، رأينا الناقوس الأكبر في كل إسبانيا، الذي يزن أربعمائة Centenarios كبرى، بموازيننا.

خزانـــةالكنيسةوثــــرواتها

خصصت ثمانية آلاف دوقة سنوياً لصيانة هذه الكنيسة، منها يعتنى بالكنيسة، ويُرمم ماتلف، وتُشيد منشآت جديدة. خزانة الأشياء المقدسة بها، تأتي بعد خزانة وادى لب، التي أعتقد أنها الأكبر بل ربما تفوقها. مضوا بنا لنقابل البارون التقى ألفونسو دى أورتيز Alfonso de Ortiz، الكاهن والفقيه والشاعر المفلق، الذي كان معى في غاية اللطف[١٦٤]. رأينا أولاً بيت القربان المقدس الواسع، الذي تزينه رسوم جميلة جداً، يعتقد أنها قد أحضرت من مصلى Sixto IV في روما.

أوه لا أستطيع أن أصف كم كانت هذه الصور مدهشة!

شاهدنا أولاً أكثر من مائة صورة وكؤوساً وصلباناً وأشياء أخرى وتماثيل نصفية، كلها من الذهب والفضة، مليئة برفات القديسين.

فتحوا خزانة كبيرة، فرأينا فيها صليباً عظيماً، مزداناً بالأحجار الكريمة والدر الفاخر، وقطعة كبيرة من صليب.

حقيقة كم كان هذا الصليب ثميناً! إنجيل من ثلاثة أجزاء من رق عذرى والوجهان مصقولان بدقة، كان النص على الجوانب، وتحته شرح صوفي. وفي الوسط أشكال تمثل التاريخ مزدانة بالذهب واللون الأزرق. أعتقد أنه لا يوجد في الدنيا إنجيل مماثل. أوه ما أروع التجليد، من الحرير، المزين بالأحجار الكريمة، والدر وأشياء أخرى.

توجد كذلك لوحة كبيرة من الفضة، بها فجوات صغيرة مليئة برفات القديسين.

في الخزانة الثالثة تُحفظ خمسة من تيجان الأسقف، من بينها واحد أمر بصنعه الكاردينال الأسقف، بخمسة وعشرين ألف دوقة، في فخامة متناهية، مزين بالدر والأحجار الكريمة. توجد كذلك أيقونتان، وجواهر أخرى ثمينة، يقدرون هذه الخزانة بأكثر من مائة ألف دوقة.

الخزانة الرابعة تحتوى على وعاء، يزن أكثر من ثمانمائة مارك. لم أر أبداً أكبر منه. توجد أيضاً عصاً من

الفضة. وصلبان أخرى ثمينة جداً من الأصداف المطعمة بالذهب.

في الخزانة الخامسة يوجد صليب كبير من الذهب من مائة وخمسين ماركاً، ومباخر، وشمعدانات من الفضة.

ملابس الخدمة المدنية للقسس

أطلعونا بعد ذلك على خمسة خزائن، بكل واحدة منها سبعة أدراج، وفي كل واحدة منها مجموعة كاملة من ملابس القسس للخدمة المدنية، عبارة عن عباءة ثوب الكاهن لإقامة القداس، وحلل الشمامسة، وشيلان القساوسة وقمصانهم... إلخ. في كل عيد من الأعياد الكبرى مثل عيد الفصح، والعنصرة، والغطاس، والميلاد، وكل أعياد السيدة العذراء، لديهم ملابس قساوسة خاصة، كلها من الذهب والفضة، والدر والأحجار الكريمة، لاتقدر بثمن. لم يتمكنوا من إطلاعنا علي الأشياء الأخرى وذلك بسبب وفاة الكاردنيال، حيث كان الحزن العميق يلف الكهنة.

لم أدهش، أن كنيسة طليطلة كانت ثمينة. فقد جاء في أحد الأمثال المتداولة: "في إسبانيا: طليطلة غنية، إشبيلية كبيرة، شانتياقب قوية، وليون جميلة".

إلى جانب تلك الخزائن القيمة، المغلقة بأقفال قوية جداً، توجد خزانة أخرى للأشياء المقدسة في الكنيسة، حيث تُحفظ ملابس القسس الخاصة بالأعياد العادية مثل عيد الحواريين والشهداء والمهرجانات... إلخ.

الكهنة والكهنة أصحاب المعاشات

لديهم أربعون كاهنا، معاشهم ثلاثمائة دوقة، وخمسون من الكهنة أصحاب المعاشات، معاشهم مائة دوقة، وقسس يرعون المصلى الملكى والمصليات الأخرى، معاشهم أربعون دوقة . كانوا خمسين قسيساً خاصا، وأعتقد أن هناك ثلاثة عشر من أصحاب الرتب الرفيعة. معاش رئيس الشمامسة أربعة آلاف دوقة.

دير سان خوان

San Juan de los Reyes

على نظام رهبنة سان فرانسيسكو

أسس الملكان فرناند وايسابيل، هذا المبنى من الأحجار المقطعة والمربعة، شامخاً قوياً، يثير الإعجاب. تم الانتهاء من بناء الكنيسة ماعدا المقصورة، التي كانت كثيرة الزخرفة بشعارات الملك والملكة، وصور سان خوان المعمدان – الذي كان سيداً – وقديسين آخرين. وكان الرواق جميلاً جداً أيضاً. في خارج الكنيسة، حول المقصورة، يعلقون في الأجزاء العليا من الأسوار سلاسل من الحديد خاصة بالمسيحيين المحررين في غرناطة. أعتقد أن عربتين لايمكنهما نقلها. كل هذا في ذكرى التحرر المسيحى والأمة الأسيرة. أكد لى المهندس المعمارى المشرف على البناء أنه بيع عند الانتهاء من بنائه بيعا جيداً عند التثمين، بمبلغ يصل إلي مائتى ألف دوقة. الرهبان كانوا يتبعون نظام سان فرانسيسكو ويحيون حياة مثالية. التقيت هناك براهب على هذا النظام في بريطانيا،

الذي كان في نورمبرج سنة ١٤٩٠، رجل عاقل وشديد الاحترام لدى الملوك، الذي قص عليّ كثيراً من الأخبار.

عندما قام الملك والملكة بغزو غرناطة، وحولا إسبانيا إلى وضع أفضل، أقبلا بحماس على الدين، أصلا الكنائس القديمة، شيدا أخرى جديدة، وجهزا أديرة عديدة. حالياً يشيدان في آبلة Avila ديراً جديداً، أعظم من الأديرة الأخرى، يسمى دير سانتا كروث Santa Cruz[١٦٥]، على نظام رهبنة سانتو دومينجو، يوجد به قضاة للتحقيق مع المرتدين والملاحدة. تكلف كما يقولون، أكثر من مائة ألف دوقة.

وشيد الملك أيضاً في بلد الوليد Valladolid ديراً آخر على نظام المبشرين. ألحقت به مدرسة للطلاب على نظام سانتو دومينجو، وكان يزوده بما يحتاجون إليه. مما جعلهم يعتقدون أن هذا الملك بفضل ذلك، كان شارلمان آخر. وكذلك الملكة.

أعتقد أن المباني من هذا النوع تتكلف كثيراً وخاصة المنقولات، وبصفة أساسية منقولات المرتدين، الذين كانوا الأكثر ثراء في كل إسبانيا، والتائبون من الإلحاد، الذين أهلكوا بالنار، واستولت الهيئات الملكية على منقولاتهم. أصلحوا كذلك أديرة كثيرة، ليس من السهل إحصاؤها أو تصديقها.

دير القدس ترينيداد Trinidad

في هذا الدير يوجد رهبان Santa María de la Merced، أثوابهم كلها بيضاء، ويضعون شعاراً صغيراً في الجزء الأمامي، وهو صليب أزرق سماوي وتحته شعارات ملك أراجون. أقيم بغرض تخليص الأسرى المسيحيين من

الوثنيين. الصدقات التي تجمع تُوجه إلى المغرب، وفي بعض الأحيان يحضرون فدية لأربعة وثلاثين، أربعين وحتى خمسين أسيراً. لديهم في هذا الدير كنيسة كانت من قبل مسجداً للمسلمين. في هذا المكان ترجم كتاب الأخلاق لأرسطو بشروح ابن رشد، حسبما قيل في نهاية كتاب الأخلاق لابن رشد(١٦٦).

دير سان أوجستين San Agustin

يقع هذا الدير في زاوية من المدينة، بإتجاه الغرب. كان فيما سبق قلعة لملك المسلمين، وكما يفهم من أساساته وغرفه وسراديبه، وكل ماتبقى منه أنه كان في غاية الحصانة. الرهبان أوقفوا بسبب تكريسهم للفجور وسماحهم بتدمير الدير. طردهم الملك، ووضع هناك رهباناً من نظام Observancia. منهم الأب رئيس الدير وهو شخص حكيم وورع، قام بإصلاح الدير. قص على كثيراً من الأخبار. للدير منظر خارجى جميل.

على سفحه يوجد ميدان واسع، يسمى الميدان المقدس، الذي مات فيه على يد الوثنيين في عصور سابقة، خمسة وعشرون ألف مسيحى من الرجال والنساء، أثناء احتفالهم بعيد السعف. اليهود الذين كانوا بأعداد كبيرة اختفوا، ودخلوا فجأة عبر برج للمسلمين، الذين كانوا يحتلون المدينة، وهاجموا المسيحيين فجأة، وأوقعوا بهم مذبحة مرعبة واستولوا على المدينة. هذه القلعة التي دخلوا منها إلى المدينة، دمرت وخربت اليوم.

في طليطلة توجد أديرة أخرى كثيرة، في أحدها خمسون راهبة على نظام سان كلارا San clara de la Observancia. الملك طرد بعض الرهبان من نظام سان بينيتو، وأحل محلهم رهباناً من نظام سانتا كلارا، الذين كانوا من أحسن الطوائف في مملكة قشتالة. أخبرني رئيس دير رهبان سان فرانسيسكو الذي ذكرته فيما سبق أن الأديرة التي كانت تحت رعاية الملك بطليطلة، كانت ستة أديرة، اثنان خاضعان لنظام فرانسيسكو وأربعة للرهبات.

آداب الشعب

هذا الشعب لطيف جداً، لديهم إكليروس يثير الإعجاب(١٦٧).

مدريد

في السابع عشر من يناير، خرجنا مبكراً جداً من طليطلة، مشينا فرسخين عبر أراض خصبة وسهول غنية بالعنب والقمح، وصلنا في أول الليل إلى مدريد، حيث كان أصحاب الجلالة يستريحون في هذا الوقت(١٦٨).

في الخارج على بعد نصف ميل من المدينة – التي تقع على تل – كانوا في دير سانتا ماريا دل باسو Santa María del Paso من نظام رهبنة سان خيرونيمو، وكانوا في عزلة في هذه الأيام بسبب الحزن، يؤبنون الكاردينال المتوفي(١٦٩).

رأيت هناك الملك والملكة، مع ابنهما، يستمعون إلى القداس في خشوع كبير. رأيت هناك أيضاً ابنيّ آخر ملوك

غرناطة، شابان جميلان رشيقان، لديهما ثقافة جيدة في ديننا حيث كانا يدينان بالمسيحية، الابن الأكبر كان يحمل اسم فرناندو Fernando والأصغر خوان Juan[١٧٠].

مدريد مدينة كبيرة مثل Biberrach (Bibrach) بها أراض واسعة جداً، نوافير كثيرة، وسوق عظيم للطعام وحيان للمسلمين ممتلئان بهم.



قروى قشتالى في طريقه إلى السوق
لوحة رقم LIV (ورقة ١٩)

الملك والملكة

بعد وفاة الملك ألفونسو دى نابولى Alfonso de Náples، خلفه في حكم أراجون Aragón أخوه الأكبر خوان، الذي كان مكروها جداً من أهل برشلونة، الذين نصبوه ملكاً على قشتالة، خوان بعد صراع طويل، بمساعدة لويس الحادى عشر Luis XI ملك الفرنجة، الذي كان قد أخذ رهينة في كونتية Rosellón، أخضع أهل برشلونة، وأعلن ملكاً. كان له ابن، يدعى فرناندو، الوصى على العرش حالياً، والذي تفرغ للقتال منذ أربعة عشر عاماً، ملك وقور، كما تثبت بطولاته.

الملكة اسابيل

خوان، ملك قشتالة، كان له من الأبناء: ألفونسو الابن الأكبر، وانريكى Enrique والابنة إيسابيل. وبعد وفاة الأب خلفه ألفونسو، الذي مات بعد أربع سنوات من حكمه، فخلفه أخوه انريكى(١٧١). هذا حدث مع بلانكا Blanca ملكة نبرة Naverra، التي لم يكن لها وريث، ولأنها كانت عقيماً، أرادت أن تعمل سحراً، وبموافقة البابا، تزوج دونيا بلانكا مع خوانا، ابنة ألفونسو ملك البرتغال، الذي كان نتيجته أيضاً العجز، فإن عضوه الذكرى كان صغيراً وذابلاً وغير قادر على الممارسة الزوجية. فقام الأطباء بعمل أنبوبة من الذهب تقوم الملكة بإدخالها في الرحم، وترى إذا كانت بذلك يمكن أن تستقبل المنى، وهو شئ كانت نتيجته مستحيلة. فكانوا يستنمونه، ويخرج السائل المنوى، ولكنه كان مائياً وعقيماً. تدارس نبلاء المملكة هذا الأمر، واجتمعوا بدورهم باخته إيسابيل، الملكة ولدت دونيا خوانا، لكن النبلاء رفضوا الاعتراف بها كابنة للملك، لأنهم شكوا في قيام الملكة بالزنا. الأسقف

ألفونسو كاريللو(Alfonso Carrillo (Johannes de Carillo، ساعد حزب إيسابيل. التي تزوجت سراً من فرناندو. وحضرت خفية إلى مدينة القلعة Alcalá – التي كانت تابعة للأسقف – الذي أقام قداس الزواج، وظل الزوجان في الفراش، من أجل الجماع الجسدى، بحيث لم يعد الطلاق ممكناً [١٧٢]، كما أن والد فرناندو، الذي حطمته الحروب المستمرة، لم يكن باستطاعته أن يترك لابنه مايكفيه، أما ايسابيل فقد حصلت على القليل جداً من أخيها، وقام الأسقف، كوالد، بإعطائهما مدينة القلعة Alcalá وظل بينهما، كأب وأبنائه.

مات انريكى اليتيم، ونشب خلاف عميق، فالبعض انضم إلى ايسابيل، والبعض إلى الإبنة خوانا. دُعى الملك ألفونسو[١٧٣] ليدافع عن الإبنة وأخيها، فدخل قشتالة بجيش كبير واستولى على سمورة Zamora وسلمنقة Salamanca وبرغش Burgos ونصف قشتالة تقريباً.

خرج فرناندو مع الأسقف وأنصارهم للقائه، وانتصر عليه عند تورو Toro، وانتزع منه سمورة. وبعد ثلاثة معارك حقق فيها النصر، أجبر البرتغاليين على الرحيل من حدود قشتالة. هناك الكثير الذي يكتب حول هذا الموضوع، لكنى سأقوم باغفال بعض الأحداث بغرض الاختصار.

ظللنا ثمانية أيام في مدريد، وفي اليوم الرابع والعشرين من يناير سمح لنا بالدخول إلى الغرفة الملكية، حيث شاهدنا اجتماع المجلس العام للملك، على اليمين الملكة، التي كانت في الوسط ، وابنه على اليسار، بملابس حزن سوداء، واحترام ووقار كبير. صعد الملك والملكة إلى العرش الملكى،

جلسا واستدعيانا. في البداية قبلت أيديهما، ثم ركعنا فوق وسادة مذهبة، وارتجلت أمامهما كلمه قصيرة.

قوام الملك والملكة

الملك رجل متوسط القامة، باسم المحيا، وقور، شجاع في الأمور الكبرى. أعتقد ان عمره بين أربع وأربعين وخمس وأربعين سنة[١٧٤]. معتدل المزاج. نجح في تهدئة مملكته ووضع كل الأمور في طريقها الصحيح، أقبل على الدين بصفة خاصة، مصلحاً الكنائس المهدمة، ومشيداً كنائس أخرى جديدة. كذلك انكب على الصيد كتدريب جسمانى، ليحافظ على الصحة لأطول وقت.

تبلغ الملكة ثمانية وأربعين عاماً من العمر[١٧٥]، أنها أكبر سناً من الملك، طويلة القد وبدينة وجميلة المحيا. تبدو كما لو كان عمرها ستة وثلاثين عاماً فقط. لديها معرفة كبيرة بفنون السلم والحرب، كما أن لديها البصيرة التي تبدو معها أنها تمتلك كل العفة بدرجة عالية تتفق مع الجنس النسائى. متدينة إلى أقصى حد، وتنفق الكثير على تزيين الكنائس، بشكل لا يصدق. تنتمى إلى نظام رهبنة La Observancia باحترام شديد، وقامت بالكثير من الإنشاءات في أديرتها. وأثناء غزو غرناطة، كانت دائماً في الجيش إلى جوار الملك، وكثير من الأمور أنجز حسب مشورتها. في المحاكمات تجلس في قاعة المحكمة مع الملك، تستمع إلى القضايا والدعاوى، تحل الخصومات عن طريق الإتفاق أو الحكم النهائى. أعتقد أن قدرة السماء قد أرسلت هذه السيدة الورعة إلى إسبانيا التي كانت قد أصابها الضعف، لأنها مع ملكها أعادا بناء دولة

جديدة. متدينة جداً، وورعة. وفي الحقيقة فإنني أعجز عن وصف تقواها.

لها أربع بنات. الأولى: ايسابيل، التي تزوجت من الفونسو ابن ملك البرتغال – الذي لقى حتفه بعد سبعة أشهر من زواجه إثر سقطة من فوق جواد – وأصبحت أرملة، تحولت إلي الاستغراق في التدين وانكبت على صنع الملابس للقساوسة في الكنيسة. الابنة الثانية تسمى خوانا، ضليعة جداً – بالنسبة لعمرها وجنسها – في كتابة النثر وقرض الشعر. تبلغ أربعة عشر عاماً من العمر، تفرغت لعالم الأدب[١٧٦]. بالغ استاذها الراهب، وهو شيخ محترم، في مدحها لي ، ورغب أن أستمع إلي حديثها، ولكن بالنسبة لى لم يكن لدى وقت أكثر يسمح بذلك.

الابنة الثالثة، تحمل اسم ليونور، تبلغ من العمر تسع سنوات. والأخيرة كاتالينا سبع سنوات[١٧٧]. وبمساعدة أفضل الأساتذة، وتربية الأم لهم، كانت تأمل أن يصبحن على درجة عالية من الصلاح والتقوى.

خوان كان الإبن الوحيد، شاب في السابعة عشرة، يعرف اللاتينية جيداً، كما كان خطيباً مفوهاً يثير الاعجاب[١٧٨]. ألقى خطبة باللاتينية اصغيت إليها باستمتاع وانتباه عظيم. وجدت لديه الاجابة عن كثير من تساؤلاتي. ولكنه كان جريحاً، وشفته السفلي مربوطة، أعطاني الإجابة بأدبه الجم مظهراً حلماً كبيراً[١٧٩].

كانت الملكة أيضاً محسنة كبيرة، ترسل سنوياً إلى رهبان دير سان فرانسيسكو في القدس، ألف دوقة وملابس فخمة

للقسس. عندما غادرنا مدريد، كان معنا راهبان، أحدهما إسباني من نظام رهبنة سان فرانسيسكو في القدس، والآخر من نظام رهبنة سان باسيليو في جبل سيناء، كان ملتحياً، أرسلهما السلطان إلى الملكين في سفينته ببلسم وهدايا أخرى.

الراهب الملتحى أقام قداساً باللغة اللاتينية، كما شاهده زميلى أنطونيو هيرفارت Antonio Herwart.

الكثير من الأمور كانت تشغل الملكة لإصدار تشريعات جيدة. مع طرد اليهود والمرتدين خرج ذهب كثير من إسبانيا. الشعب الإسبانى يتباهى كثيراً بالملابس الحريرية الموشاة، والأقمشة الأخرى الثمينة. حول ذلك صدرت أوامر بترك مثل هذا التراخى، حتى لا تخرج الثروات من إسبانيا بدافع هذا التبذير.

حتى الآن، عندما يكون الملك غائباً، كان ينام في غرفة عامة مع ولى العهد والأمراء. ولكنه ينام الآن مع بناته ومع بعض القهرمانات لكى لا يتهم بالزنا، لأن الشعب القشتالى يرتاب في كل شئ ويفسره تفسيراً سيئاً.

الأخ رئيس الرهبان التابع لنظام سان فرانسيسكو، أخبرنى في طليطلة أن الملكة قالت له شخصياً أن من بين العطايا التي منحها لها الله، وتفخر كثيراً بها، زوجاً عظيماً. امتدح هذا الراهب بقوة ورع الملكة، التي كانت في الحقيقة، جديرة بهذا المدح والثناء.

يومى الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع، كانوا يعقدون اجتماعاً عاماً للجميع، الأغنياء والفقراء، وهم نشطاء جداً في إعانة الفقراء، وتحقيق العدالة للجميع.

كانت هناك استعدادات كبرى لتجهيز الأسطول وتوفير الخيل، إلى جانب الامدادات التي جهزها الملك لحملة المغرب، حيث كان يخشى جداً وخاصة من ملوك فاس وتونس وتلمسان. يوجد في المغرب أيضاً قائد متحمس مع ثلاثة آلاف من الخيالة وعشرين ألفاً من المشاة، الذين دعوا الملك إلى العبور إلى المغرب، وينتظرون مع جيشه في جبال أطلس. وبدون شك فانهم تمكنوا من الاستيلاء على المغرب في وقت قصير، لأنه كان مجرداً من السلاح الذي كان معطلاً بسبب السلم الطويل الأمد. أخضع كل المغرب بسهولة لسلطانه، وسيستعيد القدس، كما ذكرت في خطبتى المذكورة آنفاً.

الطـلاب النبـلاء

اللغة الاسبانية أقرب إلى اللاتينية من الإيطالية، ولهذا يفهم الإسبانى اللاتينية بسهولة، ولهذا فإنهم حتى الآن لم يهتموا بالتثقف في اللاتينية. الآن تأصلت البلاغة، وخاصة بين أشراف ونبلاء إسبانيا، ومثال ذلك الكهنة ورعايا آخرون، الذين انكبوا على كل الفنون والإنسانيات.

يوجد في مدريد شاعر حكيم يدعى بدرو مارتير دى ميلان[١٨٠] الذي منح جائزة، وصاغ شعراً بطولياً في مدح الملك، وقام بتثقيف شباب النبلاء، دعانى للاستماع إلى شروحه. رأيت هناك دوق بياإرموسا Villahermosa ودوق

كاردونا Cardona ابن كونت ثيفوينتس Cifuentes ، ودون خوان دى كاريللو Don Juan de Carrillo، ابن أخت كونت تنديلا Tendilla دون بدرو دى مندوسا Don Pedro de Mendoza، والكثير من الشباب النجباء. أنشدنى مقاطع طويلة من القصائد الشبابية للشاعر الرومانى هوراثيو Horacio... الخ. وصل عدد الذين حاولوا الانضمام إلي البلاط الملكى إلى أربعمائة، لديهم الكثير من المؤدبين، أحيوا الدراسات الإنسانية في كل إسبانيا. وكان هؤلاء الشباب يقضون أوقاتهم في الدراسة وفي خدمات أخرى للملك، وفي الصيد حتى لا يضيعوا أى ساعة في الكسل.

الخروج من مدريد إلى سرقسطة

في الخامس والعشرين من يناير، عند مغادرة مدريد، رأينا في الضواحى رجلين معلقين وخصاهم مربوطة في رقابهم، لأنه قد ثبتت عليهم تهمة اللواط. امتطينا ستة فراسخ عبر سهل جميل، وصلنا إلى مدينة القلعة Alcalá التي تتبع كنيسة طليطلة، والتي كانت سكناً للملك والملكة بواسطة الاسقف دون خوان كاريللو[١٨١] Don Juan Carrillo، عندما كانا فقيرين، لهذه المدينة مزارع خصبة جداً غنية بالإسليخ Gualda وهو عشب يستخدم للصباغة.

وادي الحجارة Guadalajara

مدينة وادى الحجارة كبيرة مثل مدينة أولم Ulm، تقع على تل، بالقرب من نهر التاجو[١٨٢]، هذه المدينة تنتسب إلى دون دومينجو، من بيت مندوثا Mendoza، الذي كان دوق الإمارة وماركيز سانتيانا Santillana، وكانت زوجته ماريا، ابنة دون البارو دى لونا. هذه الأسرة من كبار سادة لونا Luna، كما كانوا سادة مندوثا[١٨٣].

قلعة وادي الحجارة

أعتقد أنه لا يوجد في كل إسبانيا قلعة تشبهها، بالنسبة لاتساعها وزخارفها الذهبية الكثيرة[١٨٤]، شيدت على شكل مربع وبها رواقان فوق بعضهما، تزينهما نقوش مختلفة، وأسود وزراف من الحجارة. في وسطها نافورة فخمة، ويتلألأ الذهب في كل الأسقف، وتزينها الزهور. في كل زاوية من زواياها الأربعة، توجد أبهاء أخرى كبيرة، منها

اثنان قد تم الانتهاء من تشييدهما، يزين الذهب أسقفهما، الذي لا يمكن أن يصدقه من لا يراه. أكد لنا حاكم القلعة أن بإمكانه شراء كونتية بما أنفقه في بناء هذا القصر، الذي لم ينجز بالكامل حتى الآن. في كل القاعات توجد قباب عالية جداً، منها واحدة تزينها في كل جوانبها مجموعة من الحيوانات، انها لا تقدر بثمن.

كل قاعة بها ثلاثة أو أربع غرف، كلها مزدانة بطرق مختلفة. في قاعة واسعة رسمت شعارات كل أجداد الدوق، مع زوجاتهم. وكذلك الكاردينال، أخ الدوق، الذي توفي في تلك الأيام. شاهدنا أيضاً الإسطبل المقبب الذي لم يكتمل بناؤه حتى الآن.

هذا القصر شيد للتباهى أكثر منه للإستعمال.

بيت الكاردينال دون بدرو دي ميندوثا

بيت الكاردينال، في ضواحى وادى الحجارة، من بين أكثر البيوت جمالاً في كل إسبانيا. رأيت كثيراً من قصور الكرادلة الفخمة في روما، لكن في كل حياتى لم أر بيتاً آخر مريحاً وبه غرف موزعة مثل هذا. به رواقان جميلان يعلو أحدهما الآخر، وقاعات صغيرة وغرف، بطانة أسقفها كلها مذهبة بألوان مختلفة، ممزوجة باللون الأزرق، وبطانة كل سقف تختلف عن البطانات الأخرى، قاعتان للصيف تنفتحان على حديقة، بأعمدة من الرخام وتتلألأ بالذهب، شئ من الصعب تصديقه.

أوه يا لها من مصلى عظيم! واسعة ولو أنها ليست عريضة، توجد في المذبح صور رائعة لسان بدرو وسان بابلو وللسيدة العذراء، وعلى الجوانب صور لسان خريخوريو Gregorio وسانتا إلينا Elena بالصليب، ومن بينهم من يحمل لقب كاردينال. حديقة جميلة جداً، في وسطها توجد نافورة تروى كل المكان، قفص واسع للطيور، في مكان مكشوف، في جزء مسور بأسلاك من النحاس، توجد فيه أنواع مختلفة من الطيور، أعجز عن وصفها. يوجد حمام ويمام من أنواع مختلفة، من إسبانيا ومن المغرب، دجاج مغربى لا يحصى، لونه أسود بنقط بيضاء، مثل الزهر، وعُرف رمادى صلب وذيل قصير، طويل الساقين جداً. طيور الحجل مختلفة الأنواع، بط برى كثير أرجوانى اللون أقرب إلى السواد، بذيل ومنقار أسودين، كراكى جميلة جداً لها عرف أبيض خلف الرأس[١٨٥]، وكثير من أصناف الطيور الأخرى. أعتقد أنه لا يوجد في العالم بيت أكثر فخامة منه. ترك ثروات لا تحصى، صار غنياً عن طريق الميراث من أسقف طليطلة وأسقف Sigüenza ومن الكردلية. به منقولات أخرى كثيرة. مخلص للملك، ولحياة الزهد، ولكنه سخى جداً في النفقات الأخرى. توفي في الحادى عشر من يناير من عام ١٤٩٥م.

مدينة Sigüenza

في السابع والعشرين من يناير، وعبر قلعة Hita الواقعة على جبل شاهق، وصلنا إلى مدينة سيجوينثا Sigüenza الكبيرة مثل نوردلنجن. توجد كاتدرائية جميلة، ثرية، أسقفها كان الكاردينال[١٨٦]. بها أربعون قسيساً بمائة دوقة، وعشرون من القسس أصحاب المعاش بأربعين، وعشرون من أصحاب المعاشات المتوسطة، الذين كان لهم نصف معاشات القسس

أصحاب المعاش، وثلاثة وعشرون من أصحاب الدرجة الرفيعة، الذين كان من بينهم رجال حكماء. يوجد هناك قصر جميل، حيث يعيش ابن السيد الكاردينال، الذي كان متزوجاً من ابنة دوق مدينة سيدونيا وكونت لبلة، والذي أعطاه والده الكاردينال ثروات كبيرة[١٨٧].

قلعة مدينة سالم

Medinaceli

في الثامن والعشرين وصلنا إلى قلعة مدينة سالم، التي تتبع دوقية وقضاء دوق المدينة Medina. تقع على جبلٍ عالٍ. وهي موطن الشاعر مرثيال Mercial، كانت تسمى قديماً Bilbilis، تقع بجوار منبع نهر خالون (Jalon (Salon، عبر وادٍ بهيج مثل سابراس Sabrás الذي يصب في النهاية في الإبرو[١٨٨].

في نفس اليوم سرنا ثلاثة فراسخ على شاطئ نهر خالون، حتى وصلنا إلى مدينة صغيرة تدعى أركوس Arcos، كان كل من فيها من المسلمين، ماعدا حاكم القلعة. استضافونا في بيت أحد المسلمين، الذي أحسن استقبالنا، من أجل أموالنا. رأينا هناك كثيراً من المسلمين، الذين كانوا يحضرون حفل عرس، وأخذوا في الغناء حسب عاداتهم، وبعض الفتيات الرائعات الجمال. يعيشون في قناعة كبيرة، ولا يشربون غير الماء، وصحتهم جيدة.

في اليوم التاسع والعشرين خرجنا من مدينة أركوس عبر وادٍ واسع وبهيج، يرويه نهر خالون من كلا جانبيه ، ملئ بالمدن والقلاع مثل مونتى ريال (Monreal (Monte Real،

اريثا، أتيثا... الخ. وسرنا حتى وصلنا إلى مدينة قلعة أيوب الشهيرة، التي تبلغ في مجملها عشرة فراسخ طولاً. هناك قمح وفير، نبيذ، زعفران من أجود الأنواع المعروف باسم أورت Ort، قنب ومنتجات أخرى، فإن الأرض خصبة للغاية وتروى جيداً على كلا الجانبين.

قلعة أيوب مدينة كبيرة، ومن أكثر مدن مملكة أراجون أهمية مليئة بالتجار، والبيوت الراقية، بها سبعة أديرة. وعلى مقربة من قلعة أيوب، على شاطئ نهر خالون، ينتجون الزيت بكميات كبيرة تثير الإعجاب، إلى جانب القمح والزعفران والشمع والإسليخ... الخ. يجرى النهر من قلعة أيوب خمسة عشر فرسخاً، حتى يصب في الإبرو.

خرجنا من قلعة أيوب في اليوم الثلاثين، بعد الغذاء، وعبر أماكن جبلية ومجدبة وعبر وادٍ آخر شديد الخصوبة ملئ بأشجار الزيتون. وبعد خمسة فراسخ وصلنا إلى المنية[١٨٩] Almunia، وفي اليوم الحادى والثلاثين مررنا عبر أراضٍ قاحلة جداً، حتى دخلنا مدينة سرقسطة الشهيرة.

سرقسطة Zaragoza

سرقسطة، المدينة الشهيرة عاصمة مملكة أراجون، ماهولة بالسكان، وتمتد على شواطئ نهر الإبرو الشهير، كبيرة مثل el Isar في لاندشوت Landeshut في بافاريا. تقع في سهل جميل، وأكبر كثيراً من نورمبرج، لكنها أكثر سكاناً على شواطئ الإبرو. بها قنطرة شامخة لها سبعة عقود عالية، توجد تحتها طواحين عجيبة من إنشاء الألمان.

خصـــوبتها

أرض الضواحى قاحلة وجدباء، قليل منها يمكن أن يروى، نادراً ما تمطر هناك. تمر تقريباً نحو تسعة أشهر دون أن يروا المطر. بها أربعة وديان، بأنهارها مثل الإبرو، والخالون ومجارى مائية أخرى أصغر، تكفي لرى الوديان(١٩٠). وادى نهر الإبرو به قطعان وفيرة من الأبقار، وبوادى الخالون، غلال وبالآخرين، نبيذ وزيت، وإن كانت على وجه العموم يوجد بها نبيذ وزيت وقمح وفير.

يُنتج سنوياً في سرقسطة مايقرب من مائة شحنة Karge(١٩١) أو أكثر من الزعفران، الذي يقدر بأكثر من مائة ألف دوقة، ومن صوف النعاج مائتان أو ثلاثمائة ألف وكذلك أبقار كثيرة، زيت ممتاز بكميات كبيرة. شمع كثير وعسل، بها بساتين لا تحصى وخلايا النحل في الحقول. وفي الأماكن الجافة يُرى كثير من نبات إكليل الجبل والأزهار الأخرى. في الوقت الذي وصلنا فيه كان هناك زهر الفاكهة بصفة عامة والذي يسمى بواكير المشمش وأشجار اللوز. تُنتج كذلك في ريفها القمح بكميات وفيرة. بها كثير من التجار بسبب وفرة

الزعفران والقمح والصوف الجيد والإسليخ والرمان والعسل والشمع وفاكهة أخرى، إلى جانب الجلد المدبوغ دباغة جيدة، والذي يستعمل لعمل الأحذية وكل أنواع النعال.

الكاتدرائية والأديرة

أسقف سرقسطة يكون ابناً لدون فرناندو ملك قشتالة، الذي يحكم حالياً، قبل زواجه من دونيا ايسابيل(١٩٢) ، الكنيسة واسعة، جميلة ومشيدة في غاية الكمال على يدى بندكتو الحادى عشر Benedicto XI(١٩٣). كانت فيما مضى مسجداً للمسلمين، واليوم يوجد في الرواق مسجد قديم، يوقره المسلمون توقيراً عظيماً. الآن أصبح مصلى مكرساً للسيدة مريم. بندكتو هذا من أسرة من سادة لونا Luna، وعزل في مجمع كونستانس الدينى. بهذه الكنيسة أيقونات من الفضة الغالية والعريضة التي تمثل قصصاً ومزدانة بصور جميلة، منقوشة من الرخام الناصع البياض، في كل إسبانيا لا توجد أيقونات من الرخام الأبيض أكثر منها قيمة. بداها ألمانى من فلاندز، وبعد موته خلفه ألمانى آخر من Gmunda في سوابيا Suabia الذي أكملها(١٩٤). بها أيضاً بناء من الحجر للمقصورة، والأرغن، هو الأحسن في كل إسبانيا.

بسرقسطة أيضاً كنيسة شهيرة تسمى كنيسة سانتا ماريا، يوجد بها سرداب حيث كانت تصدر عن مريم العذراء معجزات كبرى في تلك الأيام، تضاء صباحاً ومساء مصابيح لا تحصى من الفضة(١٩٥).

دير الـ Menores، يقع خارج الأسوار القديمة في الجزء الحديث من المدينة، عظيم جداً ويثير الإعجاب، الكنيسة

واسعة، مشيدة على طريقة الرواق، عرضها ست وثلاثون خطوة، وبرجها عجيب. صعدنا إليه لنشاهد المكان. بها قاعة طعام واسعة جداً وغرفة نوم تماثل قاعة الطعام، وغرف صغيرة للطلاب على كلا الجانبين. في الجانب الغربى، الغرف الأولى للآباء، بغرف وحدائق ومكتبة عظيمة، بها مخطوطات قديمة جداً، كلها من الرق. رأيت كذلك درجاً من ثمانية أجزاء فخمة مكتوبة بخط إيطالى. كانت مؤلفات سان خيرونيمو حول الأنبياء والأناجيل والتوراة ومؤلفات أخرى له. بها ثمانية حكماء وكثير من الرجال المحترمين.

توجد أديرة أخرى كثيرة شهيرة للمبشرين وللرهبانيات الأخرى، خارج الأسوار، وعلى الجانب الآخر من القنطرة يوجد دير جديد ليسوع الوادى[١٩٦] Jesus del Valle، حيث يعيش رهبان منتمون لنظام سان فرانسيسكو، مزود بحدائق جميلة وقاعة طعام وكنيسة... الخ. إنه دير حديث التأسيس أقيم منذ حوالى ثلاثين عاماً. يوجد بجواره دير سانتا ماريا دى لا ميرثد الشهير[١٩٧] Santa María de la Merced الذي تحدثت عنه من قبل، وقد أقاموه لافتداء الأسرى المسيحيين في المغرب.

أسوار المدينة القديمة حصينة وفي غاية المناعة، مبنية من الأحجار والطين، تثير الدهشة. أسسها المسلمون في عصرهم، وكانوا يعتقدون أن سرقسطة يمكن أن تقاوم الدنيا بأكملها. لكن الله لا يوجد عنده شئ مستحيل.

ديـــر ســـان خيـــرونيمو

بجوار أسوار المدينة الجديدة، بإتجاه الغرب، توجد كنيسة جميلة، لها سرداب جميل وكبير، يوجد به جثامين سانتا انجراثيا Santa Engracia وآخرين – مئات الألوف من أجساد قديسين من المانيا وفرنسا وبلاد أخرى – الذين قاتلوا هناك من أجل إيمانهم واستشهدوا على أيدى المسلمين في عصر شارلمان. هذه الكنيسة، التي كانت منذ سنوات قليلة دائرة قسسية، وهبها الملك إلى آباء سان خيرونيمو، الذين شيدوا هناك ديراً، حيث يتغنون بمدح السيد المسيح[١٩٨].

قلعة وحصن سرقسطة

الجعفرية

خارج أسوار المدينة، باتجاه الجنوب، توجد قلعة حصينة وقديمة، أقامها المسلمون، أصلحها وجددها حالياً الملك فرناندو. في الثانى من فبراير دخلنا لزيارتها بعد اليوم المحدد. كثير من المرتدين من الرجال والنساء كانوا محبوسين هناك، ينتظرون التعذيب بالنار كل يوم. رأينا فناء حديث الإنشاء، طوله خمس وثلاثون خطوة وعرضه ثلاث عشرة، شامخ بزخارفه في بطانة السقف، التي لا يمكن تصديقها. في الجزء الأعلى، بالقرب من السقف كانت توجد منصة مذهبة تتسع لمائة وأربعة أشخاص، وهي أشبه ما تكون بشرفة، يستطيعون منها مشاهدة الألعاب والأمور الأخرى التي تجرى أسفلها.

إلى جانب هذا الفناء، توجد خمس غرف كبيرة، مزدانة بالذهب والألوان الجميلة، تجلب متعة كبيرة لمن يراها.

وفي الفناء كما في بقية الغرف، أسفل بطانة السقف تمتد في كل الجوانب نقوش بحروف مذهبة.

ربض المسلمين

للمسلمين مكان مخصص ومدينة يعيشون فيها، أسفل دير الرهبان، في القسم الجديد من المدينة، في بيوت جميلة ونظيفة، وأماكن للبيع، ومسجد رائع، وأتيحت لى الفرصة للحديث مع رجل دين منهم، الذي أجابنى برقة على كل سؤال من أسئلتى. ذكر لى أن أسباب الطلاق عندهم تكون بسبب: السكر، العبث، الزنا، نفس المرأة النتن، الذي يمكن بسببه أن تطلق وتسترد الصداق. ماعدا التي تطلق بسبب الزنا، التي تكون عند ذلك مطلقة "مجردة" فيحتفظ الزوج بالصداق، ولا يمكن للمرأة أن تطالبه بشئ منه. إذ إن الزنا يجلب للمرأة عاراً كبيراً، ويزدريها الآخرون. تخضع المرأة دائماً لسلطة الزوج، ولا يمكنها أبداً أن تطلق نفسها بسبب أى عيب، ولكن على العكس، الزوج هو الذي يستطيع تطليقها. وعند الطلاق، إذا كان يوجد ابن وحيد، يحتفظ به الزوج، وإذا كانا إثنان، يأخذ كل واحد منهما ابنا، أما إذا كانوا ثلاثة، فاثنان للزوج وواحد للزوجة... الخ.

يتزوجون حتى سبعة نساء*، ولكن عند المسيحيين، لا يسمح بالاقتران إلا بواحدة، ولا يستطيعون تطليقها، صوت الرجل عندهم أعلى منه في شريعتنا. يمنع القرآن الأزواج من ضرب زوجاتهم أو قتلهن حتى وإن لم يطلقوهن.

. يرتلون القرآن ويذكرون الأحاديث النبوية فوق مآذنهم وفي مساجدهم، ويصلون مثلنا. المسلمون رجال أقوياء جداً، وأجسامهم متناسقة، يتحملون الأعمال الشاقة، يقدسون الأعمال والفنون اليدوية على وجه الخصوص، يعملون كحدادين وفخارين وبنائين ونجارين وطحانين وعمال في معاصر الزيت والنبيذ... الخ.

معصـــرة الزيـــت

في ربض المسلمين توجد معصرة فخمة وضخمة للزيت، انه عمل هائل، يمارسونه بهذه الطريقة: لديهم رحى كبيرة يجرها حصان أو بغل في دورات عاصرة الزيتون، كما يفعلون مع الإسليخ La Gualda في إرفورت Erfurt. بعد أن يجمعوا عشرة أو اثنتى عشرة سلة من الحلفا، المملوءة بالزيتون، يضعون الواحدة فوق الأخرى أسفل المعصرة، يعصرونه، ويضيفون إليه باستمرار ماءً ساخناً، الذي ينظف الزيت، الذي يصب في إناء معلق تحت المعصرة. إنه عمل الدواب وهو قذر جداً. ولكنه جدير بالمشاهدة.

بين كل ممالك إسبانيا، فإن مملكة أراجون بها الكثير من المسلمين إنهم نشيطون جداً في فلاحة الأرض، النبلاء يحصلون منهم على ضرائب عالية، عبارة عن ربع المحصول، غير المغارم الأخرى. ومن هنا ظهر في إسبانيا مثل (*) يقول: "من ليس لديه مسلمون، ليس لديه ذهب"(١٩٩).

(*) يتضح من هذا أن مونزر كان يجهل التشريع الإسلامي تماماً.

توجد قرى كثيرة وكبيرة يقطنها المسلمون فقط. في بعض الأقاليم حيث يمكن أن يعيش ستون مسلماً في راحة، لا يستطيع أن يعيش في المساحة نفسها الا خمسة عشر مسيحياً فقط.

يعتنون جداً برى الأرض وزراعتها، زاهدون في الطعام، يخفون ثروات كبيرة.

الرحيل من سرقسطة

في الرابع من فبراير، خرجنا من هذه المدينة الرائعة، بعد تناول الغذاء، وعبر مدن وقرى وسهول، بعضها قاحل وبعضها خصب، وعلى شاطئ نهر إبرو، وعلى مسافة ستة عشر فرسخاً، وصلنا إلى مدينة تطيلة[٢٠٠] الجميلة، التابعة لمملكة نبرة، شهيرة جداً، وتبعد عن سرقسطة ستة عشر فرسخاً.

تقع هذه المدينة على تل مطل على نهر الإبرو بقنطرة عظيمة. ريفها يمكن ريه بسهولة. بها أديرة عديدة وكنيسة كاتدرانية تنتج نبيذاً وزيتاً رائعاً. وصل بعض الرسل الذين ذكروا أن كونت Larín انتزع من ملك نبرة قلعة أوليته Olite(Olytus). اتفقنا مع ثلاثة جنود، إستدرنا نحو اليمين، عبر سهول وجبال وعرة وأماكن صالحة للزراعة، وفي اليوم الرابع وصلنا من سرقسطة إلى بنبلونة Pamplona حيث المسافة بينهما ثلاثة وثلاثون فرسخاً.



إمراة تنتحب في سرقسطة
لوحة رقم LVIII (ورقة ١٦)

بنبلونة Pomplona

بنبلونة، أحسن مدن مملكة نبرة، تقع في سهل جميل، يجرى به نهر رائع[٢٠١]. هذا السهل واسع جداً، زاخر بالمدن والقرى، به عنب وحبوب وفيرة، لكن لا توجد به أشجار الزيتون لأنه يقع في سلسلة من جبال البورت والرونسفال.

بها كنيسة كاتدرائية رائعة، لم تكتمل مقصورتها بعد. أيقونات المذبح الأعظم من الفضة.

أوه يالجمال الرواق الذي يماثل تقريباً كل أروقة طليطلة!

الأسقف الحالى هو ابن البابا الاسكندر السادس Alejandro VI إذ إنه بموت الأسقف الحقيقى، وهبها البابا لابنه. بها كذلك كثير من الكنائس الجميلة والأديرة العديدة. انها مدينة كبيرة مثل أولم Ulm.

مملكة نبرة Navarra

مملكة نبرة واسعة جداً، إذا خرجت من سرقسطة عبر شواطئ الإبرو، وعلى مسافة أربعة فراسخ تبدأ نبرة، وهى نفس المسافة من بنبلونة إلي فرنسا. كان علينا أن نقطع ثلاثين فرسخاً إلى هذه المملكة[٢٠٢].

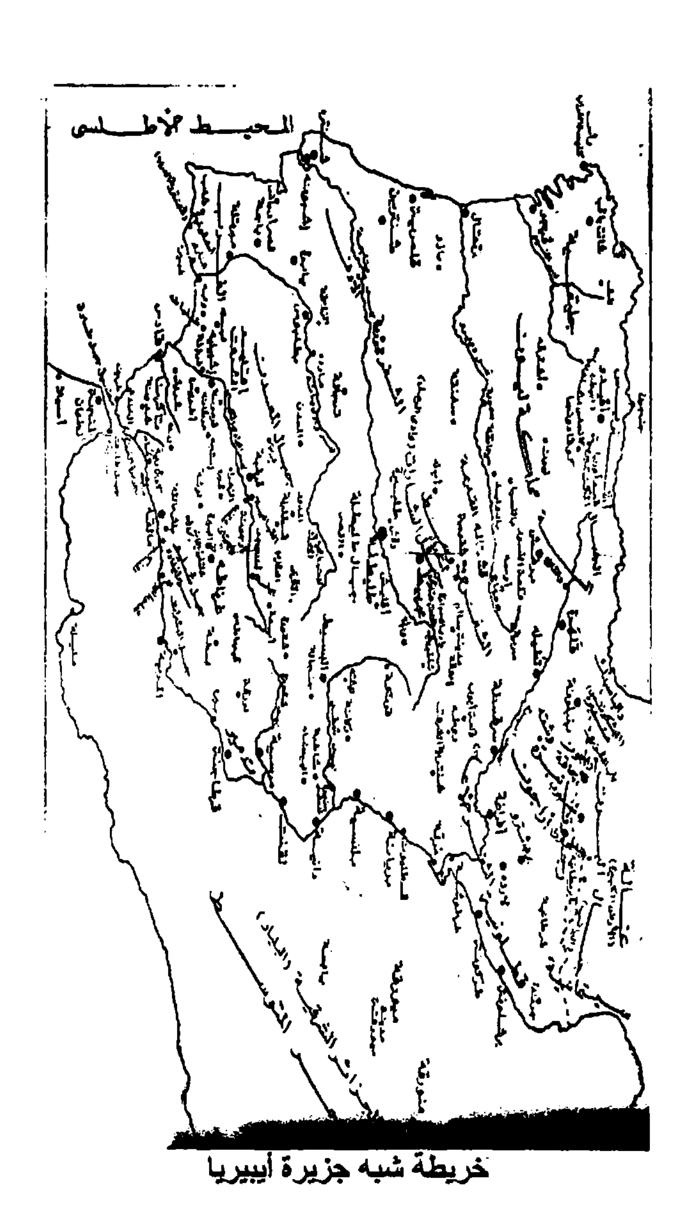
مات الملك دون أن يعقب ابنا، ذهبت المملكة إلى يدى الابنة التي تزوجت الفرنسى دون خوان دى البرت[٢٠٣] don Juan de Albert، الذي أعلن ملكاً زوجاً الآن. لكن لم تنعم المملكة بالهدوء، بسبب الإزعاج المستمر الذي كان يسببه

كونت Larín، الذي يُشك في تلقيه نجدات من ملك قشتالة. فإنه في هذه الأيام استولي علي قلعة Olite الجميلة.

التقينا بالملك بوساطة السيد أسقف Couserans في جاسكونه La Gascuna القريبة من تطيلة. الذي زرناه وقبلنا يديه. كان طويلاً، بديناً ورعاً. الملكة في حداد هذه الأيام بسبب وفاة أمها كونتيسة Foix (Foys). ولهذا لم نتمكن من رؤيتها. الكونتيسة هي أخت للملك لويس. كانت قد تعهدت من قبل مع Ladislao (VI) ملك هنجاريا على وضع السم له على يد Lerick كما يقال. تزوجت بعد ذلك من كونت Foix، الذي كان ملكاً لنبر . . . . عرض الملك علينا أن يعمل لنا كل ما نريد، وكل هذا كان بوساطة الأسقف.

في التاسع من فبراير، بعد تناول الطعام، غادرنا بنبلونة، عبر ز . . خصب غني بالعنب والحبوب، وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى جبل الرونسفال الشاهق Roncesvalles (Runcivallis). رأينا هناك ديراً للكهنة، وبيتاً ملحقاً به، حيث يقدمون للزائرين نبيذاً وخبزاً للضيافة وأشياء أخري. رأينا في الكنيسة، بين آثار أخري، قرن الـ Roldán، الذي مات هناك. خارج الدير مصلي واسع حيث توجد رفات آلاف المسيحيين الذين قتلوا علي أيدي المسلمين في عصر شارلمان، يؤكد ذلك ماكتبت بتوسع وتفصيلات في تاريخ سانتياجو، الذي يحكي كيف دخل المسيحيون بغير حذر في الممر، وعلي حين غفلة هاجمهم المسلمون بغتة من أمامهم ومن خلفهم، فسقطوا في أيديهم[٢٠٥]، إنه منظر مرعب.

في هذا الجبل توجد منابع نهر الإبرو[٢٠٦]، منحدراً نحو الشمال عبر وادٍ وارف ومعتم، وأخيراً وصلنا في النهاية إلى فج الوادى المسمى قلعة سان خوان San Juan. هناك تبدأ جاسكونيا Gascuña.



خريطة شبه جزيرة أيبيريا

يوميـــات الـــرحلة

يوميات الرحلة

١٤٩٤

١٧ سبتمبر : أربونة – بربنيان (٩ فراسخ) .
١٨ سبتمبر : بربنيان .
١٩ سبتمبر : بربنيان - Le Boulou (٩ فراسخ) – La Junquera - Figueras.
٢٠ سبتمبر : Figueras – خيرونا (٥ فراسخ) .
٢١ سبتمبر : خيرونا – برشلونة (١٤ فرسخا) .
٢٢-٢٥ سبتمبر : برشلونة .
٢٦ سبتمبر : برشلونة – مونتيسرات (٧ فراسخ) .
٢٧ سبتمبر : زيارة لزهاد مونتيسرات .
٢٨ سبتمبر : مونتيسرات – ايجوالدا (٣ فراسخ) – سانتا كولومبا (فرسخان) .
٢٩ سبتمبر : سانتا كولومبا – بوبلت (٣ فراسخ) .
٣٠ سبتمبر : بوبلت– رهبانية Scala Dei (١١ فرسخا).
١ أكتوبر : Scala Dei – Ginestar (فرسخان) – Cherta (٤فراسخ).
٢ أكتوبر : Cherta – طرطوشة (فرسخان) – الكنار (٦ أميال) .
٣ أكتوبر : العبور من سان ماتيو ,كوريال (٧ أميال) .
٤ أكتوبر : بياريال – فريدس (٦ أميال) .
٥ أكتوبر : فريدس – دير يسوع الوادى (فرسخ واحد) – بلنسية (٣فراسخ) .
٦- ٨ أكتوبر : بلنسية .
٩ أكتوبر : بلنسية – شقر (٦ فراسخ) .
١٠-١١ أكتوبر : شقر – شاطبة – لقنت (١٦ فرسخا) .

١٢ أكتـــوبر : لقنت – إلش (فرسخان) .
١٣ أكتـــوبر : إلش – أوريولة (٥ فراسخ) .
١٤ أكتـــوبر : أوريولة – مرسية (٤ فراسخ) – الحامة (٦ فراسخ) .
١٥ أكتـــوبر : الحامة – لورقة (٦ فراسخ) .
١٦ أكتـــوبر : لورقة – بيرة (٩ فراسخ) .
١٧ أكتـــوبر : بيرة – سورباس (٦ فراسخ) – طبرنش (٥ فراسخ) .
١٨ أكتـــوبر : طبرنش – المرية .
١٩ أكتـــوبر : المرية – الوادى الخصب (٥ فراسخ) .
٢٠ أكتـــوبر : من الوادى الخصب إلى فنيانة(٧ فراسخ) – وادى آش (٤ فراسخ) .
٢١ أكتـــوبر : وادى آش – لابيسا La Pesa (ميل واحد و٣ فراسخ) .
٢٢ أكتـــوبر : لابيسا – غرناطة (٦ فراسخ) .
٢٣- ٢٦ أكتـــوبر : غرناطة .
٢٧ أكتـــوبر : غرناطة – الحامة (٧ فراسخ) .
٢٨ أكتـــوبر : الحامة – بلش مالقة (٦ فراسخ) .
٢٩ أكتـــوبر : بلش مالقة – مالقة (٥ فراسخ) .
٣٠ أكتوبر– ٣ نوفمبر : مالقة – اوسونا Osuna – مرشانة – ميرينا Mairena .
٤ نوفمـــبر : ميرينا – اشبيلية (٤ فراسخ) .
٥-١٠ نوفمـــبر : اشبيلية .
١١ نوفمـــبر : اشبيلية – لبلة – سان لوكار .
١٢ نوفمـــبر : سان لوكار – سيربا Serpa .
١٣-١٦ نوفمـــبر : سيربا – يابرة .
١٧-٢٥ نوفمـــبر : يابرة .
٢٦ نوفمـــبر : يابرة – مونتى مور – لشبونة .

٢٧ نوفمبر- ١ ديسمبر : لشبونة .
٢ ديسمـــــبر : لشبونة – البركة Alberca (٥ فراسخ) .
٣ ديسمـــــبر : البركة – شنترين (٩ فراسخ) .
٤ ديسمـــــبر : شنترين – ثومار (٨ فراسخ) .
٥ ديسمـــــبر : ثومار – قلمرية (١٢ فرسخاً) .
٦-٨ ديسمـــــبر : قلمرية – أوبورتو Oporto (١٨ فرسخاً) .
٩ ديسمـــــبر : أوبورتو – بارثيلوس Barcelos (٨ فراسخ).
١٠ ديسمـــــبر : بارثيلوس – بونتو دى ليما Ponto de Lima (٥ فراسخ) – كوسيرادو Coserado (٣ أميال) .
١١ ديسمـــــبر : كوسيرادو – بلنسة دى منهو (٣ فراسخ) – توى - ريدونديلا Redondela.
١٢ ديسمـــــبر : ريدونديلا – بونتى بيدرا (٣ فراسخ) – كالداس (٣فراسخ) .
١٣ ديسمـــــبر : كالداس – بادرون – سانتياجو دى كوموستيلا .
١٤-٢٠ ديسمـــــبر : سانتياجو .
٢١ ديسمـــــبر : سانتياجو – فيريروس Ferreros (٥ فراسخ) .
٢٢-٢٤ ديسمـــــبر : فيريروس – Puente – Segonde – Mellid – Marín – Sarriá .
٢٥ ديسمـــــبر : Sarriá .
٢٦ ديسمـــــبر : Sarriá – ثيبريروس (٩ فراسخ) .
٢٧ ديسمـــــبر : ثيبريروس – بيافرانكا (٧ فراسخ) .
٢٨ ديسمـــــبر : بيافرانكا – بونتى فيرادا – ريو (٨ فراسخ) .
٢٩ ديسمـــــبر : ريو – بيادل بال (٨ فراسخ) .
٣٠ ديسمـــــبر : بيادل بال – بينابنتى (١٠ فراسخ) .
٣١ ديسمـــــبر : بينابنتى .

١٤٩٥

١ ينـــــاير : بينابنتى .
٢ ينـــــاير : بينابنتى – سمورة (١٠ فراسخ) .
٣ ينـــــاير : سمورة – شلمنقة (١٠ فراسخ) .
٤ ينـــــاير : شلمنقة - ألبا (٤ فراسخ) .
٥ ينـــــاير : ألبا – بوادبا Boadilla – بيافرانكا (٨ فراسخ).
٦-٧ ينـــاير : بيافرانكا – كولمينارس Colmenares – قنطرة المطران – وادى لب .
٨ - ١٠ ينـــاير : وادى لب .
١١- ١٣ ينـــاير : وادى لب – قنطرة المطران – طلبيرة .
١٤ ينـــاير : طلبيرة – طليطلة .
١٥- ١٦ ينـــاير : طليطلة .
١٧ ينـــاير : طليطلة – مدريد (١٢ فرسخاً) .
١٨-٢٤ ينـــاير : مدريد .
٢٥ ينـــاير : مدريد القلعة (٦ فراسخ) – وادى الحجارة .
٢٦ ينـــاير : وادى الحجارة .
٢٧ ينـــاير : وادى الحجارة– Hita – سيجوينثا Sigüenza.
٢٨ ينـــاير : سيجوينثا – مدينة سالم – أركش .
٢٩ ينـــاير : أركش – قلعة أيوب (١٠ فراسخ) .
٣٠ ينـــاير : قلعة أيوب – ألمنية (٥ فراسخ) .
٣١ ينـــاير : ألمنية – سرقسطة .
١ - ٣ فبـــراير : سرقسطة .
٤ فبـــراير : تطيلة Tudela .
٥- ٨ فبـــراير : تطيلة – بمبلونة Pamplona .
٩ فبـــراير : بمبلونة – الرونسفال – قلعة سان خوان .

الحواشي والتعليقات

الحواشي والتعليقات

(١)- إعتمدت في هذه المقدمة على ما ورد في مقدمتي الترجمتين اللتين أشرت إليهما سابقاً. (المعرب)

(٢)- كان أندريا نافاجيرو Andrea Navajero رجل دين ومؤرخاً وشاعراً، ولد في البندقية عام ١٤٨٣ وتوفي شاباً في عام ١٥٢٩ وهو في السادسة والأربعين من عمره، ومن المعروف أنه قدم إلى إسبانيا عام ١٥٢٦ سفيراً لجمهورية البندقية لدى الأمبراطور كارلوس الخامس Carlos V.

وقد جاءت رحلة نافاجيرو في جملة أعمال متعددة الموضوعات تركها هذا الرحالة، ونشرت كاملة في بلدة بادوا Padua سنة ١٧١٨ م بعنوان "اندريا نافاجيرى، البطريق البندقي، الخطيب، الشاعر، مجموعة أعماله"

"Andreoe Navagerii, Patricii Veneti, Oratoris et Poetoe Clarissimi Opera Omina"

باللغتين اللاتينية والايطالية .

وقد ترجمت رحلة نافاجيرو إلى اللغة الإسبانية عدة مرات، وظهرت منها طبعات مختلفة نذكر منها: الترجمة التي قام بها فرانسيسكو خابيير سيمونيت للجزء الخاص بوصف المؤلف لغرناطة، ونشرها في كتابه "وصف مملكة غرناطة".

"Francisco Javier Simonet : Descripcion del Reino de Granada Sacada los Autores Arabigos (Granada 1812)"

وكذلك الترجمة التي قام بها خوسيه ماريا الونسو جامو بعنوان "رحلات السيد العظيم أندريا نافاجيرو إلى إسبانيا سفيراً لجمهورية البندقية لدى الامبراطور كارلوس الخامس (بلنسية ١٩٥١)

"Jose Maria Alonso Gamo : Viajes a España del magnifico señor Andrea Navajero embajador de la Republica de Venecia ante (المعرب)El Emperador Carlos V (Valencia 1951)

(٣)- الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول ، يقدر طوله بثلاثة أميال، أي حوالي ٩١٩٣,٥ كيلومترات.

انظر: -
محمود فاخوري، صلاح الدين خوام: موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية ومايعادلها بالمقادير الحديثة. بيروت [د.ت]، ص١٤٤. (المعرب)

(٤)- أربونة Narbona : مدينة هى آخر ماكان بأيدي المسلمين من مدن الأندلس وثغورها مما يلي البلاد الإفرنجية، وقد سقطت في سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.

انظر: -
الحميرى: محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٨٨، ص١١-١٢. (المعرب).

(٥)- الخطوة: تعادل الخطوة ٣ أقدام، أى ما يقابل حوالي ٧٤ سنتيمتراً،

انظر: -
محمود فاخوري، صلاح الدين خوام: المرجع السابق. ص٩٨. (المعرب)

(٦)- إتفاقية إعادة الكونتية عُقدت في ١٨ يناير ١٤٩٣م.

انظر: -
(Zurita : Historia del Rey don Fernando el Catolico, libro I, Cap. IV)

(٧) تقع La Boulou على بعد ستة فراسخ إلى الجنوب من بربنيان Perpiñan، على الطريق القديم بين برشلونة ومونبلييه Montpelier، كما تظهر في الطريق من مدريد إلى برن الذي ورد في رواية رحلة دوق مدينة سالم إلى نابلي (١٧٤٧ – ١٧٤٨)

انظر: -
Paz y Melia : Archivo y Biblioteca de la casa de Medinaceli, serie 1ª, Historica pag. 233

في نفس هذا المؤلف وردت يوميات الرحلة إلى نابولى التي قام بها دوق أركش Arcos ومراكيز و Guevara و Penafiel و Cogolludo. وقد جاء فيها "وعبرنا نهر Ilobregat وقرية Bellaparda الأولى في فرنسا، عند ارتقاء جبال البرتات، وقرية Boló قضينا الليل في بربنيان" ص٢٥١.

(٨) أول أساقفة خيرونا Gerona كان سان بونثيو San Poncio الذي توفي في عام ٣٠٧م، وخلفه سان نارثيسو San Narciso الذي استشهد في سنة ٣٠٧م

انظر: -

Villanueva : viaje literario (t.XIII pág 1)

(٩) برشلونة Barcelona: بينها وبين طركونة خمسون ميلاً وبرشلونة على البحر ومرساها ترش لا تدخله المراكب إلا عن معرفة، لها ربض وعليها سور منيع، وبرشلونة كثيرة الحنطة والعسل والحبوب، واليهود بها يعدلون النصاري كثرة وربضها خارج عنها.

انظر: -

الحميرى: المصدر السابق. تحقيق ليفي بروفنسال. ص٤٢ والترجمة ٥٣ - الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م، ص٨٦-٨٧. (المعرب) .

(١٠) المارك El marco : يحتوى على ثمان أوقيات أو نصف رطل. لا اعرف كم كانت بالضبط قيمة المارك الفضي في سنة ١٤٩٤م، ربما كانت ٦٥ ريالاً. يقول Colmenares أنه في سنة ١٤٩٧، أمر الملكان الكاثوليكيان بعمل موقد في مقابل ١١ ديناراً لكل ٦٥ ريالاً للمارك.

Historia de Segovia ed de 1922, t.11 pag 361

هذه القيمة ارتفعت إلى ٦٧ ريالاً في سنة ١٥٢٨م كما يظهر في قائمة جرد المنقولات التي جمعت عند وفاة دون لورنثو سوارث Don Lorenzo Suárez de Figueroa ماركيز

باغة Priego (مدينة بالأندلس من عمل غرناطة) حيث نقرأ الملاحظة الآتية: كل مارك من الفضة يعطي لدار سك النقود لعملها، تستلم ٦٧ ريالاً.

Paz y Melia, cit. , p.147

وحسب Colmenares نفسه، فإن مارك الذهب كان به ٢٣ قيراطاً ومنه يمكن الحصول على ٦٥ وثلث ريال من الفضة.

(١١) هو الإمبراطور الروماني دقلديانوس Diocleciano (حكم من ٢٨٤ـ٣٠٥م). (المعرب) .

(١٢) طرطوشة Tortosa : -

تقع في شرق إسبانيا إلى الشمال من مصب نهر ابرو Ebro وبها اسواق عامرة وتجارات وضياع ودار صناعة. كان يطلق عليها في العهد الرومانى Dertosa، ونالت اهتمام الدولة الأموية، وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس استقل بها الفتيان الصقالية ثم خضعت لبنى هود ملوك سرقسطة حتى سقطت في يد رامون برنجر الرابع وفرسان الداوية في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م.

انظر: -

ابن حيان: المقتبس. تحقيق ش الميتا، مدريد، ١٩٧٩، ص٢٧٨ - الإدريسى، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. بيروت، ١٩٨٩. ج٢، ص٥٥٥ - الحميرى: المرجع السابق. تحقيق احسان عباس، ص٣٩١-٣٩٢. (المعرب)

(١٣) بلنسية Valencia :
كورة ومدينة تقع في شرق الأندلس يرويها نهر صالح للملاحة يسمى الوادى الأبيض، تشتهر بإنتاجها الزراعى إلى جانب أنها تعدّ مركزاً تجارياً مهماً. تبعد عن مدريد ٣٠٢ك.م، أسسها الرومان عام ١٣٩ق.م وخضعت للقوط سنة ٤١٣م وافتتحها المسلمون عام ٩٣هـ/٧١١م وسقطت في يد خايمى الأول ملك أراجون سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م.

انظر: -
ابن غالب الغرناطى، نص أندلسى جديد. قطعة من كتاب فرحة الأنفس. تحقيق لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية ١،ج٢، نوفمبر مج١٩٥، ص٢٨٥ –
الإدريسى : المصدر السابق. ص٥٥٦. (المعرب)

(١٤) يشير المؤلف إلى الثورات التي قامت ضد حكم امير بيانا Viana.

(١٥) اليوم من أرض طرح البحر، التي أصبحت داخل المدينة.

(١٦) يذكر معجم الأكاديمية Diccionario de la Academia أن كلمة لونخا Lonja مشتقة من الإيطالية loggia، ولكن من المحتمل أنها اشتقت من الكلمة العربية الفندق Alhondiga واللفظ ينطق في ليموج في جنوب فرنسا ,Lóndixa Londx, Lonxa, Lemosina.

(١٧) الذي مات في نابولي ليس في سنة ١٤٥٣ وانما في سنة ١٤٣٨ هو الأمير دون بدرو Don Pedro شقيق دون

الفونسو الخامس Don Alfonso V ملك أراجون. والأمير دون أنريكى كان له دور في التغييرات في قشتالة خلال حكم دون خوان الثانى Don Juan II. ابن هذا الأمير كان يسمى أيضاً انريكى، الذي يتحدث عنه في هذا الفصل.

(١٨) القاقم حيوان من فصيلة نبات عرس. (المعرب)

(١٩) كقاعدة عامة يطلق على مقصورة الكهنة في الكنيسة كلمة Chorus.

(٢٠) في عامي ١٤٩٢ و ١٤٩٣ .

(٢١) الفلورين Florine عملة في العصور الوسطى. (المعرب)

(٢٢) كانوا يطلقون كلمة Marranos على اليهود والمرتدين، وبصفة خاصة الآخرين. ويطلق عليهم مونزر دائماً هذا اللفظ. وحسب الأكاديمية فإن كلمة Marrano مشتقة من كلمة الملعونة Maran atha المستعملة عند سان بابلو San Pablo.

(٢٣) بعد زيارة مونزر لبرشلونة بأكثر من قرن كانت قنوات الصرف من المميزات الجديرة بالذكر في إسبانيا.

انظر: -

Hispania Illustrata, tomo II, pag. 464

(٢٤) يعطى سان ايسيدورو San Isidoro مايعادل مائة رطل Libra في مقابل الثنتناريو Centenario، وبحسب ذلك فإن شموع الـ Montsersat كانت تزن من ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ رطل، أى ما يعادل من ٤٦٠ إلى ٥٥٢ كيلو جرام. ومن المؤكد أن وزن الرطل كان يختلف كثيراً باختلاف الزمان والمكان، ولكن إذا حسبنا أن الوزن ١٢ أوقية نستطيع ان نؤكد الحساب بالتقريب، وذلك مع المعلومة التي تظهر في فصل آخر من الرحلة، فإنه عند الحديث عن الناقوس الكبير في طليطلة، يقول مونزر أنه كان يزن ٤٠٠ Centenario، وهنا يمكن أن نفترض أنه من المحتمل جداً أنه في عام ١٤٩٥م كان الوزن تقريباً مثل الوزن الحالى، فكانت ٤٠٣,١٧ كيلو جرام تزن ٤٠,٠٠٠ رطل أو ما يعادل ٤٠٣,١٨ كيلو جرام، بفارق قليل عما نعرفه اليوم.

(٢٥) بخصوص الأب بويل el Padre Boil يعطينا B.J.Gallardo عنه المعلومات الآتية (Essayo ... II, cods 103 a :105) ولد في طركونة Tarragonaحوالى عام ١٤٤٥م وعندما وصل إلى سن الشباب لبس ملابس الرهبان والتحق بسلك الرهبنة في Montserrat، وعاش حياة الزهد في إحدى صوامعه التي كانت تسمى Trinidad حيث ترجم من اللاتينية كتاب Las Colaciones لرئيس الدير اسحاق Isaac وطبع في سنة ١٤٨٢م في دير San CucuFate. وأضاف أنه في الجزء السادس من هذا الكتاب احتفظ Muñoz بمخطوط عن حياة بويل، كتب بواسطة don Juan Casesmar، وفي هذه الوثيقة يثبت أنه كان واحداً من الحواريين الإثنا عشر الأوائل، الذين كلفوا بالتبشير في الهند. شغل هذا الموضوع أيضاً الراهب الأب Villanueva، وقال انه لايمكنه أن يقتنع أن مكان الطبع المذكور كان في دير San Cufucat de Vallé، ولأنه لا يتفق مع

اسم Vallis Aretanae، فإنه لا يمكن التسمية بهذه الطريقة، ولكن يمكن الإعتقاد بأن مكان الطبع كان ديراً لسان كوفوكات الذي شيد في el Valle de Asan(الرحلة جـ٧ ص١٥٥)، ومن المحتمل انه قد طبع في الدير بواسطة إحدى المطابع المتجولة التي كانت تطوف عندئذ في إسبانيا للعمل في بعض الأماكن.

(٢٦) وقع هذا الإعتداء في ٧ ديسمبر ١٤٩٢م.

(٢٧) يخطئ مونزر عند قوله أن الزوجة ابنة الملكين الكاثوليكيين وأنها كانت تسمى دونيا خوانا Doña Juana وأن زوجها الأمير دون ألفونسو Don Alfonso ابن دون خوان الثانى Don Juan II ملك البرتغال. مع أنه لم يقع في نفس الأخطاء عندما تحدث بعد ذلك عن بنات دون فرناندو ودونيا ايسابيل، مما يبرهن أنه كان على المؤلف أن يصحح قليلاً في بعض مذكرات الرحلة.

(٢٨) هذه هى الأسطورة المعروفة بـ Garin. بفاندل Pfandl يؤكد أن رواية مونزر تختلف عن الأحداث المعروفة، إلا أنها يمكن أن يكون لها أهمية في التعرف على الرواية السمعية في الإقليم.

(٢٩) San Pedro de las Puellas.

(٣٠) قصة الأسطورة التي ذكرها مونزر لا تختلف في جوهرها عن تلك التي جاءت في قصيدة Monserrate لـ Cristobal de Virués الذي يؤكد أن الشيطان قد تملك ابنة Wifredo el Belloso لتُفقد عند جارين Garin، وترتب على ذلك أن حملت الفتاة على حياة النسك التي كانت قد هجرتها

في الأيام الأخيرة. وفي نفس الوقت ظهر شيطان آخر على هيئة راهب تائب يسكن كهفاً قريباً من كهف جارين، وكان هو الدافع على الجريمة.

قبل أن يذهب إلى روما، عمل جارين جندياً وقاتل في المغرب وإيطاليا، وأخذ أسيراً وحكم عليه بالموت، ولكنه أنقذ بمعجزة، وأخذ يتردد على البابا ليون الرابع Leon IV، الذي اعترف له بجرائمه، فأمره أنه لكى يتوب فإن عليه أن يعود إلى Monserrat ماشياً على أربع، ولا يعود إلى السير على اثنتين حتى يأتى اليوم الذي يسمع فيه طفلاً عمره ثلاثة أشهر يتكلم. بعد ذلك ألقى القبض عليه على يد قناصة القمط ، عندما خرج للصيد على جبل Monserrat، فشرح لهم قصته، الذين ما لبثوا أن اقتنعوا بأنه انسان. وبمضى السنوات، ولد ابن للقمط وأقيمت الإحتفالات الكبرى، التي استمرت ثلاثة أشهر في ولائم عظيمة، وطاف جارين حول المائدة بهدف السرقة، وأثناء ذلك جاء طفل، وبدأ يتكلم بكلمات ذكرت في النص. اعترف جارين عندئذ بجرمه، وعاد إلى Monserrat مع القمط وأتباعه لكى يستخرج الجثمان ويقيم له قبراً عظيماً، وليرى صور العذراء المعجزة التي كانت تتجلى عندئذ في أماكن مختلفة. أسس الدير، وحسب القصيدة، كان مخصصاً للنساء فقط، وكانت أخت القمط أول رئيسه للراهبات به. وانزوى جارين في صومعته حتى نهاية حياته.

(٣١) يستخدم الكاتب هنا وفي فقرات اخرى كلمة Conversus التي كانت تشير إلى الراهب الخادم.

(٣٢) مرسية: قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت داراً للعمال وقراراً للقواد، (وكان الذي تولى

بنايتها وخرج العهد إليه في اتخاذها جابر بن مالك بن لبيد سنة ٢١٦هـ/٨٣١م).

ومرسية على نهر كبير يسقى جميعها كنيل مصر يسمى نهر شقورة، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة، وهى راخية اكثر الدهر رخيصة الفواكة كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمر، وبها معادن فضة غزيرة متصلة المادة، وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريفة ولأهلها حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم، سقطت في يد خايمى الأول ملك أراجون سنة ٦٤٤هـ/١٢٦٦م.

انظر: -

العذرى: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك. تحقيق عبد العزيز الاهوانى، مدريد، ١٩٦٥، ص٦- الحميرى: المرجع السابق، تحقيق بروفنسال، ص١٨١، والترجمة ص٢١٨ - الحميرى: المرجع السابق، تحقيق احسان عباس، ص٥٣٩-٥٤٠. (المعرب)

(٣٣) من هذه الكلمات المختصرة التي لم يعرف مونزر أكثر من إدخالها تماشياً مع سياق الحديث، لأنه ربما لم يكن قد خبر جيداً المعلومات التي تقدمها له. يقول ماريانا Mariana ان دون خايمي عندما ابتلى بالمرض، ويأس الأطباء من شفائه، سلم مقاليد الملك لابنه، وزوده بالنصائح المفيدة، ليعلمه الحكم. ثم لبس ثوب الرهبنة حسب نظام سان برناردو San Bernando بغرض أن يقضى بقية عمره في دير بوبلت Poblet وأبدى رغبته أن يدفن هناك. ولم يمض وقت طويل حتى مات في بلنسية في ٢٧ يوليو.

(Historia de España, Libro XIV, Cap. II)

وعاش خايمى الأول أعزباً متبتلاً.

(٣٤) الملوك الذين كانوا مدفونين هناك في فترة زيارة مونزر هم: ألفونسو الثانى Alfonso II، خايمى الأول Jaime I، بدرو الرابع Pedro IV، وزوجاته الثلاثة: ماريا دى نابارا Maria de Navarra، ليونور دى برتغال Leonor de Portugal، وليونور الصقلية Leonor de Sicilia، خوان الثانى وزوجاته الاثنتين: ماثا دى ارما جناك Matha de Armagnac، وبيولانتى دى بار Violante de Bar، ومارتين الأول Martin I، وفرناندو الأول Fernando I، وخوان الثانى Juan II مع زوجته الثانية دونيا خوانا انريكيث Doña Juana Enriquez .

(٣٥) يستخدم المؤلف كلمة Plaustra ويشير بها دون شك، إلى العربات، التي من المحتمل أن تكون ذات عجلتين، والتي كانت تستخدم في بلده، في نقل النبيذ.

(٣٦) في إقليم طركونة Tarragonga.

(٣٧) في مقاطعة Castellón.

(٣٨) ليس من المؤكد أن تكون تلك القرية هى المشار إليها. فإن هذا الطريق هو نفسه الذي ذكره Barthéleny Joly في سنة ١٦٠٣ الذي بعد أن عبر سان ماتيو San Mateo وكهوف Vinromá و Cabanes كتب:

Suit aprés la Puebla, villareal, Buriol, etc .. (loc. Cit., pág 507)

(٣٩) في الأعوام ١٤٨٦، ١٤٨٧.

(٤٠) من المؤكد أنه يتحدث عن الترك.

(٤١) شئ مشابه كان يحدث أيضاً مع الزعفران (انظر دراسة للسنيور لوبث دى لا أوسا Senor Lapéz de la Osa المعنونة بـ
Cultivo del azafrán, Madrid 1900 – pág. 28;

الدكتور Andrés Laguna يعطينا بعض الملاحظات حول حصاد القرمز التي تفسر السرعة التي كانت تلائم مثل هذا العمل فيقول "داخل هذه الحبوب، توجد خيوط دقيقة، حمراء بلون الدم القانى، ذكية الرائحة جداً... هذه الخيوط تخرج من البذور (التي كانت تنتشر في الأرض) في كميات كبيرة مدهشة تتسلق الجدران القريبة، وتجمع كميات كبيرة من تلك الخيوط، ثم يرشونها بالنبيذ الأبيض الفاخر، وبهذه الطريقة، يصنعون منها عجينة، التي بعد أن تجف تطحن وتصير مسحوقاً ثميناً من القرمز لصباغة الحرير وجعله بلون القرمز.
(Dioscórides illustrado, Amberes 1555, pág.404)

القرمز El Karmes يواصل الدكتور Laguna، هو نفس القرمز Grana وأن هذا الاسم يدل في اللغة العربية على خيوط الذهب والفضة من هذا النبات
(Loc. Cit.) "

(٤٢) مُربيطر **Murviedro**
من أعمال بلنسية، كثيرة الزيتون والشجر والأعناب وأصناف الثمار الأخرى، تعرف اليوم باسم Sagunto وتتبع ولاية بلنسية.

انظر : -

العذرى: المصدر السابق، ص١٩ - ابن الأبار: الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٨٥ ج٢، ص١١٥، متن وح رقم(١) - الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٨١ والترجمة ص٢١٧ - الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٥٤٠. (المعرب)

(٤٣) لقنت : من بلاد الأندلس، بينها وبين دانية على الساحل سبعون ميلاً. وهى مدينة صغيرة عامرة، بها سوق ومسجد عامر ومنبر ويتجهز منها الحلفاء إلى جميع بلاد البحر، وبها فواكه وبقل كثير وتين وأعناب، ولها قصبة منيعة جداً في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب، وعلى صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق، ومن لقنت إلى الش في البر مرحلة.

انظر : -

الادريسى نزهة المشتاق ص١٩٣، الحميرى (بروفنسال١٧٠ والترجمة٢٠٥). (المعرب)

(٤٤) كلمة eimer تعنى في اللغة الألمانية: دلو أو مكيال سعته ٢٥ أو ٢٦ لترا كما سنرى بعد ذلك عند الحديث عن el medio (مكيال قديم يساوى ٨،٥ لتر) و ánfora تعنى جـرة أو قارورة.

(٤٥) Villanueva عند بحثه في المخطوطات التي رآها في أرشيف كنيسة طرطوشة، يذكر Colectario، الذي كان من المفترض أنه يستعمل في الاستخدامات الديرية، وكان

يؤتى به من أفنيون Aviñon بواسطة Gaufredo أو Wifredo حتى أواسط القرن الثامن عشر، ويشير إلى أنه كان "يحفظ به الدهن للمرضى قبل العشاء الأخير، وكان من المعتاد أن تغسل أجساد الموتى بالماء الساخن قبل تكفينهم.

انظر: -

(Viajé, Tomo V, pág. 10)

(٤٦) كان من المعتاد وضع ملابس المحكوم عليهم بالإعدام في محاكم التفتيش على جدران المعابد مع العبارة "أخذ وثيقة البراءة في الكنيسة" التي كانت تستعمل لتوجيه اللوم إلى أى يهودى.

(٤٧) يقع المؤلف هنا في عدة أخطاء... أولاً: مؤسس دير القديس ترينيداد Trinidad لم تكن دونيا خوانا doña Juana وإنما دونيا ماريا دى كاستيا doña María de Castilla زوجة الفونسو الخامس Alfonso V ملك البرتغال، التي لم تكن تعود إلى أصل فرنسى، وإنما قشتالى من ناحية الأب دون إنريكى الثالث don Enrique III ملك قشتالة، وانجليزية من ناحية الأم دونيا كتالينا doña Catalina. بالإضافة إلى ذلك، فإنها لم تؤسس الدير في سنة ١٤٦٢م بعد وفاة زوجها، كما يذكر مونزر، وإنما في عام ١٤٤٤م، فانه تسلم في حياة دون الفونسو في ٢٢ يناير سنة ١٤٤٥م مبنى راهبات سانتا كلارا Santa Clara. الذي كان حتى ذلك الوقت ديراً لترينيتاريوس Trinitarios، الذي أصبح صغيرا بالنسبة لجماعة الراهبات، الملكة عند رؤيته، أمرت بتشييد دير آخر على نسق جديد، ووضعت حجر الأساس في التاسع من يوليو من نفس السنة ١٤٤٥م.

اخيراً، أخطأ مونزر عندما ذكر انها دخلت الدير بعد وفاة زوجها، التي يذكر أنه سمعها تقول، وربما أنه لم يفهم ما قالته جيداً، أن دونيا ماريا في مجاملة منها عن استعدادها لتنفيذ الوصية وتكفن كعادة الرهبنة النسائية . ظل دون ألفونسو على قيد الحياة ثلاثة أشهر، ثم توفي في بلنسية في الرابع من سبتمبر سنة ١٤٥٨م ودفن في رواق أسفل الدير المذكور.

انظر : -

A gustin Sales : Historia del Real Monasterio de la Santisima Trinidad, Religiosas de Santa Clara de la Regular Observancia, Luera los muros de la ciudad de Valencia, (Valencia 1761)

(٤٨) التحقت الأميرة دونيا ماريا بسلك الرهبنة في دير ترانيداد، وهى لم تكن أختاً لدون فرناندو الكاثوليكى، وإنما ابنته. وقد دخلت الدير في عمر الخامسة وتوفيت في سنة ١٥١٠م عندما كان مونزر في بلنسية كانت رئيسة راهبات الدير المذكور هى Aldonza Monsoriú، التي كانت وصيفة للملكة دونيا ماريا، وربما كان سبب الخطأ الذي وقع فيه مونزر أن دونيا خوانا دى آراجون، أرملة فرناندو الأول، ملك نابولى، كانت قد أقامت حينئذ في المدينة، وتوفيت في نفس العام، وهى أخت دون فرناندو الخامس، وكانت ورعة تقية مخلصة لدير تريبنيداد، ومن المحتمل أنها عند وصولها إلى بلنسية، أقامت في إحدى غرف الدير، إلى أن عينت نائبة لملك بلنسية في سنة ١٥٠٠م.

(٤٩) دون خوان دى بورخا Don Juan de Borja الدوق الثالث لجانديا Gandia ووالد سان فرانسيسكو دى بورخا San Francisco de Borja.

(٥٠) حسب Ontig de la Vega كونت ولبة Oliva وُجد قبل دون رودريجو كاليرون Don Rodrigo Caleron بـ ١٢٥ سنة.

انظر : -

(Cronica de las dinastias austriaca y Borbónica, libro III, cap. VII)

يتحدث بيانوبيا Villanueva عن رسالة لاتينية رآها في رهبانية بورتاثيلى Portaceli كتبها دون دييجو دى مندوثا don Diego de Mendoza في بلنسية في سنة ١٥٢٠م وموجهة إلى don Serafin Centelles كونت ولبة (الرحلة جـ١ ص٥٧)

و Aversa أو Anversa كانت إحدى المدن النابوليتانية ضمن الأراضي التي استسلمت لدون ألفونسو الخامس ملك أراجون في أول صورة تظهر في حوليات ثوريتا Anales de Zurita(Libra XI, Cap LIX) وفي بعض المعاجم الجغرافية القديمة ومنها على سبيل المثال:

El Geográfico – Universal, de Vega (Madrid 1806)

وفي رسالة الرسام Rubens المؤرخة في نفس البلدة (أرشيف ومكتبة بيت مدينة سالم)

(Archivo y Bibleoteca de la casa de Medinaceli, serie 1ª págs. 396 y 397)

وفي مؤلف Raneo Etiquetas de la Corte de Nápoles (1634) المنشور بواسطة el Señor Paz y Melia جاء أن أسرة Capua كانت نابوليتانية بمقاطعة Ambersa.

ومن المحتمل أن هذا الإسم كان يحمله عندئذ بعض السادة الذين حضروا في سنة ١٤٩٤م إلى بلنسية مع دونيا خوانا دى أراجون أرملة فرناندو الأول ملك نابولى.

(٥١) شاطبة Jativa :
تقع في كورة بلنسية، كانت تشتهر بانتاج كاغد لا نظير له في معمور الأرض، كان يطلق عليها عند الرومان Saetabis، استقل بها عبد العزيز بن أبى عامر في عصر ملوك الطوائف حتى استولى عليها بنو هود ثم خضعت للمرابطين والموحدين، سقطت في يد الملك خايمى الأول ملك أراجون سنة٦٤١هـ/١٢٤٣م.

انظر : -
العذرى، المصدر السابق. ص٢٠٠ - ابن الكردبوس، الإكتفاء في أخبار الخلفاء. تحقيق أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥-١٩٦٦، ج٣، ص٩٦ - الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٣٣٧. (المعرب)

(٥٢) طليطلة Toledo:
بينها وبين البرج المعروف بوادى الحجارة خمسة وستون ميلاً... وطليطلة عظيمة القطر كثيرة البشر، كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق، وهى حصينه لها

أسوار حسنة وقصبة حصينة... تقع على ضفة النهر الكبير... ولها قنطرة من عجائب البنيان ، وهى قوس واحدة، والماء يدخل تحتها بعنف وشدة وجرى، ومع آخر النهر ناغورة ارتفاعها تسعون ذراعاً ترفع الماء إلى أعلى القنطرة، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة.

ويقال أن معنى طليطلة باللاتينية "تولاطو" فرح ساكنها، يريدون لحصانتها ومنعتها، أفتتحها طارق بن زياد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، كانت مقراً لدولة بنى ذى النون في عصر ملوك الطوائف، وسقطت في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ١٠٨٥م.

انظر : -
الادريسى: المصدر السابق. ص١٨٧ - الحميرى: المصدر السابق. ص٣٩٣_٣٩٥ - دائرة المعارف الإسلامية مادة(طليطلة). (المعرب)

(٥٣) نبيذ لقنت Alicante كان ما يزال يحتفظ بشهرته حتى أوائل القرن الثامن عشر. سان سيمون Saint Simon في فصله الممتع عن ذكرياته التي جعلها بعنوان Journal de la maladie du Roy يروى ان نبيذ لقنت أعطى للويس الرابع عشر شراباً لعلاج غرغرينا حسب وصفة طبيب بروفنسى، ثم أضاف أنه قبل الوفاة بأربعة أيام تناول الملك كعكاً محمصاً ومبللاً بنفس النبيذ.

(٥٤) جاء في معجم Dum-cange أن Soma (وهى نفسها Sauma) تعنى في بعض المرات حمولة دابة ، ومرات أخرى يقصد بها مكيال يعادل ٥،٨ رطلاً.

المعادلة تعطى في الـ Modio الرومانى (كيل قديم يعادل ٨ ١/٢ لتر) مايتراوح بين ٨,٦٦ و ٨,٧٥ لتر.

انظر : -

(Ureña, El "modius" de ponte Puñide, en"Boletin de la Real Academia de la Historia" tomo LXVI pág. 485)

وبحسب سان ايزيدورو San Isidoro فإن الـ modio كأداة للوزن تعادل ٤٤ رطلاً.

(Etymol, Libro XVI, cap. XXVI)

ولكن يجب أن يؤخذ في الحسبان أن هذه الأرطال، كما ذكر في نفس الفصل، كانت من ١٢ أوقية، وأيا ما كان الأمر، فإن محصول اللوز، إذا صح الرقم الذي ذكر في النص، كان لا يتجاوز ٦٠ هيكتولتر.

(٥٥) ذكر معجم الأكاديمية أن كلمة Elché مشتقة من الكلمة العربية إلش وتعنى خائن أو سئ السمعة، لكن البعض (الأب فلوريث Florez) يرى أن الكلمة عبارة عن تحريف للإسم Illici الذي كانت تحمله المدينة في عصر الرومان.

انظر : -

España Sagrada, tomo VII, pág. 221

انظر كذلك :

Illici, hoy la villa de Elche, ilustrado con varios discusrsos, por don Antonio Mayans y Siscar, (Valencia 1771)

وقد جاء في المصادر الجغرافية العربية أن اقليم إلش من كورة تدمير بينه وبين أريولة خمسة عشر ميلاً، وإلش مدينة في مستوى من الأرض، يشقها خليج يأتيها من نهرها يدخل من تحت السور، ويجرى في جهاتها ويشق أسواقها وطرقاتها، ومن إلش إلى لقنت خمسة عشر ميلاً.

انظر : -
الإدريسى: المصدر السابق. ص١٩٣ - الحميرى: المصدر السابق. ص٣٠. (المعرب)

(٥٦) قرطاجنة Cartagena :
هذا الاسم في ثلاثة مواضع احدها بالأندلس عند جبل طارق، وهى مدينة للأول غير مسكونة وبها آثار كثيرة وتعرف بقرطاجنة الجزيرة وبمرساها نهر يصب في البحر يعرف بوادى الرمل.

والثانية قرطاجنة الخلفاء بالأندلس أيضاً من كورة تدمير وهى فرضة مدينة مرسية، وهى مدينة أولية بها ميناء ترسو فيه المراكب الكبار والصغار، كثيرة الخصب والرخاء المتتابع،....

وبقرطاجنة هذه هزم عبد العزيز بن موسى بن نصير تدمير الذي سميت به تدمير سنة٩٤هـ/٧١٢م.

والثالثة قرطاجنة افريقية وهى أجلها وأشهرها وبينها وبين تونس عشرة أميال.

انظر : -

الإدريسى: المصدر السابق. ص١٩٤ - الحميرى: المصدر السابق. ص٤٦٢-٤٦٥. (المعرب)

(٥٧) لورقة Lorca :

مدينة قديمة بينها وبين مرسية نحو ستين كيلومتراً، تقع على جبل مرتفع، ولذا كانت تعتبر قلعة مدينة مرسية في الحروب التي نشبت بين المسلمين والمسيحيين، سقطت في يد الإسبان عقب سقوط مدينة مرسية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

انظر : -

الإدريسى: المصدر السابق. ص١٩٦ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٧١ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٥١٢-٥١٣ - دائرة المعارف الإسلامية مادة (لورقة).

(٥٨) من المحتمل أن هذه المعركة التي يتحدث عنها مونزر هى التي تسمى "de los Almorchones" التي وقعت سنة ١٤٥٢م.

(٥٩) عندما كان مونزر في المدينة لم يكن قد مر أكثر من خمس سنوات على سقوطها في أيدى المسيحيين الذي وقع في أواخر شهر ديسمبر ١٤٨٩م.

(٦٠) كانت الطقوس الدينية تبيح للمؤذن عندما يبدأ في الآذان أن يغطى أذنه اليمنى مع الإشارة باليد إلى نفس الجانب، لكن هذا العمل لم يكن إجبارياً.

(٦١) كلمة Ruba تعنى Arroba (وهى مقياس وزن قدره ١١،٥ كيلوجرام) ويتضح أن المؤلف ربما استخدم الكلمة القشتالية التي كتبها بهذه الطريقة، لكنه أخطأ في تحديد مايعادلها، لأن خمسمائة Centenarios يعادلها ٢٠٠ Arroba وليس ٢٤،٠٠٠ وهذا رقم مبالغ فيه لعمل مصابيح للمعبد.

(٦٢) يشير هنا إلى استراسبورج Estrasburgo وهى عند الرومان Argentoratum التي ذكرها Ptolomeo، ولكن هذا الإسم في الحقيقة أعطى للمملكة التي كانت مدينتها الرئيسية تسمى Argentina في العصور الوسطى، وهكذا أطلق عليها في Mapamondi mallorquin التي عُملت في سنة ١٣٧٥م للملك كارلوس الخامس ملك فرنسا والمحفوظة الأن في المكتبة الوطنية بباريس.

(٦٣) في النص Toblo (وفي مكان آخر Tablo) وهى تعنى: دوبلة Dobla، التي كانت تساوى ٢٤٠ مرابطى Maravedis في عصر انريكى الرابع.

انظر : -
(Colleccion diplomática de Enrique IV, tomo II, doc. CL, pág 556)

وكان هذا هو السعر المعروف للعبور إلى المغرب. إذ أنهم كانوا يحددون الدوبلة في اتفاقيات تسليم غرناطة بسعر

كان على المسلمين الذين يرغبون في العبور إلى المغرب أن يدفعوه بعدَ فوات الأجل المحدد بثلاث سنوات.

(٦٤) فيّ نصين ذكرهما Du-Cange دونت نفس الأخبار وفي النص الذي يوجد في Un Itinerarium لـ Bernardo Breydenbach لايكتفي فقط بذكر أنه رأى الصليب، وأنما يذكر أيضاً أنه رأى المصلوب.

(٦٥) بعد ذلك بثلاثة سنوات أصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوماً في مدينة دل كامبو Medina del Campo بتّاريخ ٢٢ أغسطس ١٤٩٧م، محددين من جديد عقوبة لهذه الجريمة، فقد كانت العقوبة المقررة من قبل ليست كافية لعقاب مثل هذه الجريمة الفظيعة ففي نظرهم أن الشخص الذي يرتكب هذا العمل الذي يتنافي مع الطبيعة البشرية كان يستحق العقاب وفي حالة ثبوت الجريمة، كان يحرق في لهيب النار ، كما كان يفقد بحسب هذا التشريع الجديد كل منقولاته مثل الأثاث .
(Nuevas Recopilacion I. 1ª, tit, 21, libr. 8ª)

(٦٦) فنيانة **Finãna :**
تقع على بعد حوالى ثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى من وادى آش، جامعة خطيرة كثيرة الكروم والتوت والبساتين وضروب الثمار، وكان بها طرز للديباج، والمياه تطرد في جميع جنباتها ، وأهلها عجم ذوو يسار.

انظر: -
الإدريسى : المصدر السابق. ص٢٠١ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٤٣، والترجمة ١٧٢

- الحميرى : المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٤٤١. (المعرب)

(٦٧) وادى آش أو وادى ايش Guadix :
كانت تعرف قديما باسم Acci، تقع على نهر فردس Fardes على مسافة ٥٣ كيلومترا شمال شرق غرناطة.

انظر: -
الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٩٢، رقم ٢٣٣ - الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٦٠٤-٦٠٥. (المعرب) .

(٦٨) أورتادو دى مندوثا Hurtado de Mendoza يتحدث عن البشرات Alpujarra فيقول أنها: "جرداء قاحلة، لا يوجد بها ريف، ولكنها بفضل عمل المسلمين (الذين لا يوجد لديهم مكان من الأرض يتركونه للبوار) بشوشون ويزرعون ، لديهم وفرة في الفاكهة والأغنام ويربون دود القز".
(Guerra de Granada, Valencia 1820, pag 99)

(٦٩) يجب عدم الخلط بينها وبين حامة غرناطة Alhama de Granada، التي كانت بعيدة جداً، فالحامات التي يشير إليها مونزر كانت تقع بين غرناطة ووادى آش.

(٧٠) كان هذا المسجد يقع في نفس المكان الذي يوجد فيه اليوم بيت القربان المقدس للكنيسة.

(٧١) كان للزناتيين فن حربي خاص بهم، يقوم علي استعمال الدروع الجلدية، وركوب الخيول الخفيفة ذات

الركاب المرتفع. كما كانت طريقتهم في القتال تقوم علي خفة الحركة وسرعة الكر والفر، وهي طريقة تختلف عن طريقة الإسبان المسيحيين الذين استعملوا السيوف والدروع الحديدية الثقيلة، والركاب الطويل المنخفض والخيول المدرعة.

وكل هذه الأشياء كانت تعوقهم عن الحركة أمام وثبات الزناتيين وخفة حركتهم. وقد برز هذا النظام بشكل خاص في عهد الدولة المرينية الزناتية في القرن السابع الهجري، مما اضطر الإسبان إلي اقتباس هذا الفن الحربي وتطبيقه علي بعض فرقهم العسكرية التي سموها بنفس الاسم تقريبا Zenetes أي الزناتيين. ثم لم يلبث هذا اللفظ أن تطور بعد ذلك في اللغة الإسبانية إلي Jinete ويستعمل الآن بمعني الفارس.

انظر: -
العبادي، أحمد مختار: في تاريخ المغرب والأندلس. الاسكندرية، ٢٠٠٥، ص٢١ . (المعرب) .

(٧٢) هذا ما تضمنته اتفاقية تسليم غرناطة حول هذا الموضوع: "إتفق أنه في الوقت الذي استقبل فيه أصحاب السمو في الحمراء أمروا أن يدخل رجالهم من باب الأعشار Alachar وباب Nexde ، ومن المعسكر خارج المدينة المذكورة، حيث يظهر أصحاب السمو، ولا يدخل الرجال من المداخل بل كان عليهم الذهاب لإستلام الحمراء وقت الاستسلام.... لكي لا يسبب ذلك لشعب غرناطة الإذلال عند رؤية دخولهم إلى وسط المدينة منتصرين، ولهذا يذكر مونزر أنه في الأيام التالية لدخول غرناطة، تجنب الملك ومن معه المرور في الشوارع عندما يخرجون من الحمراء او يعودون إليها.

(٧٣) يقصد جنة العريف .

(٧٤) كان الريال في ذلك الوقت يساوى ٣١ مرابطى Maravedis ، وحتى سنة ١٤٩٧م لم يرتفع إلى ٣٤، حسبما ذكر Colmenares في كتابه تاريخ شقوبية
Historia de Segovia de 1922, pág. 361.

المرابطى كان يساوى ١٠ دينارات أو دوقة Ducado ، ١١ ريال من الفضة. قيمة الدوقة كانت في سنة ١٥٣٦م، ٢٨٨ ديناراً، كما يظهر في رسالة الإنتصار العظيم وغنيمة وهران، التي تحتفظ بها مكتبة دوق مدينة سالم، حيث نقرأ فيها الملاحظة التالية: "هذا الكتاب ثمنه دينار واحد في برشلونة في يونيو ١٥٣٦م وتساوى الدوقة ٢٨٨ دينار.

انظر: -
(Arichivo y Biblioteca de la casa de Medinaceli, serie 1ª, Bibliografica pag. 329)

(٧٥) يشير مونزر إلى نهرى حدرة Darro وشنيل Genil، ولكن معلوماته يشوبها الخطأ، لأن هذين النهرين لا تجتمع مياههما على بعد ثمانية فراسخ من غرناطة، وانما في نفس دائرة المدينة. ونهر شينيل لا يتصل بنهر الوادى الكبير بالقرب من لوشة، وإنما في Palma de Rio في اقليم قرطبة.

(٧٦) في الحقيقة أنه حتى بعد حوالى اربع وثمانين سنة من الاستيلاء على انتقيرة Antequera كانت Antequeruela كما كانت في الأصل ربض من أرباض غرناطة.

(٧٧) أقيمت هذه الكنيسة في الموقع الذي تقع فيه اليوم دار القيادة العامة، والتي رآها مونزر وقد شارفت تقريبا على الإنتهاء من بنائها، والتي أصبحت بعد وقت قصير لا تفي بحاجة السكان، فأمر الملكان الكاثوليكيان بإقامة الكنيسة التي نعرفها اليوم في نفس المكان الذي كان يوجد فيه المسجد الأعظم الذي وصفه في النص، بينما خصص المعبد الآخر ديراً لسان فرانسيسكو.

وتشير الرواية إلى جانب ذلك الإهتمام بالتحديد الواضح لموقع حى اليهود في غرناطة على عهد المسلمين، الذي يدلل مونزر في حديثه أنه كان يقع في وسط المدينة في المنطقة المركزية لربض أنتقيرة بين الباب الملكى والأبراج الحمراء Torres Bermejas.

(٧٨) عاش الزغل في إقطاعيته في أندرش Andarax منذ الإستيلاء على وادى آش بعد سقوط غرناطة، بينما استقر أبو عبد الله الأخير في البشرات حتى اكتوبر ١٤٩٣م ثم عبر إلى المغرب.

(٧٩) في اتفاقية تسليم غرناطة اتفق أن "الذين يرغبون في العبور للإقامة وراء البحر أو أماكن أخرى يريدونها، يستطيعون بيع ممتلكاتهم ومنقولاتهم وأصولهم لمن يريدون" ومنح الذين سيعبرون مهلة مدتها ثلاث سنوات، وأمر الملكان الكاثوليكيان باعطاء السفن التي سوف يعبرون بها، بدون أن يتحملوا "رسوم وأجر هذه السفن"، وبعد مضى السنوات الثلاث، يمكنهم العبور في أى وقت ولا يتحملون عندئذ اكثر من دوبلة على كل رأس وتزويدهم بالسفن للعبور، واحتسبت مهلة السنوات الثلاث من تاريخ معاهدة التسليم، أما الذين

سيبقون في المدينة فكان "عليهم أن يدفعوا على منازلهم وعقاراتهم، مع دفعهم لأصحاب السمو أعشار الخبز والذرة والأغنام، ولا يؤمرون بترك مساجدهم ومآذنهم، لكى يعلنوا صلواتهم.

انظر: -
Garrido Atienza : Las Capitulaciones Para la entrega de Granada (Granada, 1910)

(٨٠) ألمرية Almeria :
مدينة ساحلية بجنوب شرق الأندلس، بناها الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر في سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥-٩٥٦م

انظر :-
الحميرى : المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٨٣-١٨٤ - دائرة العارف الإسلامية مادية (ألمرية) - سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ ألمرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس. بيروت، ١٩٦٩. (المعرب) .

(٨١) المنكب :
يبدو أنه اسم عربى بمعنى الحصن المرتفع وتسمى اليوم Almuñecar، وكانت في القديم تعرف بـ Sexi ، وهى مرفأ في جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة، نزل بها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند دخوله الأندلس في ربيع الأول ١٣٨هـ/سبتمبر ٧٥٥م.

انظر : -

الإدريسى : المصدر السابق. نشر دى خوية، ١٨٦٦، ص١٩٩ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٨٦. (المعرب) .

(٨٢) بليش مالقة :

تحريف للكلمة اللاتينية Vallis وتعنى وادى وتسمى اليوم Velez وتقع غرب مالقة وتبعد عنها بنحو ٣٤ ك.م

انظر: -

العبادى: خطرة الطيف. الامارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣، ص٧٦، ح٣٥٩. (المعرب) .

(٨٣) مالقة Malaga :

اسم لمدينة وولاية على ساحل البحر المتوسط جنوب شرق الأندلس، أسسها الفنيقيون عام ١٢٠٠ ق.م وأعطوها اسم Malaca ومعناها المملح نسبة إلى مستودعات الأسماك المملحة التي كانت تعمل وتحفظ فيها، كما كانت تشتهر بصناعة الفخار وزراعة التين.

انظر: -

الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٧٧- ١٧٩ - دائرة المعارف الإسلامية مادة (مالقة). (المعرب)

(٨٤) بسطة :

كانت تعرف قديماً باسم Basti وتعرف اليوم باسم Baza تقع في شمال شرق غرناطة وتبعد عنها بنحو ١٢٣ ك.م، كانت تشتهر بانتاجها الزراعى ولاسيما الزيتون والمنسوجات

الحريرية وينسب إليها الوطاء البسطى من الديباج الذي لا يعلم له نظير.

انظر : -

الادريسى : المصدر السابق. ص٢٠٠ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص٤٤، الترجمة ص٥٦– الحميرى : المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص١١٣. (المعرب)

(٨٥) لوشة Loja :

كانت تسمى قديماً Lacivis، تبعد عن غرناطة بنحو خمسين ك.م ، وهى مسقط رأس الأديب والشاعر والوزير لسان الدين بن الخطيب.

انظر: -

الحميرى : المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٧٣-١٧٤ - دائرة المعارف الإسلامية مادة (لوشة). (المعرب) .

(٨٦) الحامة Alhama :

بلدة صغيرة تقع على قمة جبل بالقرب من مدينة بجانة من أعمال ألمرية، أطلق عليها العرب اسم الحمة نسبة إلى العين الحارة التي كانت تتفجر فيها، وكانت مياهها كبريتية يقصدها المرضى من جميع النواحى بغرض الاستشفاء وكان بها حمام للنساء وآخر للرجال.

انظر: -

الحميرى : المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص٣٩ – العبادى: المرجع السابق. ص٨٩، ح٤١٨. (المعرب)

(٨٧) رندة Ronda :
وكانت تسمى قديماً Arunda ، من أهم القواعد العسكرية في الأندلس لارتفاعها وحصانة موقعها، ينسب إليها الفقيه ابن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء الله السكندرى.

انظر: -
الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص٧٩ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٢٦٩ - دائرة المعارف الإسلامية مادة (رندة) –العبادى: المرجع السابق. ص٩٢، ح٤٣٦. (المعرب) .

(٨٨) مربلة Marbella :
تقع بالقرب من مرسى سهيل ومرسى مالقة، ومربلة مدينة صغيرة مسورة من بناء الأول محكمة ممتنعة المرام وهى على بعد ستين كيلو متراً إلى الغرب من مالقة.

انظر: -
الحميرى : المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٨٠– الحميرى : المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٥٣٤. (المعرب)

(٨٩) الحادثة التي يشير إليها مونزر كانت مفاجأة الزهرة Zahara التي حدثت في سنة ١٤٨١، ليس في ليلة اليوم السابق لعيد الميلاد وانما في اليوم الثانى لعيد الصفح (٢٧ديسمبر) كما يذكر بعض المؤرخين، ومن بينهم:
(Barrantes Maldonado en sus Ilustraciones de la casa de Niebla (libro VIII, cap. XXIII, en el Memorial Historico Español, tomo X, pág. 319)

. (٩٠) قائد اشبيلية Capitaneus Sibilie استدعى مونزر إلى دون انريكي دى جوثمان don Enrique de Guzman ربما ليبين له من الذي يمارس السيادة الحقيقية على اشبيلية، فقد كان هناك نزاع كبير حول السيطرة على تلك المدينة، مما سبب الخلاف بينه وبين دون رودريجو بونثه دى ليون don Rodrigo Ponce de León ماركيز قادس Cadíz منذ أبائه وأجداده.

(٩١) وقع ذلك في اليوم الأخير من فبراير ١٤٨٢م.

(٩٢) نلاحظ أن النص لم يعط السبب في احتياج الماركيز إلى نجدته، ونسى مونزر أن يذكر أنه بعد الإستيلاء على الحامة بفترة قصيرة على يد رجال ماركيز قادس، قام ملك غرناطة بحصار البلدة، وواصل القتال، مما وضع المسيحيين في موقف حرج، فقام الماركيز بالكتابة إلى بلاد مختلفة طلباً للنجدة.

حسب رواية بارانتس Barantes فإن مركيزة قادس وجهت رسالة إلى الدوق، تلتمس منه أن يأتى لنجدة زوجها، شارحة له خطورة الموقف، وأن عليه أن يأخذ الفرسان لنجدة النساء المنكبات.

(Loc. Cit. Pag 322)

(٩٣) ملاحظات مونزر وبارانتس تتفقان تقريباً حول نهايات هذه الحادثة

(٩٤) لا يوجد في المدونات ولا في كتب التاريخ العام والخاص ذكر لمثل هذه الامور، ولكن على العكس تتفق كلها في القول كيف أن دون فرناندو الذي كان عندئذ في مدينة دل كامبو Madina del Campo استعد بسرعة، فقد كانت لديه فكرة عن سور الحامة. فرحل إلى الأندلس بدون إضاعة للوقت، وعند وصوله إلى جسر دون جونثالو don Gonzalo وجد أن الدوق قد وصل إلى هناك للنجدة، فعاد إلى قرطبة، حيث وحد المملكة.

(٩٥) كان يسمح للرجال والنساء بالدخول إلى المساجد، فإن الشريعة الإسلامية تقر بصفة عامة بالالتزام بالذهاب إلى دور العبادة، باستثناء المرضى، والسيدات النفساء، والأطفال حتى سن معينة، والعجائز المقعدون، والفتيات الأبكار، عندما لا يوجد في المسجد مكانا لهن فانهن يكن بعيدين عن الرجال، والعميان الذين لا يكون معهم من يقودهم والذين ينشغلون بأمور مهمة ولا يمكنهم الحضور. الشرع ينظم إلى جانب ذلك، طريقة البقاء في المساجد، والنظام الذي كان يتبع عند مغادرتهم المساجد "في المسجد يكون الشباب وراء الكهول، والنساء وراء الشباب، بعيدين عن كل الرجال، ولا يغادر أى رجل حتى تكون كل النساء قد خرجن.

لا تذهب الفتيات الأبكار إلى المساجد إلا إذا كان يوجد مكان منفصل ويحضرن متدثرات".

انظر: -

(Suna de los principales mandmientos …, cap. XX, pag. 296 y 297)

ومع ذلك فإن التحريم وُجد فيما بعد، كما ذكر مونزر، النساء المسلمات لا يحضرن الصلاة في المساجد.

أكثر من قرن ونصف وبعد أن كان هذا الأمر يجرى في غرناطة، جاء في رسالة رجل إسباني أنه قد لاحظ نفس الممارسة في المسجد الأعظم في القسطنطنية، حيث وصف الشعائر الخاصة بيوم الجمعة، فيقول: "لا تحضر النساء الخطبة الدينية لأنهن ممنوعات من الدخول... ولكن يحضرن في اوقات أخرى ويجلسن خارج الرواق، ولم يلاحظ ذلك عند الأتراك فقط ولكن لاحظه عند الفرس والعرب".
(Peregrinacion a la mayor Parte del mundo, por don pedro cubero Sebastian, reimpresion de la edicion de Madrid 168, Hecha por la Sociedad Amigos de Aragón, tomo 1, cap. XVI, pág 228)

(٩٦) تقام الصلاة العامة يوم الجمعة بعد أذان الظهر مباشرة، وخلال شعائرها تعطل سائر الاعمال حتى نهايتها فيعود كل واحد منهم إلى عمله كالمعتاد كما جاء في القرآن الكريم "فإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض".

(٩٧) الصلاة التي كان المسلمون يؤدونها يومياً، وكان نداء المؤذن إعلاناً عن دخول وقتها، كانت خمساً: الفجر، الظهر، العصر، المغرب، العشاء، لكل منها موعد قد يطول أو يقصر كان يمكنهم فيه إقامة الصلاة، باستثناء المغرب التي كان من الأفضل إقامتها في نفس موعدها عند غروب الشمس.
Suna ... cap. IX, pág. 269.

(٩٨) يروى الرحالة الألمانى جوهانز لانج Johannes Lange أن السيدات والفتيات الغرناطيات كن يرتدين وشاحاً من لون أبيض يغطى الجسم والرأس من جوخ يصل إلى بطن الساق وحجاباً للوحة . انظر :

Weiditz, Christoph, Das Trachtenbuch uon einem Relsennach Spanien p. 147, Al-Albadi, A.M., El Reino de Grananda en la época de Muhammad V (Madrid 1973) ,p. 145, Arie, R., Acerca del traje musulman en España desde la Caide de Granada hasta la expulsion de los Moriscos. R.I.E.I., 1965-66. P. 103-111.

كذلك يذكر الرحالة الإيطالى أندريا نافاجيرو الذي زار غرناطة عام ١٥٢٦م أن السيدات المسلمات كن يلبسن قمصاناً أطول قليلاً عن السرة، وبعد ذلك السراويل التي كانت عبارة عن قماش مكبوس يدخل فيها القميص قليلاً، وفوق القميص كن يلبسن معطفاً قصيراً مطرزاً هو وأكمامه بالحرير، وكان غالباً ما يكون من لونين، ويلبسن فوقه عباءة بيضاء من القماش، كانت تغطيهن حتى الأرض بطريقة تخفي شخصياتهن. كما كانت رقبة القميص موشاة، وخاصة لدى سيدات الطبقة الراقية، بزخارف من الذهب، وأحياناً كانت العباءات البيضاء اللاتى يلتففن بها تحمل زخارف هندسية من الذهب في كل نواحيها، كما كن يضعن قبعات سوداء على رؤوسهن.

انظر : -

Navagero, A., viaje a España del Magnifico Señor Andres Navagero. (1524-1526) trad, J.M. Alonso Gano (Valencia 1951) pp. 73-74

ويضيف نافاجيرو أن النسوة كن يلبسن في أقدامهن، أمداساً صغيرة مطرزة بالحرير، وجوارب مجعدة تجعل الركبة ضخمة جداً.

انظر: -

Navagero. , A. , op. cit. , p 73 . (المعرب)

(٩٩) كانت هذه تسمى Borfordar أو Bohordar وذلك بسبب إعطاء اسم Borfordar أو Bohordar لقصب السكر الذي يتحدث عنه الكاتب، والذي يبلغ طوله ستة أشبار، ألونسو دى بالنثيا Alonso de Palencia يحكى عن واحدة من تلك الألعاب التي شاهدها الملكان الكاثوليكيان في شريش Jerez، فيقول أنه كان يمارس فيها "الهجوم والقذف المتبادل بالقصب الطويل الذي يصد بواسطة الدروع، وكان المبارزون يرتدون سريعاًعن ميدان المبارزة ويتجمعون مع فرقهم الخاصة".

انظر: -

(Crónica de Enrique IV, trad. Castellana de A. Paz y Melia, tomo V, págs 456 y 457) .

(١٠٠) يشير إلى البارون al barón león de Rosmithal de Blanta وهو نبيل بوهيمى، صهر الملك چورچ البوهيمى Jorge de Bohemia ، الذي رحل إلى إسبانيا في سنة ١٤٦٧م، بعد أن لجأ إلى الأراضى الألمانية والإنجليزية والفرنسية.

حول هذه الرحلة توجد روايتان أحداهما لـ Gabriel Tetzel (الذي ذكره مونزر باسم Gabriel Tegel) والثانية لـ Shaschak، ومن المحتمل أنه كان أحد معاونى الرحالة.

وأصل هذه الرحلة مفقود، ولكنها حفظت في ترجمة وحيدة لها باللغة اللاتينية.

(١٠١) فراى إرناندو دى طلبيرة Fray Hernando de Talavera التابع لنظام رهبانية سان خورينمو san Jeronimo، كان قبل أن يصبح رئيس أساقفة غرناطة، أسقفا لأبيلا Avila، وهو المنصب الذي أنشئ له عندما شرع في حمله مالقة Málaga، في أثناء الحصار كان يمثل مع الكاردينال مندوثا el Cardenal Mendoza جزءاً من حاشية الملكة عندما وصلت إلى معسكر الجيش المسيحى. كتب العديد من المقالات عن الفلسفة الأخلاقية، وعلم اللاهوت والطقوس الدينية، معظمها باللغة القشتالية، ثمانية منها ضمهم جزء، وذكرهم نيكولاس أنطونيو:
Nicolás Antonio (Bib. His. Nova, 2ª ed, 1, pág. 390) .

وهناك نسخة من هذا العمل محفوظة في مكتبة دوق مدينة سالم، وفي رواية نيكولاس أنطونيو لا تظهر العناوين صحيحة صحة كاملة. إلا أن الكتاب القديم الذي يحتوى علي الرسائل، له فائدة كبرى، لأن ما فيه من معلومات أكثر دقة.

(١٠٢) يُجهل المصير الذي آلت إليه هذه الصور، التي كان حفظها سيمثل أهمية كبرى للتاريخ والفن. صور الملكين الكاثوليكيين لابد أنها كانت كثيرة في هذا العصر، في مالقة مثل غرناطة don Miguel Maria de Pareja، الخبير الكبير في أمور هذه المدينة الأخيرة، يؤكد أنه كان في المصلى الملكى في كاتدرائية غرناطة ثلاث لوحات لـ san Juan Bautista، واحدة منها، كانت من أجزاء، فان بها زيادات في جوانبها، تحمل صوراً لقديسين أو ربما لملوك. يزيد السنيور باريخا

الذي فحص القوائم القديمة للمصلى المذكور، تقريراً عن لوحة في وسطها صور لسان خوان باوتسيتا san Juan Bautista وسان خوان ايبانجليستا san Juan Evangelista وأسرة الملكين الكاثوليكيين. يؤكد أيضاً أنه في كنيسة سان خوان، مسجد صغير كرس بواسطة الملكين الكاثوليكيين للكاثوليكية بعد ثلاثة أيام من سقوط غرناطة، أى في الخامس من يناير ١٤٩٢م. توجد كذلك لوحة أخرى، هدية من هذين الملكين الكاثوليكيين، في وسطها رجل ورع، وعلى الجانب الآخر سان خوان باوتيستا وسان خوان ايبانجليستا، أسفل الأول توجد صورة دون فرناندو ممسكاً ببطاقة في يده جاء فيها:

"Et mortem Filii tui me Labor neus"

وأسفل ايبانجليستا ترى صورة دونيا ايسابيل ممسكة ببطاقة يقرأ فيها:

"Fac me dne . virtute pasionis tuae imitari et fide sectari"

صورة العذراء أيضاً تظهر وبيدها بطاقة جاء بها:

"Videte si e dolor sicut dolor meu et sentite in vobis"

كل هذه البطاقات لابد أنها كانت معروفة للمثالين التالين الذين نقشوا تماثيل الملكين الكاثوايكيين في كاتدرائيات غرناطة ومالقة. في الأولى وكما هو معروف توجد تماثيل لهؤلاء الملوك التي عملت نسخاً أخرى منها في سنة ١٦٨١م.

(١٠٣) يشير إلى القصبة.

(١٠٤) هو جبل فارو الذي يتصل بالقصبة بالشكل الذي أشار إليه مونزر، ومازال الأثر باقياً.

(١٠٥) استغرق العمل في السور أكثر من أربعة أشهر، فإن العمل قد بدأ فيه في ٧أبريل١٤٨٧م ، ولم تستسلم القلعة حتى ١٨ أغسطس.

(١٠٦) يشير إلى دون فرناندو دوق Braganza الذي ضربت عنقه في يابره بأمر من ملك البرتغال دون خوان الثانى، الذي اتهم بالخيانة ففقد ملكه وشخصيته الملكية، لاتهامه بعقد معاهدة سرية مع بلاط ملك قشتالة.

(١٠٧) هذا الرجل الصالح الذي بحسب ارناندو دل بو لجار Hernando del Pulgar يسمى ابراهيم الغربى Abrahen Algerbi، قُدم إلى ماركيز قادس كاسير، وأكد له انه يعرف كيف ومتى سوف يستولى على مالقة، ولا يمكنه أن يكشف ذلك إلا للملك. عندما تشكك الماركيز في هذا الرجل، رأى أن من واجبه أن يبعث برسالة إلى الملكين الكاثوليكيين، اللذان أمرا بأن ينقل إليهما هذا الرجل في اقامتهما الملكية. ففعل ذلك، وعند وصوله كان الملك ينام القيلولة، فقادوه إلى الخيمة حيث تنزل dona Beatrizde Bobadilla مركيزة مويا Moya وزوجة دون ألبارو ملك البرتغال، ابن دوق Braganza، وكانت حينئذ تتحدث مع الوصيفات "المسلم بسبب جهله للغة، اعتقد بسبب فخامة الملابس التي رآها على دون ألبارو والماركيزة، أنهما الملك والملكة، عندئذ أخرج سيفه وطعن دون ألبارو طعنة كبيرة في رأسه، كانت ستودى بحياته، ثم وجه طعنة أخرى إلى الماركيزة لقتلها، ولكنه لم ينجح بسبب ارتباكه، ووجه إليهما ضربات أخرى، أنقذها أمين خزانة الملكة Ruy López de Toledo الذي كان يتكلم في تلك اللحظة مع الماركيزة، وكانت لديه الشجاعة لنجدتها من هذا الخطر

المحدق، شل حركة المسلم، ولم يمكنه بقوة ذراعيه من توجيه طعنات أخرى، ومن ثم قطع إربا على أيدى الناس المحيطين.

انظر: -

(Hernando del Pulgar : Crónica de los Reyes Católicos, parte tercera, cap. LXXXVIII).

(١٠٨) في الخطبة التي ألقاها المؤلف أمام الملكين الكاثوليكيين، لم يشر عند حديثه عن لفظ Portalon وإنما Porlum Loni، ولكن لا يوجد للشكلين أى وجود عند البحث في هذه الجبال المشار إليها، وإنما يظهر ما يتطابق معهما في سلسلة جبال الأندلس، أو في Las Yeguas أو في Morón.

انظر :-

El Bosqueja fisico – geologico de la rejión septentrional de la Provincia de Málaga.

الذي كتبه Don Domingo Orueta

(Boletin de la Comisión del Mapa Geográfico de España, tomo IV)

كما لايوجد ميناء أو جبل يحمل هذا الاسم الذي يشير إليه مونزر، وربما أنه يقصد جبال طولوش Tolox.

(١٠٩) **مرشانة Marchena :**

مدينة بكورة اشبيلية ومرشانة أيضاً من حصون المرية.

انظر: -

ياقوت مادة مرشانة - الإدريسي: المصدر السابق. ص١٧٥ - والحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٥٤٢. (المعرب)

(١١٠) عندما كان مونزر في اشبيلية كانت قد مرت مائتان وستة وأربعون عاماً على الغزو.

(١١١) لم يدرك مونزر رؤية البناء كاملاً، وإنما رآه وقد أقيم الجزء الأكبر منه.

(١١٢) بحساب الأروقة والرحبات الجانبية والمصليات.

(١١٣) أكثر من أحد عشر منها كان العمل ما يزال يجرى فيها، وفي سنة ١٥٠٦م كان بعضها مازال العمل جارياً فيه.

(١١٤) المسافة أطول قليلاً، فإن اشبيلية تقع على مسافة ٨٧ كيلومتراً من البحر.

ومن المحتمل أن المؤلف يشير إلى وحدة من الأساطيل، فإنه في المعاجم البحرية لاتقابلنا هذه الكلمة، ولا توجد في المعانى المختلفة للفظ Vasus كذلك، وفي معجم Glosario de du Cange توجد بعض الكلمات التي تتفق مع المعنى الذي جاء في النص. وربما يكون المؤلف قد استخدم كلمة navis استخداما غير مناسب لكلمة Classis ، وفي هذه الحالة يريد أن يقول أنه بواسطة النهر يمكن أن يصل إلى اشبيلية أسطول من ١٥٠ سفينة.

(١١٥) Don Juan de Silva قدم إلى اشبيلية من سنة ١٤٨٢م حتى ١٥٠٦م وكان حامل الراية الأكبر لقشتالة.

(١١٦) معنى الجملة التي وردت في النص باللاتينية، ناقص وغير تام، فإنه كما يشير Pfandl، يُلاحظ حذف السند الذي كان يجب أن يوجد قبل أو بعد كلمة Quibusdan. هذا السند لا يمكن أن يكون أكثر من مرسوم أو ماشابه ذلك. الملكان الكاثوليكيان في مراسيم Medina del Campo في سنة ١٤٨٩م، وفيما يتعلق بالوسطاء والوكلاء والتي حررت في مدريد في ٢٤ فبراير ١٤٩٥م يؤكدون أن نواب المدينة Medina أمروا أن يظل الوكلاء في المكان حتى نهاية المقابلة. (Nueva Recop / 3ª tit. 24, lib 2º)

(١١٧) قصر إشبيلية، كان قد اسسه المسلمون في أواخر القرن الثاني عشر، ولكن عندما زاره مونزر كانت تجرى به الكثير من أعمال الإصلاح والزيادات التي إقيمت منذ عصر دون فرناندو الأول (وربما من قبل) في عصر الملكين الكاثوليكيين، ومع ذلك، فإن الإنشاءات الأكثر أهمية قد شيدت في فترة حكم هذا الملك بفضل إقامته الدائمة في المدينة، وقد ورد في نقوش القصر والتي سجلها Zúñiga أن "العالى جدا والشريف جداً والقوى جداً والفاتح دون بدرو بفضل الله، ملك قشتالة وليون، أمر بعمل هذه القصور وهذه الواجهات بتاريخ ١٤٠٢".

(١١٨) الملوك المدفونون في هذا المصلى هم دون فرناندو الثالث وزوجته دونيا بيا تريث دى سوابيا doña Beatriz de Suabia، دون ألفونسو العاشر ودون بدرو الأول.

كما توجد هناك أيضاً قبور دونيا ماريا دى باديا doña Maria de Padilla.

(١١٩) يوجد خطأ في هذه الرواية بالنسبة للأيقونات التي تحدث عنها. الأيقونة الأولى التي ذكرها والخاصة بعذراء الملوك La virgen de los Reyes والتي كانت بالمصلى الملكى، والتي يقول البعض أنها اهديت الى فرناندو الثالث من سان لويس دى فرانسيا san Luis de Francia، هذه الأيقونة تتفق مع إكليل الذهب الذي وجده مونزر في يديها، وقد سرق في عام ١٨٧٣م، الأيقونة الأخرى، مصنوعة من العاج وهى المعروفة باسم de virgen de las Batallas والتي، حسب التقاليد، كان الملك يحملها دائماً في قربوس المقعد عندما يدخل في قتال مع المسلمين، وتوجد حالياً في مذبح السرداب أو الضريح الذي يوجد أسفل مقصورة نفس المصلى.

(١٢٠) طريانة Triana:

من كوراشبيلية كان بها الملك الفونسو بن فرناندو عندما دعا قواد جيشه للإجتماع فيها عام الزلاقة لمحاصرة ابن عباد باشبيلية في سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م التي انتصر فيها المسلمون.

انظر: -

الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٢٦، والترجمة ص١٥٤ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٣٩٢-٣٩٣. (المعرب)

(١٢١) سعة الجرة حسب سان اسيدورو san Isidoro كان ثلاث Modios (كيل قديم يساوى ٥،٨ لترا) إيطالية (Etymol.,

el glosario de من هذه المعادلة يعرف lib. XVI, cap XXVI)
du – Cange سعة الجرة أودنان طريانة Triana بـ١٠٥ إلى ١١٣ لترا.

(١٢٢) لبلة Niebla :

اسمها القديم Hipla كانت مركزاً أسقفياً في عهد القوط افتتحها المسلمون في سنة ٩٣هـ/٧١١م. تقع إلى الغرب من اشبيلية، وتبعد عن ساحل المحيط الاطلسى بمسافة سبعة أميال. ثار بها احمد بن يحيي اليحصبى المعروف باللبلى بعد سقوط الدولة الأموية فبايعه أهلها، وقد خضعت بعد ذلك للمرابطين ثم للموحدين وقد سقطت في يد ألفونسو العاشر في سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وهى اليوم احدى مدن اقليم ولبة Huelva.

انظر : -

ابن حيان : المصدر السابق. تحقيق حجى، ص١٠٠،٢٠١- ابن غالب: المصدر السابق. ص٢٩١ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٥٠٧- ٥٠٨ - دائرة المعارف الإسلامية، مادة لبلة. (المعرب)

(١٢٣) يابرة Evora :

مدينة من كورة باجة بالأندلس، ينسب إليها ابن عبدون اليابرى الشاعر.

انظر: -

الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص١٩٧، والترجمة ص٢٣٩ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٦١٥-٦١٦. (المعرب)

(١٢٤) رسائل وأعمال كاتالدو Cataldo جمعت في كتابين نادرين طبعا في لشبونة سنة ١٥٠٠م.

(١٢٥) على الرغم من حزنه ومرضه، كتب الملك البرتغالى بتاريخ ٢٣ من نفس الشهر من سيتوبال Setúbal إلى أمير البحر Almirante في أراجون، قمط كاردونا Cardona يطلب منه بعض البزاة وقد مات دون خوان الثانى في ٢٥ أكتوبر ١٤٩٥م بعد زيارة مونزر.

(١٢٦) دير de carmo أسس على يد القائد don nuno álvares Pereira.

(١٢٧) تطلق كلمة La Mina على المخزن أو محل البضائع الذي أقامه الملك خوان الثانى في قلعة San Jorge كما نقرأ في سلسلة نسب Eduardo Núñez .

انظر : -
(De vera Reyum Portugaliae Genealogia, en His. Illust., tomo II, pág. 1269) .

(١٢٨) هذه الرواية حسب Pfandl تتفق مع de Invencione Affricae الكتاب المنشور بواسطة Kunstman.

(١٢٩) كانت سيتوبال Setúbal تقع عندئذ في استرامادورا Extramadura في البرتغال. وقد تقلص إقليم الغرب عما ذكره مونزر إذ يتاخمه من الغرب والجنوب المحيط، ومن الشرق وادى يانة Guadiana ومن الشمال الينتيخو Alentejo .

(١٣٠) ابن دون خوان الاول ملك البرتغال don Juan I de Portugal.

(١٣١) من Pontevedera al mar ، في مارين Marin، هناك أكثر من خمسة كيلومترات.

(١٣٢) لا ندرى كيف أن مونزر الذي قضى تسعة أيام في سانتياجو Santiago يقول أنه لا يوجد اى نهر بها، فإن بها نهران: السار El Sar الذي ينساب من الشمال إلى الجنوب ويمر عند سفح دير سان أوجستين San Agustin ونهر الساريلا el Sarela، الذي يهبط من غرب المدينة، ويلتقى النهران بالقرب من سانتياجو ويمضيا معاً ليصبا في أويا Ulla ليس بعيداً عن تلك المدينة.

(١٣٣) هذا القول به بعض الاضطراب فلا التأسيس ولا إصلاح الكنيسة يعودان إلى عصر شارلمان، وإنما، كما لاحظ الأب Flórez اصطنع الكاتب اسم الأسقف توربينو Turpino.

(١٣٤) المخطوط يتضمن موجزاً لكتاب Sancti Jacobi.

(١٣٥) من الواضح أن مونزر لم يفهم جيداً تاريخ هذه الحوادث التي رووها له، إذ وقع في أخطاء عدة بسبب عدم الدقة.

أولا : رئيس اساقفة سانتياجو don Alonso de Fonseca (ثانى الأساقفة في اسقفية يحمل مثل هذا الاسم واللقب) لم يكن كونت Cifuentes وهو لقب كان يخص جندى من اشبيلية هو don juan de Silva، كما كتب نفس المؤلف في أحد فصوله

الخاصة بهذه المدينة. دون ألونسو هذا رُفع إلى مقر كومبو ستيلا Compostela في سنة ١٤٦٤م، وكان أحد الرجال الثائرين في عصره ومن الأتباع المخلصين لدون فرناندو ودونيا ايسابيل. في حياة انريكى الرابع، أظهر المشتركون في هذه الطائفة عندئذ معارضة شديدة، وعداء كبيراً ضد نظام الرهبنة القائم. وخلال الفترة التي تولى فيها الاسقفية لم تنعم المدينة بيوم من الهدوء، فإن Fonseca كانت لديه المقدرة على احياء العداء التقليدى بين المجمع الديرى والمجلس البلدى، حتى أن الملك أراد أن يضع نهاية لهذا النزاع اليومى الدموى عدة مرات، وفي مناسبة احتفال مجلس البلاط بإقامة القداس في سانتياجو في سنة ١٤٨٠م، فوض هذا الهدف إلى دون فرناندو دى أكونيا don Fernando de Acuña والخريج ذى الفرو الثمين اللذين طلبا من رئيس الاساقفة تسليم استحكامات الكنيسة، التي كان من المعتاد احاطتها بسور في اوقات التمرد الذي وقع منذ أكثر من عام.

قاوم دون ألونسو تنفيذ هذا الامر وأقام حصناً في الكاتدرانية، وأضطر وكلاء الملك إلى حصارها وفقاً للقانون، ولكنه في النهاية تساهل وسلم الكنيسة، فإن وضعها الخطر لم يكن قد زال في سنة ١٤٨٣م، واصل الملك الصداقة الوطيدة مع دون ألونسو (على الأقل في الظاهر) وكان يرغب في ابعاده عن اسقفية جليقية.

(١٣٦) يخلط مونزر بين لويس الأول وسان لويس، الذي سمعه يتكلم في سانتياجو كما ذكر في النص.

(١٣٧) يحتفل بعيد san Fructuso في السادس عشر من أبريل، وبحسب مورالس Morales، أخرجوا جثمان القديس في

موكب ديني خطير، وبهذه المناسبة فإنه عند الحديث عن التابوت الذي كانت فيه عظام san Fructuso يقول :"فتحوا لي ورأيت عظام هذا الجسد المقدس موضوعة في كيس صغير من الكتان. كانت كثيرة بدرجة تدعو إلى الاعتقاد أن مافقد منها كان قليلاً. الرأس لم يكن كاملاً، وإنما بعض أجزاء.
(Viaje ... pag. 122)

(١٣٨) بحسب Galindez de Carvajal، لم تكن هي تلك السنة، وإنما السنة التالية ١٤٨٨م، عندما كان الملكان في سانتياجو، وفي هذه السنة – كُتب في حولياتهما المختصرة – كان الملكان في حج في سانتياجو ومن طريق يؤدى إلى Ponferrada وعبر طريق أخر وحصون عادوا لقضاء فصل الشتاء في شلمنقة Salamanca.

(١٣٩) don diego Gelmuréz أول اسقف ومنذ سنة ١١٢٠ أصبح رئيس أساقفة سانتياجو، وكان، حسب مورالس هو الذي "حبس جثمان القديس Apóstol، ولم يستطع الدخول حيث كان الجثمان - لأنه كان عليه أن يوضح الأمر للملكين ولكبار الأمراء الذين أتوا من كل مكان إلى القديس Romage.
(Loc. Cit. Página 119)

(١٤٠) في اقليم Coruña توجد عدة قرى بهذا الاسم وفي كل جليقية توجد نحو خمسمائة بهذا الاسم ايضاً، والمسافة بين سانتياجو التي يشير إليها مونزر قد تكون عبارة عن San Mamed de Ferreiros O de san Verisimo de Ferreiros وكلاهما في بلدية El Pino وهي قسم من قضاء Arzúa ويبعدان عن سانتياجو بحوالى خمسة فراسخ.

(١٤١) هو نهر المينيو El miño.

(١٤٢) الأنهار التي تلتقي في Villafranca ليسوا أكثر من نهرين هما Valcarce و el Burbia وتوجد أيضاً جداول أخرى تسمى Burburina و San Fiz.

(١٤٣) أخذ اسمه من قرية Rabanal de Camino التي تعرف بهذا الاسم لوقوعها في الطريق الفرنسى أو طريق سانتيياجو وتنتمى إلى قضاء استورقة Astorga.

(١٤٤) El val de san lorenzo, el val de san Ramán y el val del Rey o Valderrey هى قرى مجاورة تابعة لقضاء استورقة Astorga، والطريق الذي يحمل المسافرين يفهم أنه الطريق الأول منها، وهو الذي ذكر في النص.

(١٤٥) استورقة Astorga أو Asturica Augusta عند الرومان، كانت عاصمة بلاد astures، ويؤكد مونزر أنه في أواسط التاريخ الاسبانى، اتخذوا من استورقة مكاناً بدأت منه حركة الاسترداد الإسبانية.

(١٤٦) نهرا Benavente هما el Orbigo و elEsla، وهذا الاخير يمر مسافة في المدينة، ومن هذين النهرين تبدأ بعض الخزانات التي تحمل الماء إلى المدينة والحقول التي تحيط بها، ونلاحظ أن أيا منهما لم يشر إليه مونزر باسم Aquefontis أو Aquafons ومن المحتمل أن يكون هناك خطأ في الاسم أو أنه دون بلغة لاتينية سيئة.

(١٤٧) don Rodrigo Alonso Pimentel، رابع أقماط Benavente ودوق مدينة سيدونيا Medina Sidonia.

(١٤٨) سمورة Zamora :

تقع على الضفة اليسرى لنهر دويرة Duero قريباً من الحدود الشمالية للبرتغال، سكنها المسلمون في بداية الفتح ثم استولى عليها ألفونسو الثالث سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م ثم استردها الخليفة عبدالرحمن الناصر وما لبث أن استولى عليها سانشو ملك نبرة سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م ثم استردها المنصور بن أبى عامر.

انظر:-

ابن عذارى، البيان. تحقيق كولان وبروفنسال، بيروت، ١٩٨٣، حـ٢ ص١٢٤ - العذرى، المصدر السابق. ص٧٨-٨٠ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق بروفنسال، ص٩٨ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص٣٢٤-٣٢٥. (المعرب)

(١٤٩) المسافة تكون أطول شيئاً ما، تبلغ في خط مستقيم أكثر من ٦٥ كيلو متراً. ينبع El Tormes من الجبال التي تفصل استرامادورا Estremadura عن قشتالة القديمة Castilla la vieja، حسب مادوث Madoz، له "أصله الرئيسى في تسرب خزان كبير من المياه، تسمى بحيرة جريدوس Laguna de Gredos ومن نبع يسمى نبع تورميلا Tormella.

(١٥٠) يشير المؤلف إلى مدرسة سان بارتولومى san Bartolomé التي اقيمت على يد دون دييجو دى أنايا مالدونادو don diego de Anaya Maldonando الذي يعود اصله إلى سلمنقه Salamanca، كان واحداً من الأساقفة الإسبان التي

حضروا مجمع كونستانسا constanza ودفن في مقبرة سان بارتولومى في الكاتدرانية القديمة.

(١٥١) لم يكن اسقف اشبيلية الذي توجه اليه الراعى، لكنه كان كاهن Cáceres وبمرور الوقت حصل على تسميته بـ "دون خيل دى سانتا ماريا دى ألبورنوث don Gil de santa Maria de Albornoz".

(١٥٢) القسم الرئيسى الذي رآه مونزر مؤسساً كان سور الكنيسة، الدير الكبير أنجز في سنة ١٤٠٦، الصالة الرئيسية عملت في سنة ١٤٠٥، البهو والمكتبة أسستا في ١٤٧٥، المنزل الملكي، يؤرخ بسنة ١٤٨٥، والمستشفي كان معاصراً تقريبا لتأسيس الدير.

(١٥٣) هذه الشمعة التي يشير إليها مونزر، عند حديثه عن كنيسه جوادالوب Guadalope، يقول أنها كرست للعذراء من شعب لشبونة لتحريرهم من وباء عظيم في سنة ١٤٩٠.
(Loc. Cit., pag 61)

(١٥٤) اسم غير مقروء في المخطوط.

(١٥٥) المنزل الملكى أسس في سنة ١٤٨٥.

(١٥٦) في حوليات Los Anales de Breves, de Galindez de Carvajal، لا يُذكر أن الملكين الكاثوليكيين كانا في جوادالوب في هذه السنة ١٤٩٥.

(١٥٧) في النص aureo ex samato. معجم Du- Cange يعطى الأشكال التالية Samitium و Samitum بمعنى:
pannus holosericus samet et samit nostratribus .

الشعراء القشتاليون القدماء استخدموا Xamed (cantar de Miocid) بمعنى السيد، Xamid (Berceo) و (Lobrode Alexandre) Xamet، يشرحهم على التوالى: قماش مزخرف للمنزل، بساط قماش معين من الحرير، قماش، نسيج، ثوب من الحرير، وفي معجم الشعراء القشتاليين القدماء في القرن الخامس عشر
(B.A.E., tomo LVII)

(١٥٨) إذا لم يكن المؤلف قد أخطأ، فبالتأكيد أن من الغريب أن الفنان يضع شكل سان خوسيه في جبل الجماجم هذا.

(١٥٩) أنشئت الخزانة في أواسط القرن الخامس عشر على يد الراهب الصائغ فراى خوان دى سيجوبيا Fray Juan de Segovia.

(١٦٠) دير سان خورينمو ودير سانتا كتالينا أسسا، في الحقيقة، على يد دون بدرو تينوريو Don Pedra Tenorio، أسقف طليطلة، ولكن دير الفرنسيسكان أسس على أيدى الملكين الكاثوليكيين في سنة ١٤٩٤ بطلب من الأسقف الأول لغرناطة فراى هيرناندو دى طلبيرة Fray Hernando de Talavera.

(١٦١) توفي في ١١ يناير سنة ١٤٩٥ قبل وصول مونزر إلى طليطلة بأربعة أيام.

(١٦٢) الحجرة الأولى للمعبد الحالى وضعت على يد فرناندو الثالث في ١١ أغسطس ١٢٢٧.

(١٦٣) المقاعد السفلى، التي يتحدث عنها مونزر، حفرت على يد المعلم رودريجو أليمان Rodrigo Aleman.

(١٦٤) الدكتور ألفونسو أورتيث Alfonso Ortiz، كاهن طليطلة، ألف خمس مقالات باللغة القشتالية، طبعوا في اشبيلية في سنة ١٤٩٣ وعنوانها كالتالى:
De la herida del rey don Fernando el católico, Consolatorio de la princesa de Portugal, Oración de los Reyes católicos en latin y romance, Dos cartas mensajeras a los Reyes catolicos y contra la carta del protonotario lucena . Blas Ortiz, en su Descriptione Templi Toletoni .

يقال أن ألفونسو أورتيث كتب بعض الأجزاء باللغة اللاتينية. بتكليف من Cisneros الذي خلف الكارذينال ميندوثا في المقر الأسقفي الطليطلى.
(Bibl. Hisp. Nova)

(١٦٥) خلط المؤلف بالتأكيد اللقب المقدس لهذا الدير بلقب دير بلد الوليد Valladolid، الذي يتحدث عنه باستمرار، فإن دير Avila بدون شك هو لسانتو توماس Santo Tomás الذي أسسه الملكان الكاثوليكيان، ولم يكن في هذا التاريخ وإنما في سنة ١٤٨٢.

(١٦٦) يذكر بيانويبا Villanueva أنه رأى في دير المبشرين في بلنسية في ربع القرن الرابع عشر مخطوطاً، يتضمن ترجمة لاتينية لفلسفة الأخلاق لأرسطو طاليس La Echica Aristotelis، الذي في أخره تُقرأ هذه الكلمات:
" Magnifici viri domini Marti ... juris utriusque ...
ethicorum decimus feliciter explicit ." ,

ويضيف أنه ليس بين الـ Martinos لـ Biblioteca latina de fabricio ولا بين شراح ارسطو طاليس نفسه، ما يمكن منه معرفة أيهم كان واضع هذه الترجمة، التي تقول في المقدمة أنه حتى عصره فقط عملت ترجمة لاتينية رديئة لأخلاق ارسطو طاليس تنسب إلى أحد الرهبان من نظام رهبنة المبشرين. (الرحلة حـ٤ ص١٣٨ و١٣٩) ، وربما تكون أحدى هاتين الترجمتين هى التي ذكرها مونزر.

(١٦٧) يبدوأن المؤلف لم يكمل هذه الفقرة.

(١٦٨) في سنة ١٤٩٤ كان الملكان الكاثوليكيان "في شقوبية، حيث ظلوا حتى أغسطس، ومن هناك اتجهوا إلى مدريد، حيث قضوا فصل الشتاء، وكانوا في وادى الحجارة Guadalajara لزيارة الكاردينال ميندوثا، الذي كان يعانى من سكرات الموت".
(Galindez de Carvajal : Anales breves)

(١٦٩) كان الدير عندئذ في طريق El Pardo حيث أمر بتشييده انريكى الرابع Enrique IV إحياء لذكرى الطريق الشهير لشعارات دون بلتران دى كويبا don Beltran de Cueva وظل على وضعه حتى لاحظ الملكان الكاثوليكيان في سنة ١٥٠٢ أن المكان كان غير صحى فنقلوا الجميع إلى أعلا الـ

وأقيم لهذا الغرض دير في المكان الذي Prado Viejo أصبح اليوم كنيسة سان خورينمو San Jeronimo.

انظر: -

Enriquez del Castillo : Crónica de don Enrique IV, cap. XXIV, Mesonero Romanos : Nuevo manual hisıorico – topografico – estadistico, descripción de Madrid, Madrid, 1854, pag. 297.

(١٧٠) كانا ابنا مولاى ابى الحسن (أو مولاى حسن، كما تسميه تقريبا كل المدونات المسيحية) السابق لأبى عبد الله الأخير Boabdil، والسلطانة ثريا، (Zoraida) التي تحولت إلى المسيحية (فإنها كانت مسيحية في شبابها) بفضل حث ايسابيل الأولى. تحول كذلك أبناؤها، واتخذوا الاسماء التي يشير إليها مونزر إلى جانب لقب غرناطى وكان لهم تقدير في البلاط. تزوج دون فرناندو don Fernando من دونيا ماريا دى ساندوبال doña Maria de Sandoval حفيدة أول دوق للامارة، بينما تزوج دون خوان من دونيا بياتريث doña Beatriz de Sandoval ابنة قمط كاسترو Castro.

(١٧١) أخطأ مونزر تماما في المعلومات التي يعطيها لنا حول هذه الأمر فإنه، كما هو معروف لم يكن دون ألفونسو الإبن الأكبر ولا وريث العرش عندما توفي والده دون خوان الثانى ملك قشتالة، وانما الذي خلفه كان ابنه الأكبر دون انريكى الرابع.

(١٧٢) لم يعقد هذا الزواج في القلعة Alcalá وإنما في بلد الوليد Valladolid.

(١٧٣) Alfonso de Portugal.

(١٧٤) جاريباى Garibay ومدونة نابارا Cronica de Navarra يذكران أنه ولد سنة ١٤٥٣، بينما يؤكد ألونسو دى بالنثيا Alonso de Palencia وثوريتا Zurita أن الميلاد كان في سنة ١٤٥٢ (١٠مارس) بطريقة عندما عرفها مونزر أنقص أقل من شهرين ليكمل أربعين عاماً.

(١٧٥) ولدت في ابريل عام ١٤٥١ وعلى ذلك ففي يناير ١٤٩٥ كانت تبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً وتسعة شهور.

(١٧٦) ولدت في السادس من نوفمبر ١٤٧٩. فلوريث Flórez في كتابه Reinas catolícas (حـ٢، ص٨٥٩) ذكر أن لويس بيبيس Luis Vives قد امتدح معرفة دونيا خوانا الواسعة باللاتينية مؤكداً ذلك في رسالته.
De Institutione Faeminae Chsistianae .

(١٧٧) الابنة الثالثة للملكين الكاثوليكيين تدعى دونيا ماريا، ولدت في عام ١٤٨٢، ومن ثم كان لديها عامين وليس تسع كما يذكر مونزر. الرابعة كان لديها تسع سنوات كاملة، فإنها ولدت في ١٥ ديسمبر ١٤٨٥.

(١٧٨) ولد في ٣٠ يونيو ١٤٧٨.

(١٧٩) كان مؤدباً للأمير فراى دييجو دى ديثا Fray Diego de Deza وبعد ذلك أصبح محققاً عاماً، ثم اسقفا لاسقفيات عدة وأخيراً صار رئيس أساقفة طليطلة.

(١٨٠) بدرو مارتير دى أنجليريا Pédro Martir de Angleria كان عالما في الانسانيات، مؤلف:
Décadas del Nuevo Mondo, de la Legatio y del Opus epistolasum .

كان مؤدباً للشرف القشتالى، وبعد ذلك، خلال فترة حكم كارلوس الأول، صار عضواً في مجلس الشورى الملكى ورئيساً لدير جامايكا Jamaica.

(١٨١) يذكر مونزر هنا خوان رئيس أساقفة طليطلة الشهير وأن قلعة يحصب Alcala de Henares كانت مستقرا لدون فرناندو ودونيا ايسابيل منذ تزوجا وحتى اعلانهما ملكان على قشتالة.

(١٨٢) النهر الذي يمر بوادى الحجارة ليس نهر التاجو Tajo وانما نهر اينارس Henares.

(١٨٣) يشير إلى دون انييجو لوبث دى مندوثا don Iñigo López de Mendoza المركيز الثالث لسانتيانا Santillana والدوق الثانى للامارة، تزوج سنة ١٤٦٠ من دونيا ماريا دى لونا dona Maria de Luna ابنة المشير el condestable دون ألبارو دى لونا don Alvaro de Luna الذي نظراً لوفاة أخيه كونت سان ستيبان دى جورماث san Esteban de Garmaz وحد بيت لونا ووحد الإمارة.

(١٨٤) بُدأ العمل في بناء القلعة فوق القلعة القديمة في عام ١٤٨٠ على يد الدوق، وكان عريف العمل خوان جواس Juan Guass حسب ما تؤكده بعض النقوش في المبنى.

(١٨٥) في النص، يمكن الاعتقاد أن مونزر يتحدث عن تماثيل، وتماثيل نصفية أو زخارف محفورة، ولكنها ليست كذلك، فإنها عبارة عن شعارات، وليس فقط لأسلاف الدوق، وإنما كانت أيضاً تخص أكثر العائلات شرفاً في إسبانيا. دون لويس ثباتو Don Luis Zapato كان لديه صبراً مدهشاً ليصف الشعارات المذكورة واحداً واحداً في كتابه كارلوس الشهير Carlos famoso، متحدثاً عن إقامة الملك فرانسيسكو الأول Francisco I في قصر الإمارة عندما نقل أسيراً إلى مدريد، وأشعار الأشراف في أوزان وقافية، له أهمية كبرى للنسب، ولكن من الصعب قراءتها، ويقول أن الملك الفرنسي سأل الدوق دون دييجو don Diego ابن دون انييجو Iñigo، ما الشعارات التي كانت مرسومة حول الجزء الأعلى ؟

أجابة السيد، ماضينا، الذي أشرق في ورع كبير، في كل الأنساب الشهيرة في اسبانيا، ومن التي لم تفعل من قبل، من أجل اثارة النسب.

انظر : -

Capmany : Museo Historico, Segunda edicion, Madrid 1862, tomo II, pag 152 .

دون بيثنتي كاستنيادو don Vicente castañedo اعاد طبع الشعر المكرس لهذا البهو في كتيب بعنوان "دخول الملك فرانسيسكو ملك فرنسا إلى وادى الحجارة"

(La entrada del ney Francisco de Francia en Guadalayara, Madid 1918)

(١٨٦) اسقف سيجوينثا Siguenza لم يكن تابعاً لأبرشية طليطلة، كما ربما يفهم مما ذكر في النص، الكاردينال ميندوثا جمع كلا المركزين، وبعد وفاته وتعيين cisneros لخلافته في كرسى طليطلة، عُين كذلك دون برناردينو دى كارباخال don Bernardino de carvajal الذي كان أسقفا لقرطاجنة، خلفاً لميندوثا، في كرسى سيجوينثا.

(١٨٧) دون رودريجو دى ميندوثا، الذي كان خلال الحرب في المعسكر العام للملكين الكاثوليكيين يخدم مع ألف رامح، تحت قيادة عمه دون بدرو أورتادو دى ميندوثا don Pedro Hurtado de Mendoza.

انظر : -
(Alfonso de Palencia : Guerra de Gramada, trad, de Paz y Melia, Libro IX, pág 413)

(١٨٨) منابع نهر خالون Jalón لم تكن في مدينة سالم، وإنما في قرية في اقليم سوريا soria يسمى استيراس Esteras في سلسلة جبال سييرا مينيسترا Sierra Ministra.

من جانب أخر أخطأ مونزر في تحديد موقع قلعة أيوب فإنه ذكر أن الموقع الحالى لقلعة أيوب ليس بالضبط هو موقع Bibilis القديمة، والتي مازالت بقاياها توجد في جبل بامبولا Bambola، الذي يقع على بعد نصف فرسخ من هذه المدينة، كما يثبت ثوريتا Zurita التأسيس في بعض الفقرات، التي يشير فيها إلى المكان المذكور، وأخرى لـ Ausonio في الـ Epitola 25 Ad Paulinum وقد وافق على هذا الرأى لويس

مونييث Luis Múnez في كتابه وصف اسبانيا Descripcion de España (صفحة ٤٥٠، ٤٥١).

وبالنسبة للكتاب الذي اهتم بعد ذلك بما يجب أن يذكر حول اللفظ الأول كان لدون بيثنتى دى لا فونتى don Vicente de la Fuente مؤلف الجزء XLIX من España Sagrado الذي يوجد في صفحة ٧٥ وما يليها أخبار موثقة حول هذا الموضوع.

(١٨٩) من الواضح أنها قراءة محرفة لهذا الاسم، ربما كتبه مونزر Almonia أو Elmonia وقرأها الناسخ مرة Uio وفي مكان آخر mo و uia ومرة أخرى mia، مما جعل الكلمة لا تظهر كاملة. والطريق الذي اتبعه الرحالة بعد ذلك وهو الطريق المعتاد للسفر من قلعة أيوب أو سرقسطة، ويتضح من المسافات القريبة التي يشير إليها أن القرية لم تكن إلا قرية المونيا دى دونيا خودينا Almunia de doña Godina.

(١٩٠) هما El Jiloca y el Gállego.

(١٩١) إذا كانت ترجمة كلمة Karge تعني شحنة Cargas فإن محصول الزعفران كان من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ كليولتر فإن الشحنة تقدر بثلاثة أو أربعة Fanegas (مكيال للحبوب) وأن كان يختلف بحسب الإقليم والفانيخاس Fanegas يعادل حوالى ٥٥ لتر.

(١٩٢) كان دون الفونسو دى أراجون don Alfonso de Aragón، ابنا غير شرعى لدون فرناندو والقطلانية الدونثا روش دى ايبارا Aldonza Roch de Ibarra، ولد في Cervera

في عام ١٤٧٠، وعند وفاة الأسقف دون خوان دى أراجون don Juan de Aragon الابن غير الشرعى للملك الأراجونى دون خوان الثانى don Juan II قُدم بواسطته وبواسطة دون فرناندو لشغل الوظيفة الشاغرة، ولكن البابا لم يوافق، لأنه لاحظ أن المرشح لشغل المنصب لم يكن عنده أكثر من ست سنوات، وكان عليه أن يخول له ادارة الشئون المسيحية الخاصة بمطران العاصمة، وبعد ذلك عينه اسقفا لسرقسطة.

انظر: -
(Zurita : Anales de la Carona de Aragón, Libro XX, cap. XIV y sig.)

(١٩٣) بدأت الأعمال في الكنيسة المسيحية في الثلث الأول من القرن الثانى عشر، ويقال، بعد غزو المدينة، ومن المعروف أن القسم الأكبر منها استمر البناء فيه في عصر البابا الشهير السابق.

(١٩٤) المدن التي تتشابه في الأسماء التي تظهر في النص هى:Gmund y Cmunden ولكن ليست آيه واحدة منهما في سوابيا. بحسب رواية الكاتدرائية، انشئت على يد المعلم انريكى Enrique في جزؤها العلوى، وعلى يد خوان دى بالفوجونا أو دى تراجونا Juan de Vallfogona o de Tarragona في جزؤها الأسفل.

(١٩٥) هذا هو كل ماذكره مونزر عن كنيسة دل بيلار del Pilar التي أخذت اسمها الكنسى المقدس مثل تاريخ الأيقونة، وبالتأكيد فإنها كانت عندئذ معبداً لمطران العاصمة

ولم تكن لها الأهمية المعمارية التي عليها اليوم، فإنه لم يبدأ تشييدها حتى أواخر القرن السابع عشر.

(١٩٦) بعض الكتاب يطلقون على هذا الدير سانتا ماريا دى خيسوس Santa Maria de Jesús أو سانتا ماريا خيسوس Santa Maria Jesús يقع في ربض التاباس Altabás عبر قنطرة الحجارة El Puente de Piedra.

(١٩٧) كان راهباً في جماعة سان لاثارو San Lázaro المؤسس على يد دون خايمى الأول don Jaime I ويقع كذلك في ربض التاباس.

(١٩٨) كانت في الحقيقة دائرة كنسية ودير موغل في القدم تابعاً لأسقف وشقة Huesca منذ عام ١٠٦٣؛ الذي عقد فيه مجمع Joca، الذي دعى إليه الاسقف باترنو Paterno، والحق بهذه الاسقفية، التي كانت حنئنذ حديثة البناء وظل منتمياً إليها حتى سنة ١٤٩٣، وهو العام الذي نفذ فيه الملك الكاثوليكى مشيئة الأب دون خوان الثانى don Juan II وأعاد الدير مع كنيسة سانتا انجراثيا santa Engracia المقدسة، اقام البناء وعهد بالعبادة إلى الرهبان الخورينموس.

انظر:

(Espana Sagrada tomo XXX, cap. X)

(١٩٩) لا يوجد هذا المثل بين الأمثال التي وردت في رحلة الماركيز دى سانتيانا Santillana ولا في أى نتاج أدبى آخر، ومع ذلك فإننا لا يمكننا أن ننكر أصالته.

(٢٠٠) تطيلة Tudela:
مدينة بالأندلس في الثغر الأعلى تقع على نهر الإبرو كثيرة الزرع والحرث، تتبع اليوم مقاطعة نبرة Novarra سقطت نهائياً في يد الملك الفونسو المحارب ملك أراجون سنة ٥١١هـ/١١١٧م.

انظر: -
ابن غالب: المصدر السابق. ص٢٨٧ – العذرى: المصدر السابق. ص٢٨ – الحميرى: المصدر السابق. تحقيق احسان عباس، ص١٣٣ - دائرة المعارف الإسلامية مادة تطيلة. (المعرب)

(٢٠١) هو نهر أرجا Arga.

(٢٠٢) على شاطئ الابرو Ebro يوجد أكثر من عشرة فراسخ حتى موقع نابارا ومن بنبلونة إلى أبعد مكان من الحدود مع فرنسا في خط مستقيم حوالى ١٢ أو ١٤.

(٢٠٣) الملكة دونيا كاتالينا doña Catalina لم تكن ابنة سلفه الملك فرانسيسكو فيبو Francisco Febo ، وانما اخته.

(٢٠٤) توفيت دونيا مجدالينا دى باليوس doña Magdalena de Valois في ٢٤ يناير من هذا العام، كانت ابنة لكارلوس السابع ملك فرنسا واختا للويس الحادى عشر وأميرة لبيانا Viana نظراً لزواجها من جاستون دى فوا Gastón de Foix ابن دونيا ليونور ملكة نابارة.

انظر : -

Crónica de Navarra, Libro IV, cap. III

دون جاستون دى فوا لم يتول ملك نابارا، لأنه مات عندما كان ولياً للعهد.

(٢٠٥) رواية هزيمة الرونسفال التي يعطيها مونزر تتفق كثيراً مع ماجاء في أنشودة رولان Chanson de Roland التي ليست أقل خرافة مماجاء في المدونة العامة المأخوذة من مدونات رود ريجو الطليطلى و لوكاس دى توى Lucas de Tuy والتي أخذت عن الروايات السابقة المستوحاة بصفة كبيرة من القصائد الحماسية. حقيقة فانه في روايات مونزر نفس الطريقة التي في الانشودة، جيش شارلمان أو على الأقل مؤخرته تحت قيادة رولان، دمرت على أيدى المسلمين، الذي كان على مقدمته مارسيليو Marsilio ملك سرقسطة، ولكن ليس بواسطة المسيحيين الاسبان، الذين لم تذكرهم القصيدة، بينما حسب الرواية القشتالية، فإن تدمير الجيش الفرنسى كان بسبب جيوش الفونسو الثانى ملك Asturias الذي كان يتألف من الاشتوريين، والبسكانيين والنابارييين، والاراجونيين، والجاسكونيين بدون أن يكون للمسلمين أى دور في المشروع الذي عمل لنجدة المسيحيين كنتيجة للتحالف الحالى بين الملك مارسيليو وبرناردو دل كاربيو Bernardo del Carpio.

(٢٠٦) منابع الابرو، كما هو معروف في Fontibre (Reinosa)، هذا النهر يجرى أكثر من مائة كيلومتر من رونسفال.



المصادر والمراجع

مصادر الترجمة الإسبانية

Bibliografía

F. Kunstman: *Hieronymus Münzers Bericht über die Entdeckung der Guinea, mit einleitender Erklärung*
Artículo aparecido en <<Abhandl. der Hist. Klasse der Bayerischen Akademie der Wiss.>>, VII (1854)
Primera edición de *De Inventione Africae*, acompañada de algunos extractos del *Itinerario*

Hieronymus Monetario: *Itinerarium Hispanicum, 1494-1495*
Edición y comentario de Ludwig Pfandl, publicados en la <<Revue Hispanique>>, XLVIII (1920), pp. 1-179
Primera edición de la parte correspondiente a la Península del *Itinerario*

Jerónimo Münzer: *Viaje por España y Portugal en los años 1494 y 1495*
Traducción del latín, noticia preliminar y notas por Julio Puyol
<<Boletín de la Real Academia de la Historia>>, LXXXIV (1924), pp. 32-119; 197-280
Primera traducción castellana del texto editado por Pfandl, ilustrada con numerosas notas. Existe una tirada aparte: Madrid, 1924

Jerónimo Münzer: *Viaje por España y Portugal. 1494-1495*
Traducción de José López Toro. Prólogo de Manuel Gómez-Moreno
Madrid, 1951
Nueva traducción castellana del texto editado por L. Pfandl

Jerónimo Münzer: *Viaje por España y Portugal. Reino de Granada*
Traducción de José López Toro. Prólogo de Fermín Camacho Evangelista
Granada, 1987
Reedición parcial de la obra anterior

<<*Itinerario*>> *do Dr. Jerónimo Münzer (Excertos)*
Introducción, edición, traducción portuguesa y notas de Basilio de Vasconcelos
<<O Instituto>>, Universidad de Coimbra, LXXX (1930), pp. 541-569, LXXXIII (1931), pp. 140-190
Edición y traducción portuguesa de *De Inventione Africae* y de la parte del *Itinerario* relativa a Portugal, con notas aclaratorias. Existe tirada aparte: Coimbra, 1931

E.P. Goldschmidt: *Hieronymus Münzer und seine Bibliothek*
Londres, 1938
Estudio fundamental para situar la obra de Münzer en su época y conocer sus trabajos como editor especializado en temas geográficos

* * *

Sobre las ilustraciones de Christoph Weiditz resulta imprescindible:

Das Trachtenbuch von seinen reisen nach Spanien (1529) und den Christoph Weiditz
Editado por Theodor Hampe. Texto trilingüe (alemán, inglés, español). 144 láminas
Berlín-Leipzig, 1927

مصادر ومراجع الترجمة العربية

أولاً : المصـــادر

ابن الأبار،أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) : الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٨٥.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد الشريف السبتي(ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥٤م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. نسخة نشر دى خويه، ليدن، ١٨٦٦م - نسخة أخرى بيروت، ١٩٨٩م.

الحميرى، عبد المنعم (ت في أواخر القرن التاسع الهجرى) : الروض المعطار في خبر الأقطار. نسخة نشر وترجمة ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٨٨ ـنسخة أخرى تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٨٤.

ابن حيان أبو مروان (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٩م) : المقتبس في أخبار بلد الأندلس : القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر. نشر عبد الرحمن على الحجي، بيروت، ١٩٦٥ - تحقيق بدرو شالميتا، الجزء الخامس (مدريد ١٩٧٩)

ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله(ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) : خطرة الطيف. تحقيق أحمد مختار العبادى، الامارات، ٢٠٠٣.

العذرى ، أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى (ت ٤٧٨هـ/٩٨٨م) : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك. تحقيق عبد العزيز الاهوانى، مدريد، ١٩٦٥.

ابن غالب الغرناطى : نص أندلسى جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس. تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثانى، نوفمبر، ١٩٥٥.

القزويني : آثار البلاد. بيروت، ١٩٦٠.

ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزرى (من علماء القرن السادس الهجرى) : الإكتفاء في أخبار الخلفاء. تحقيق أحمد مختار العبادى، مدريد، ١٩٧١.

ثانياً : المراجـــع

- دائرة المعارف الإسلامية .

- **سالم ، السيد عبد العزيز : تاريخ ألمرية الإسلامية** قاعدة أسطول الأندلس. بيروت، ١٩٦٩.

- **العبادي ، أحمد مختار : في تاريخ المغرب والأندلس.** الاسكندرية، ٢٠٠٥.

- **محمود فاخورى وصلاح الدين خوام : موسوعة** وحدات القياس العربية والإسلامية، ومايعادلها بالمقادير الحديثة. بيروت: مكتبة لبنان، بدون تاريخ.

ثالثاً : المراجـــع الأجنبيـــة

- José María Alonso Gamo : Viajes a España del magnifico Señor Andrea Navajero embajador de la Republica de Venecia ante EL Emprador Carlos V (Valencia 1951).

محتويـــــات الكتاب

الموضــــوع | رقم الصفحة